د. رافي بـــترا

بعد الشيوعية سقوط الرأسمالية

ترجمة وتقديم: د. رجب بـودبـوس



الـدار الجماهيـرية
للنشر والتوزيع والإعلان

بعد الشيوعية
سقوط الرأسمالية

د. رافي بــــترا

بعد الشـــيوعية سقوط الرأسمالية

ترجمة وتقديم: د. رجـب بـودبـوس



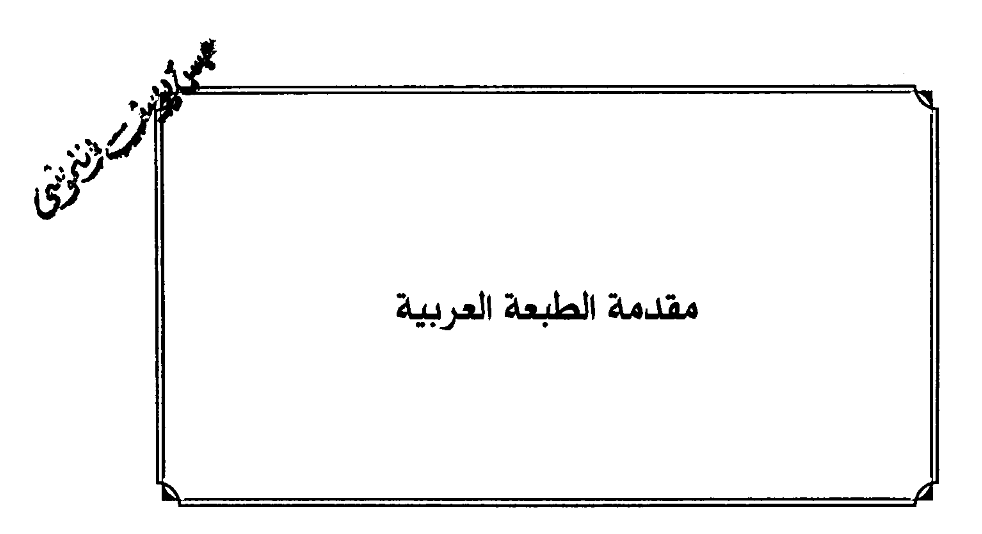
الطبعة الأولى: أي النار 1428 ميلادية

رقم الإيداع: 3083 / 97 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته: ص.ب. 17459 ـ مبرق: 30098 هاتف: 614418 ـ بريد مصور 614816 ـ 051

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى



مقدمة الطبعة العربية

الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته العربية إلى القارىء العربي، ظهرت عام 1978. آنذاك كانت الأنظمة الشيوعية في حالة طيبة عموماً ذات قوة نووية رهيبة، وهيبة سياسية لا يمكن تجاهلها، كما أن الرأسمالية خصمها كانت في عنفوانها. ومع ذلك يعلن باترا أن الشيوعية والرأسمالية سوف يختفيان عما قريب!

من كان يصدق هذا آنذاك؟

إنني أذكر ما كان يواجهني حين أذهب هذا المذهب. في أحسن الظروف كم يؤخذ ما أذهب إليه جدياً، وفي غالب الأحيان لا يثير إلا السخرية: الاتحاد السوفيتي العظيم متأزم؟! ينهار؟! القوة المنافسة على سيادة العالم، التي أقمارها تجوب الكون وأساطيلها تمخر البحار، والتي أول من أنزلت مركبة فوق القمر..؟ هذه القوة العظمى تنهار؟ متأزمة؟ إنه ليس أكثر من تخريف أو دعاية بورجوازية، إنه موقف ضد التقدم ضد الطبقة العاملة. ألا يمثل

الاتحاد السوفيتي دولة العمال؟ وأمل عمال العالم؟ إن من يذهب هذا المذهب يلعب لعبة الرأسمالية عميل رأسمالي!

لكن لا تهنأ طويلاً بهذه الصفة، إذ لا يلبث أن ينزعها منك أولئك الذين بريق الرأسمالية يخلب ألبابهم، والعالم الهوليودي، الذي يسوقه الإعلام يخدر وعيهم، إن أضواء الكاميرات ساطعة لدرجة تخفي: العتمة، الفقر، المعاناة، الاستغلال. فكيف يأفل هذا السطوع تنهار هذه الانجازات؟ إنك إذن عميل شيوعي، مخرب حاقد... أو على الأقل أعمى لا يرى بريق الواجهات..

ولا يستحي هؤلاء أن يرموك بالكفر، ألست عميلاً شيوعياً، إذن كافر ملحد. وكأن الرأسمالية، التي يسيل لها لعابهم، أقل مادية من الشيوعية؟! وكأن الكنائس التي تبنيها هي حقاً لعبادة الله وليست استثماراً رأسمالياً، طويل الأجل صحيح، لكنه استثمار!.

ليست الرأسمالية أقل مادية من الشيوعية، بل ربما أسوأ مادية، إن الماركسية تنكر الدين وتحل المادة محل الله، لكن الرأسمالية لا تحل العجل الذهبي محل الله فقط، بل أيضاً لا تستحي أن تستخدم الله وكنائسه في خدمة شراهتها التي لا تشبع للمال.

وحتى التسعينيات ظل كثيرون في اعتقادهم يعمهون: البعض يرى أن مستقبل العالم أحمر، والبعض الآخر أصفر كلون الذهب. وإذا لم تعتقد في هذا ولا ذاك، فإن عليك أن تنتظر حكم الواقع أن يصدم الحالمين الجدار، وأن تعاني خلال الانتصار السخرية وربما

القمع من هذا وذاك، انقسام العالم لم يكن يقبل طريقاً ثالثاً.

لقد زرت الاتحاد السوفيتي وبعض البلدان الدائرة في فلكه عدة مرات آخرها كان في أوائل عام التسعين، وحاورت مثقفين ومسؤولين وتبينت أمامي الحقيقة واضحة. لقد كنت أذهب مذهبي هذا منذ السبعينيات، بالنسبة للرأسمالية كانت التجربة المعاشة ـ بحكم إقامتي مدة طويلة في بلد رأسمالي ـ تسند الإطلاع النظري. أما بالنسبة للأنظمة الشيوعية فقد كنت أبني إستنتاجاتي على منطق نظري. كان يعوزني رؤية الواقع قدر معرفتي بالفلسفة الماركسية. وما كان بإمكاني الاعتماد على ما يكتب عن الاتحاد السوفيتي، فهو أحد أمرين: إما دعاية رسمية سواء جاءت مباشرة أو من أنصار مخدرين مأخوذين بقوة «الأخ الأكبر أو الرفيق الأكبر» أو أنها دعاية مضادة لا تهمها الحقيقة بقدر ما يهمها تشويه الواقع السوفيتي. وبين هذا وذاك البحث عن الحقيقة كمن يبحث عن إبرة في المحيط. لم يكن أمامي إلا النقد النظري استناداً إلى معرفة عميقة بالفلسفة الماركسية مستاقة من مصادرها، واستنتاج ما يترتب منطقياً على هذه الفلسفة.

إنني أعرف، وكل المتخصصين في الماركسية يعرفون، أنه ليس في الماركسية ما يمكن تطبيقه عملياً. ماركس لم يضع نظاماً اقتصادياً بديلاً للرأسمالية، ولم يقترح نظاماً سياسياً يؤطر مجتمع ما بعد الرأسمالية. وعندما سئل عن ذلك أجاب: ليس في إمكاني أن أتنبأ بما سوف يصنعه من سيعيشون المرحلة الشيوعية والذين آباء آباءهم لم يولدوا بعد.

لقد درس التناقضات الذاتية في رأسمالية عصره 1813 ـ 1881. متوقعاً انهيارها، وحلول المرحلة الشيوعية محلها. هذه المرحلة قدر أنه ليس له أن يقترح لها نظاماً اقتصادياً، ولا إطاراً سياسياً، في رأيه سوف تصنع نظامها الاقتصادي وإطارها السياسي. وليس لأحد أن ينشغل بذلك مقدماً. تماماً كما أن المرحلة الرأسمالية صنعت نظامها الاقتصادي وإطارها السياسي، سوف تصنع المرحلة الشيوعية نظامها الاقتصادي وإطارها السياسي. الرأسمالية قبل كل شيء، ليست نتاج فكر ولا تطبيق مذهب، إنها نتاج مرحلة نتاج سلوك وعلاقات ومعاملات، إنها نتاج تطور معين لأدوات الإنتاج، هذا التطور ليس في مقدور أحد إيقافه، لقد قضى على الإقطاع وأقام الرأسمالية، وسوف يقضي على الرأسمالية في أوانها. عندئذ سوف تنتج الشيوعية نظامها الاقتصادي والإطار السياسي المناسب لها، والذي ليس لأحد توقعه مسبقاً.

ماركس مخلصاً لفلسفته، كل ما يذهب إليه أنه مثلما حلت الرأسمالية محل الإقطاع، بدون إرادة أحد، ولا فكر لها أحد، ولا أحد اقترح لها نظاماً اقتصادياً أو سياسياً، ومثلما حل الاقطاع محل العبودية رغم سادة العبيد، فإن الشيوعية ستحل حتماً محل الرأسمالية حالما تتحقق شروط ذلك، وحالما يبلغ تطور أدوات الانتاج المرحلة اللازمة. قياس الشيوعية لن يستشار فيه أحد، ولا ينتظر من أحد أن يفكر لها.

إذن ماذا يطبق من فكر ماركس؟ ليس علينا إلا الانتظار، انتظار

حلول المرحلة الشيوعية المنتجة تلقائياً نظامها السياسي وإطارها الاقتصادي.

ما علاقة ذلك بالدولة التي نشأت، بعد أكثر من ربع قرن على وفاة ماركس، والتي رفعت الماركسية شعاراً، نتاج ما عرف بالثورة البلشفية؟

لا أحد يجهل أيضاً أن الدولة الماركسية - كما تسمي نفسها - ليست بديلاً للرأسمالية، كما أنها ليست فاتحة المرحلة الشيوعية حتى وإن أسمت نفسها شيوعية. إن كل ما تطمح إليه هذه الدولة خلق الشروط - اصطناعياً - المؤدية إلى نهاية الرأسمالية وحلول المرحلة الشيوعية. إنها دولة تريد أن تقوم مقام الرأسمالية وليست بديلاً لها. أن تصنع ما كان يتوجب على الرأسمالية القيام به ليقودها إلى حتفها.

الخلاف الذي دار بين من عرفوا بعد ذلك بالمناشفة والبلاشفة، في حزب العمال الديمقراطي الروسي، يوضح لنا ذلك: المناشفة إخلاصاً حرفياً لماركس، ذهبوا إلى أن دور الحزب دعم الحركة الليبرالية وفسح المجال للرأسمالية لتصنع بنفسها شروط موتها. إذ من رأيهم لا يمكن استعجال المرحلة الشيوعية قبل نضج الرأسمالية أي أقصى حدودها. البلاشفة ثقتهم في حتمية التاريخ ليست مطلقة، وعقيدتهم في ضرورة توالي المراحل مهزوزة. لقد استقر رأيهم على أن الحزب - لا الرأسمالية - هو الذي يصنع الشروط وينضج

الظروف المؤدية إلى المرحلة الشيوعية، أن يحل الحزب محل الطبقة الرأسمالية، عندئذ استقلال الطبقة يصير استقلال الحزب مقولة لينين في هذا صريحة: ما يصنعه خمسة مليون من الملاك الرأسماليين لن تعجز عنه دولة 12 مليون موظف.

لقد أرادها لينين ولادة قصرية، فلم تمكث في غرفة الإنعاش إلا بعض الوقت حتى ماتت.

ما الذي انهار إذن حقيقة؟ إنها الرأسمالية متجسده في دولة 12 مليون موظف، إنها الرأسمالية الاصطناعية، لقد فشلت دولة لينين في الحلول محل الرأسمالية لتقودها عبر تناقضاتها إلى حتفها، فعانت الدولة التناقضات دون تحقيق الهدف. عندئذ فشل رأسمالية الدولة لا يعني نجاح رأسمالية الطبقة ولا خلوها من تناقضات تقودها إلى حتفها. . . .

لقد فرح الرأسماليون قبل الأوان.

اعتراض على الماركسية ليس من خلال الدولة الرافعة لها شعاراً فتلك لم يكن لي معرفة بها واقعية حتى زرتها أكثر من مرة(*) إنه اعتراض على مبادئها الفلسفية: لم تقنعني يوماً الحتمية التاريخية، ولا نظرية المراحل، ولا التفسير الاقتصادي، ولا المادية ولا دكتاتورية أدوات الانتاج.

(*) أول زيارة كانت عام 82 رفقة قائد ثورة الفاتح معمر القذافي. وآخرها عام 1990 بدعوة من وزارة الخارجية كأمين اللجنة الشعبية العامة للإعلام والثقافة.

لقد أتيحت لي الفرصة لمعاينة الواقع السوفيتي قبيل تفكك الاتحاد السوفيتي عام 1990، وتأكدت أن الدولة العظمى مؤسسة على قاعدة دولة من العالم الثالث، قوتها عسفية، أنجزتها استناداً إلى الجيش والمخابرات وحزب تقيده سلاسل الهرمية إلى شخص الزعيم الأعلى، إنها مركزية حادة للسلطان السياسي. دفعت بالاستقلال - لتحقيق الفائض - إلى أقصى مداه، فذهبت بأحلام الاشتراكية والمساواة في دولة تسودها «روح المقاتلين» كما يذهب ساركار يبدو لي أن باترا محق حين يذهب إلى أن «التركيز الحاد للسلطان السياسي أسرع بسقوط الشيوعية». الاشتراكية لا يمكن أن تتعايش مع دكتاتورية سياسية. هذه تفقد قوتها عندما يزول تأثير مخدر الأوهام التي قامت عليها. حالما تضعف القوة المهيمنة ينحل الرباط فخابت الآمال، وتبددت الأوهام، وتكشف الواقع مريراً: انهيار اقتصادي، صراعات قومية مكبوتة منذ عهد القيصر، ضياع سياسي، غوغائية اجتماعية. سقوط الدولة المركزية السريع في مجتمع ألفها، رغم أنه يكرهها، أدى إلى ظهور مافيات، بدت السلطة المركزية أرحم منها. ليس ثمة بديل إذن إلا حزمة البرسيم أمام الحمار: المشروع الحر، السوق، إذن البطالة التضخم. . ارتفاع الأسعار، السلع لا زالت نادرة وأكثر ندرة لا توفرها إلا الأسعار الملتهبة. . أما السياسة فقد اشتراها اللصوص عبر نظام الانتخابات.

لقد وضع التقدميون كل آمالهم في نموذج الاتحاد السوفيتي. فكانت خيبة الأمل رهيبة. لقد جعلوه الرمز الوحيد للتقدم، وعندما

انهار لا مناص من أن يؤخذ انهياره على أنه انهيار التقدمية(*).

الواقع ربما أصدق أنباء.. الشيوعية كنظام ماتت، وربما لم تجد من يدفنها، فتركت تتعفن بين أناس كل يبحث عن خلاصه الفردي تحت أنظار مرتزقة الرأسمالية وأضواء كاميراتها الكاشفة فهل لها بأنتيقون تغطيها التراب؟!(**).

ها هي النبوءة جزئياً تحققت، وتشمت الرأسمالية، محدقة بشهوة انتقامية في جسد النظام الشيوعي يتحلل ويتفكك، وتعلن أبواقها الانتصار، إنه أخر إنسان ونهاية التاريخ(***) الرأسمالية سوف تسود، والإنسان في كل مكان سوف يخلع قوميته ويدفن تراثه وثقافته، ليصير زبوناً أو عاملاً في سوق الرأسمالية الكبير: العالم يديره موظفون مهذبون برتبة ملك وزير أول، وزراء، مستقبل العالم أصفر كلون الذهب، العجل الذهبي إلهاً.. المال سيداً وملاكه أباطرة الشهوة والنسق والبذخ...

لكن الرأسمالية تشمت في نفسها...

(*) لقد عانينا كثيراً لكي نقنع المثقفين التقدميين ـ ومعظمهم ربما لم يقتنع ـ بأننا تقدميين ولسنا مع ذلك اتباع الاتحاد السوفيتي. لم يكن هؤلاء متصورون وجود تقدمي ليس ماركسياً. كما نعاني الآن في إثبات أن التقدمية لم توأد في أنقاض الكتلة الشرقية.

(**) انتيقون تجرأت وتمردت على قوانين المدينة ووارت أخاها المقتول التراب. فكان عقابها صارماً.

(***) فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وآخر إنسان.

إننا نعرف أيضاً العالم الرأسمالي عن كثب، ونعرف أن شهوة تركيم وتكديس المال لا تحط فقط من قيمة الإنسان وتجعله كما يصفه ساركار فأراً، إنها ترتد على الرأسمالي نفسه. إن بعضنا يتذكر تلك المقطوعة التي درسناها في المرحلة الابتدائية، في بداية الخمسينيات: لقد دعى عاشق الذهب ربه ليلة القدر أن يجعل كل ما تلمسه يداه ذهباً. تحقق ما طلب، وتحولت ابنته إلى تمثال ذهب، وتحول جزء من جسمه نفسه إلى ذهب ولم يبق منه إلا ما أتاح له أن يدعو مرة أخرى أن يخلصه الله من كل الذهب، ربما يصل الحال بالرأسمالي أن يتمنى ثورة اجتماعية تخلصه من شهوته وشراهته التي تعذبه قدر عذابه للفقراء. إننا نعرف، ولم يعد ثمة من ينكر، أن أسس فخر الرأسمالية صارت وهماً: المنافسة تبينت احتكاراً حاداً، السوق الحر إما أنه غير موجود أو أنه ميدان قتال داخلي وخارجي. حالما انهار الاتحاد السوڤيتي ارتدت الرأسماليات على بعضها، تدق طبول الحرب الاقتصادية، الرفاهية المفرطة عند البعض والعوز الحاد عند الآخرين، زيادة الانتاج والتقدم التقني في إطار رأسمالي تكشف بطالة وتشرد. السعي للربح جعل المعيار مادياً للنجاح في الحياة، مما برر كل مظاهر الفساد: الدعارة البرنوقرافيا، تجارة المخدرات، إدمان الكحول، الجرعية.

إن اللاهث خلف الربح، خلف تكديس الأموال، في غابة من أمثاله الوحوش لن يستطيع النوم إلا مخدراً مخموراً أو بأقراص المنومات. إنه يخشى داخله ربما أشد مما يخشى الخارج، أو أنه قد

فرغ تماماً مجرد آلة تلهث خلف شيء لم تعد تعرف حتى لماذا تفعل. لقد فقد الروح، فقد كل إنسانية.. بهذا تكون الرأسمالية أسوأ وأحط الماديات.

عندئذ انهيار الاتحاد السوفيتي لا يعني أن البقاء للرأسمالية، ليست الدولة الماركسية الخطر الأكبر على الرأسمالية. لقد تعايشا سبعون عاماً، وربما تأسف الرأسمالية يوماً على فراقها: إن الخطر يكمن في داخل الرأسمالية، ليس فقط من جهة عمالها، ولا من جهة القوميات التي تنيخ عليها بثقلها فقط ولا من الشعوب التي تستنزف خيراتها تحت تهديد الطائرات والبوارج، وتعيق تطورها وتجردها من إمكانياتها حتى بقرار من «مجلسها الأمني» فقط. إن أمراض الرأسمالية داخلية وليست خارجية فقط، في النظام نفسه. حتى وإن استمرت تستغل عمالها وتكبح قومياتها وتستنزف خيرات العالم، فإن مصيرها الموت ربما بيدها. حرب الرأسماليات بدأت تدق طبولها، صراعات الداخل يقضي مضجعها والتركز الحاد في الثروة سيفعل بها ما فعله تركز السلطة في الاتحاد السوفيتي: الانهيار.

إذا أطلقت العنان للمنافسة فهي الحرب الضارية في عالم غابة. وإذا مالت إلى الاحتكار فإنها تدمر نفسها. وعلى كل حال، من يعرف الرأسمالية يدرك أن التوجه للاحتكار ميل أساسي لا مفر منه. وسواء مالت إلى الاحتكار أو أطلقت عنان المنافسة، فإن القوة العسكرية مغرية لدعم المصالح الخارجية، واحتكار السلطة داخلياً مغري لجماعات الاحتكار. وكلما تركزت الثروة عم الفقر. فكيف تتعايش

الديمقراطية مع احتكار الثروة؟ أحدهما سوف يقضي على الآخر.

إن تناقض احتكار السلطة مع الاشتراكية أدى إلى انهيار الاتحاد السوڤيتي، كما أن تناقض الديمقراطية السياسية مع احتكار الثروة سيقود إلى سقوط الرأسمالية. عندئذ ربما ما يسميه باترا استناداً إلى ساركار «عصر المقاتلين» والمثقفين والعمال المؤهلين الساخطين سوف يقوم على أنقاض الرأسمالية. إنه تآلف المقاتلين والمثقفين والعمال المؤهلين ضد سلطان المال. سلطان المال الذي حول كل شيء إلى تجارة: الفن.. الجنس.. الرياضة.. الثقافة. يبيع الراحة في أقراص المخدرات وكؤوس الخمر، ويترجم الشبق إلى نقود من خلال البرنوقرافيا، والمكانة الاجتماعية حسب الرصيد المصرفي.

هل سيرتد العالم إلى مرحلة الغابة؟

إن انهيار الرأسمالية لا يعني ضياع المنجزات العلمية والتقنية والثقافية، إنه خلط فاضح، ربما عن سوء نية، بين الحضارة والرأسمالية، وهو خلط مطلوب من الرأسمالية، لكنه لا يجب أن يخدعنا. انهيار الرأسمالية لا يعني انهيار الحضارة، الرأسمالية مرحلة في حضارة وليست الحضارة. الدعاية الرأسمالية تريد إقناعنا بأنها الحضارة، وأن انهيارها يعني انهيار الحضارة: عندئذ لا صناعة، لا مواصلات، لا تقنية، لا دواء، لا وسائل اتصال، باختصار نقول: الرأسمالية أو الطوفان. إنه تأليه الرأسمالية، جعلها ديناً، معبده السوق وقساوسته رجال الأعمال وآلهة المال.

المتطرفون في الجانب الآخر قد يردون: وماذا يهمنا انهيار حضارة لا يتمتع بإنجازاتها إلا القلة؟ العالم الذي تخوفنا الدعاية الرأسمالية أن يحل محلها نعيشه اليوم...

لكن إطلالة على فلسفة التاريخ تكشف زيف الإدعاء الرأسمالي، الرأسمالية مرحلة من مراحل الحضارة، انهيارها لا يعني انهيار الحضارة. بينما الشيوعية الماركسية جعلت غايتها تقبع في نهاية التاريخ. فإن الرأسمالية وبكل وقاحة تعلن نفسها نهاية التاريخ. لكننا نعرف. وفلسفة التاريخ تسندنا، إن التاريخ يسخر من كل الذين أعلنوا نهايته، لأنه لا يلبث أن يسير في جنازتهم.

لا يمكن أن نصدق أن الله خلق الكون ليقود عبر ملايين السنين إلى الرأسمالية. انهيار الرأسمالية لا يعني لا نهاية التاريخ كما زعم ماركس ولا نهاية الحضارة. وإنما بداية جديدة لطريق جديد تسلكه الحضارة. مرحلة جديدة ليس فيها للعجل الذهبي مكان. لن يتوقف التطور، ولا نمو الصناعة، ولا تموت التقنية، بل يستمر التطور وتنمو الصناعة وتزدهر التقنية. كل ما هنالك يظهر استخدام آخر، وهدف آخر.. لصالح الإنسان ومن أجل الإنسان. الإنسان يصير هدف نفسه وليس وسيلة لهدف. إنه هدف النظام السياسي، هدف النظام الاقتصادي، حيث الحرية تسود، وحقوق الإنسان تزدهر مكتسبة محتوى وليس مجرد شكليات.

إذن الرأسمالية كما النظام الشيوعي سوف يختفيان عما قريب.

النظام الشيوعي انتهى، ولن تهنأ الرأسمالية بعده طويلاً، يحدد باترا لنهايتها عام 2010م.

ولكي يسند استنتاجه يتجه إلى ساركار، يقيم حججه على أساس نظرية في فلسفة التاريخ، أن باترا يختلف عن الكثيرين ممن وصلوا إلى نفس النتيجة، سواء مجزأة أو كلية، يختلف عمن تنبأ بانهيار الماركسية كما يختلف عمن تنبأ بانهيار الرأسمالية، وعمن تنبأ بانهيارهما معاً. إنه لا يناقش الموضوع من زوايا اقتصادية فقط ولا سياسية ولا اجتماعية. لا يركز كثيراً على أزمات وتأزمات النظامين، ولا على أثر العوامل المادية، إنه يتخذ منطلقاً وأداة تحليل نظرية تفسير للتاريخ أكثر عمومية وكلية لتستوعب تاريخ الحضارة منذ قبل الميلاد، تقوم على النمط العقلي الإنساني: إن ثمة أربعة أنماط عقلية لا يخلو منها مجتمع أو حضارة: النمط العقلي للشغيلة: الشغيلة هم أساس كل مجتمع وعماد كل حضارة، والشغيلة هم كذلك بسبب توجههم مباشرة في علاقة مباشرة مع المادة بواسطة عملهم والبيئة. إنهم العمال غير المؤهلين، المعتمدين على قواهم العضلية، حيث يتحولون بهذا نسبياً أي جزء من المادة. تعاملهم هكذا مع المادة ينعكس في انعدام الجرأة والإقدام عندهم، غير قادرين على مواجهة المشكلات فيؤجلون الاصطدام بها. عندئذ، وصف باترا، عقلية الشغيلة هي عقلية واقعة بالكامل تحت هيمنة البيئة المحيطة، وتفتقر إلى الإقدام وتعوزها الجرأة والطموح، ولهذا يرمز إليها باترا بالجاموس.

بينما نجد عقلية المقاتلين تحركها إرادة السيطرة على المادة، تحويل المادة إلى عبد مطيع. المقاتل هو من يحب المغامرة، شجاع، محب للاستطلاع ولسلك الدروب الجديدة. الشغبل يعيش في الحاضر فقط، بينما العقلية المقاتلة تعيش في الماضي كما في الحاضر وفي المستقبل، لا تكتفي بمجرد الحياة، بل تتطلع إلى الكرامة وتقدير الذات، تطمح إلى وضع بصماتها على التاريخ. العقلية المقاتلة تصر على حل المشكلات مواجهة في معركة مباشرة، لهذا يرمز إليها بالنمور.

إن السمة العضلية لا زالت موجودة في العقلية المقاتلة، لكن السمة العقلية تتفوق على العضلية. العقلية المقاتلة تتعامل مع المادة من خلال الآخرين.

ساركار ـ حسب باترا ـ يرجع الفضل في قيام الحضارة إلى ظهور العقلية المقاتلة، هذه بطبيعتها وبسيطرتها على الشغيلة أدت إلى الفائض الاقتصادي الذي أتاح بداية الحضارة. وعندما تتفوق السمة العقلية تكوّن عقلية ثقافية، هذه ميالة إلى البحث التأملي على حساب اللجوء إلى القوة العضلية. وكما أن المقاتل يطمح في إخضاع المادة، فإن المثقف أيضاً يريد فرض نمط حياته، مع الاختلاف أن المقاتل يواجه قوى المادة بشجاعته وقدراته الفيزيقية، فإن العقلية الثقافية تلجأ إلى قدراتها العقلية، المقاتل يخضع الطبيعة من خلال إخضاع الآخرين فيزيقيا، المثقف ينتهي بقيادة المقاتل، ليس بالقوة الفيزيقية وإنما بالذكاء والدهاء.

إذا كان سلوك المقاتل مباشر وبسيط وسهل الفهم فإن المثقف يتناول المشكلات عادة بطريقة ملتوية مشحونة بالنظريات والعقائد حتى يضلل المقاتل ويسيطر عليه. المقاتل يسيطر على الآخرين بفضل قوته العضلية، المثقف يسيطر بفضل قوته العقلية. . إنه ثعلب.

معظم الناس ولا شك يرغبون في الخيرات المادية، لكن عقلية الجمَّاع لا تكتفي بهذا، إنها تميل إلى تركيمها. . . تكديس الخيرات مطمحها، الجمَّاع أكثر ميلاً إلى الملكية من التمتع بما يملك المستقبل يقلق العقلية الجمَّاعية، والتي تستجيب لهذا القلق بأن تكدس الثروات توقعاً للمستقبل وليس للتمتع بها. إنها بهذا لا تحرم الناس الآخرين منها فقط بل تحرم نفسها أيضاً.

العقلية الجمَّاعة بتكديسها الثروة، تصل مرحلة تسيطر فيها على الثلاثة أنماط الأخرى، بأن تشتري خدماتها بواسطة ثروتها. الثروة تمكن الجمّاع، ليس فقط الحصول على متع الحياة وضمان المستقبل، وإنما أيضاً المكانة والسلطة في المجتمع. المقاتل يسيطر بقوته العضلية، المثقف بقوته العقلية، الجمّاع بقوة ثروته: إنه فأر.

ولتوضيح الاختلاف بين هذه الأنماط العقلية الأربع نقول: عندما توجد مشكلة، فإن الشغيل ـ الجاموس يتجاهلها ببساطة وعلى الأقل يؤجل حلها لأطول وقت ممكن. المقاتل ـ النمر يواجهها مباشرة مستخدماً قدراته الفيزيقية، ولا يرتاح حتى يتغلب عليها.

المثقف الثعلب يستخدم ذكاءه، وفي حالة العجز يستخدم المقاتل. بينما الجمّاع يعالج المشكلة باستئجار خدمات المقاتل والمثقف والشغيل.

هذه السمات ليست وراثية، إذ ليس الشغيل بالوراثة ولا بالطبيعة كذلك، وليس المقاتل ولا المثقف ولا الجمّاع. إن السمات الأربع توجد في كل إنسان، لكن في كل إنسان تتميز سمة وتتغلب على غيرها. الشغيل لا يعني ذلك إنه معدوم الذكاء أو الفهم لكنه يوجه ذكاءه وعقليته نحو التعامل المباشر مع المادة فتطغى عقلية الشغيلة على السمات الأخرى. والمقاتل ليس مجرد قوة عضلية تحركها الشجاعة والإقدام والمغامرة، لكنه يوجه عقليته لخدمة قوة العضلية فهو عقلية مقاتلة، كما أن المثقف ليس مجرد عقل يفكر وينظر، لكن اهتمامه يتركز في استخدام ذكائه أكثر من استخدام قوته العضلية أو شجاعته المادية، لكن لا تعوزه الجرأة والإقتحام والجمّاع ليس مجرد رغبة محمومة لتركيم المال، لكن كل عقلية تتوجه إلى هذا الهدف.

وكما بين الأفراد يكون الحال على مستوى الحضارة. إذ تخلوا حضارة من العقليات الأربع. لكن في كل عصر من عصور الحضارة يتغلب نمط عقلي على غيره، فيكون عصر النمط العقلي: عصر المقاتلين حين تقود المجتمع عقلية المقاتلين، عصر المثقفين حين تسيطر على المجتمع عقلية المثقفين، عصر الجمّاعين حين تصير الثروة مهيمنة.

من الملاحظ، وفق ساركار وكما يقول باترا، إن الشغيلة رغم أهميتهم لا يسيطرون أبداً على المجتمع، لأن السيطرة تتطلب خصائص ليست من سمات عقليتهم وإن كانوا هم الذين يدفعون دائماً قائمة الحساب، فإنهم دائماً خاضعين لغيرهم. ربما انشغالهم بالتعامل مع المادة ترك الفرصة سانحة للسيطرة عليهم. كما أن المثقفين لا يسيطرون ـ غالباً ـ إلا من خلال غيرهم: من خلال المقاتلين أو من خلال الجمّاعين، وأن ينتهو بتحويل هؤلاء وأولئك إلى حكام إسميين ـ صوريين.

تطبيق هذه النظرية على تاريخ الحضارات، بالتحديد الحضارة الغربية في أوروبا الغربية وروسيا، والحضارة الهندية، قاد باترا عبر دروب ملتوية جداً ـ عقلية مثقف ـ إلى توقع سقوط الشيوعية قبل حدوثه الفعلي، واندلاع ثورة اجتماعية يقودها المثقفون والمقاتلون والعمال المؤهلين الساخطين، لتؤسس عصر المثقفين تاركة خلفها عصر المقاتلين. وتوقع سقوط الرأسمالية المتخبطة حالياً في نهاية عصر الجمّاعين ـ الرأسمالية ـ على يد ثورة اجتماعية تعبر بالمجتمع الغربي إلى عصر المقاتلين.

ورغم أن باترا يحدد اهتمامه بدارسة تاريخ حضارات معينة والتي أشرنا إليها، ولم يتطرق إلى الحضارة الإسلامية إلا في الهند، إلا أن العالم الإسلامي أهم من أن يتم تجاهله، ولو لأسباب منهجية، ومع أن إشاراته مبتورة، إلا أنه يؤكد أنه من الآن وحتى عام 2000، فإن الاضطرابات العميقة التي تهز العالم الإسلامي في أغلبه ـ من آسيا

وأفريقيا والوطن العربي ـ تحت الاستعمار الانجليزي والفرنسي والإيطالي والروسي، وتكبد الخضوع والهيمنة قروناً عدة من التاريخ. لكن العالم الإسلامي استوعب هيمنات مماثلة عبر التاريخ، وابتلع أمواج الغزاة وفق مبدأ أثر المنجنيق: لقد جاء المغول غزاة فتحولوا إلى مدافعين عن الإسلام ودعائم الحضارة الإسلامية، لينشروا الإسلام في آسيا وحتى داخل الإمارات الروسية آنذاك. إذن رغم الهيمنة الاستعمارية الغربية ليس من المستغرب أن يأتي «دور العالم الإسلامي والهند ليهزا العالم الغربي وروسيا.. إنه الشرق الآن الذي على وشك تقرير مصير الغرب». لقد تفكك الاتحاد السوفيتي لأسباب عدة، لكن تفكك روسيا الوريثة يمكن جداً أن يكون نتاج صحوة القوميات الإسلامية التي بدأت تفعل فعلها(*).

الخلاصة إذن إن استقراء التاريخ منذ الحضارات الأولى قبل الميلاد يقود إلى نتيجة لازمة: لا يمكن لأي عصر أن يدوم إلى ما لا نهاية عندئذ كما انتهى عصر الإقطاع، وكما انتهى عصر النظام الشيوعي سوف ينتهي قريباً عصر الجمّاعين أو عصر الرأسمالية. ليس ثمة قوة توقف حركة المجتمعات في تطورها الدائم..

هذه النتيجة منطقية، ليست بالنسبة لنا محل اعتراض، لكن البديل هو محل نظر. هل رفض حتمية ماركس واستبعاد نهاية

(*) أوردت وكالات الأنباء تحذير قورباتشوف للغرب مما سماه الخطر الإسلامي معرفة تكوين الاتحاد السوفيتي ثم روسيا الفيدرالية يجعلنا نعتقد أنه هاجس روسي قبل أن يكون هاجساً غربياً.

التاريخ التي تؤبد النظام الرأسمالي يسقطنا ضرورة في الحلقة المفرغة أو الدائرة الاجتماعية عند ساركار؟!

ثمة مآخذ يمكن أن نشير إليها في هذه الفلسفة للتاريخ المعتمدة على نظرية الدورة الاجتماعية. صحيح لا تخلوا حضارة ولا مجتمع من هذه الأنماط العقلية الأربع: الشغيلة، المقاتلون، المثقفون، الجمّاع أو الجاموس، النمور الثعالب الفئران. وهذا ما يمنح هذه الفلسفة سمة العمومية والكلية، والتي يراها باترا ميزة تتفوق على التفسير المادي خاصة وتفسير توينبي. لكن هذه العمومية ذاتها عيب، إنها لعموميتها تنتهي بألا تقدم شيئاً محدداً. ويضل السؤال قائماً: ولماذا تتغلب عقلية على غيرها وتسود المجتمع؟ إنه يرفض الوراثة تفادياً للوقوع في فخ الطوائف الهندية. لكنه لا يطرح السؤال وبالتالي لا جواب. إليس رفض الوراثة يعني منطقياً القول بالإكتساب؟ الأنماط العقلية موجودة من منظور الإنسانية كتجريد بغض النظر عن محتوياتها الفردية ليس من الضروري لا بالطبيعة ولا بالوراثة أن يكون هذا الفرد أو ذاك من ضمن هذا النمط العقلي أو ذاك. عندئذ لا مفر من الأخذ بعين الاعتبار الواقع المعاش الذي أدى إلى تغلب نمط عقلي على غيره. وإذاً كما لاحظنا ليس ثمة نمط خال من الذكاء والفهم ومن الجرأة والإقدام، ومن استخدام القوة... الخ فإن هذا يقودنا إلى أن الاختلاف ليس في العقلية وإنما في الأهداف التي تطلبها العقلية، إن هدف الشغيل الحياة، الحفاظ على شخصه وهمه الحاضر. ولهذا تصير عقليته عقلية شغيل،

وهدف المقاتل السيطرة من خلال الآخرين لهذا عقليته قتالية، وهدف المثقف وإن كان السيطرة على الآخرين شغيلة ومقاتلين وجمّاعيين، إلا أنه يستخدم عقله لهذا الهدف، حيث القوة لا تنفع. وهدف الجمّاع ـ الرأسمالي تراكم الثروة، فيستثمر عقليته في خدمة هذا الهدف. إن الأهداف هي التي تجعل العقليات تختلف، وليست الأهداف مختلفة لأن العقليات مختلفة، إذن لماذا اختلاف الأهداف؟

لنقل في عجالة أن الأهداف تختلف بحكم ضرورة الحياة معاً ونشوء المجتمع الذي لكي يبقى يتطلب الاختلاف، هل يمكن لمجتمع من الشغيلة فقط أن يوجد؟ وهل يمكن لمجتمع من المقاتلين أن يوجد بدون شغيلة؟ وهكذا مجتمع المثقفين والجمّاعين. لكن بين إقرار هذا الواقع وتبرير الهيمنة البون شاسع!

إن نظرية ساركار كما يقدمها باترا تقود إلى أن التاريخ يكرر نفسه ولو في شكل حلزوني. ولهذا نجد مرحلة الجمّاعين تتكرر في شكل إقطاع وفي شكل رأسمالي... وعصر المقاتلين يتكرر في شكل ملكيات وطنية ذات الحكم المطلق وفي شكل أحزاب شيوعية والمثقفين أيضاً. ولهذا تخرج روسيا من عصر المقاتلين لتدخل عصر المثقفين بينما الولايات المتحدة تعبر عصر الجمّاعين لتدخل عصر المقاتلين.

صحيح عصر الجمّاعين الإقطاع ليس هو تماماً عصر الجمّاعين الرأسماليين وإن كانا في الأساس تحركهما نفس العقلية، وهكذا المقاتلون يختلفون اختلاف الملوك عن الحزب الشيوعي، وعصر

المقاتلين الذي تتركه روسيا يختلف عن عصر المقاتلين الذي تدخله الولايات المتحدة. . الخ. لكن هذا لا يمنع أن الأحداث التاريخية في سماتها الأساسية تتكرر وإن كانت تحت ظاهر مختلف. إذن ليس ثمة تقدم حقيقي، بل مجرد تحسن!

هذه النظرية لا تصمد طويلاً أمام نظرة ثاقبة: إن عقلية الشغيلة تميز مرحلة من الإنسانية، إنسانية في بدايتها تخضع بالكامل للمحيط المادي. مرحلة فيها الوعي الإنساني مندمجاً في الموضوع. هذه المرحلة ليست أبدية. الصراع مع البيئة أنتج الوعي الإنساني بالتميز عن البيئة، إنها مرحلة الجرأة والإقدام وحب الاستطلاع والمخاطرة والمغامرة أو إن شئنا عصر المقاتلين. لكن اتساع نظام الصراع وتراكم الخبرة قاد إلى مواجهة البيئة بشكل آخر، ليس بالقوة العضلية أو بالعمل المادي المباشر سواء نحو البيئة أو نحو الآخرين، وإنما بقوة العقل والتدبير والذي لم يلغ عامل القوة والعمل. القوة العقلية أدت إلى ظهور القيم والنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعقائدي. الإنسان لم يعد حيواناً وإنما كائناً يعمل يسلك وفق منظور قيمي.

الإنسانية تتحرر بإطراد عبر عصورها الحضارية. لا شك أن الشغيلة بمفهوم ساركار تضاءل وجودها، والمثقفون اتسعت دائرتهم، والمقاتل صار يخضع للنظام. . الحرية تتسع دائرتها وفي كل مرة تتغلب على عوائقها: البيئة، المغامرون الهمجيون، الحكم المطلق، وهي اليوم في مواجهة المال ونظامه السياسي.

صحيح تظل بعض الجيوب هنا وهناك، لكن السمة الغالبة للعصر تكون واحدة، تأفل عندما تبدأ سمة أخرى في السطوع لكن التاريخ لا يكرر نفسه، لا يعود إلى الخلف. . إذ لا يبعث الموتى إلا يوم القيامة. . ولا زال هذا اليوم بعيداً. إن العمومية والكلية التي رآها باترا ميزة ساركار تبينت غير ذلك.

كيف نتحقق من وجود الأنماط الأربع عملياً وليس نظرياً فقط؟ بالطبع من خلال سلوك وفعل الإنسان. لكن هل هذا الفعل وهذا السلوك تعبير عن عقلية معينة أو أنه نتاج تعامل العقلية مع واقع معاش يتضمن سلوك وفعل الآخرين؟!

ثم من هو المثقف؟ في الواقع إنه الأستاذ، الطبيب، المهندس، القاضي رجل الدين. . . إنه باختصار ذلك الذي يستخدم عقله أكثر من عضلاته. هذا التعريف يجعله عملياً بدون حدود، إن التقدم التقني يوشك أن يلغي تدخل العضلات ويلغي الحدود بين العقلي واليدوي.

ومن هو المقاتل؟ رغم أن باترا يحصره غالباً في ضباط الجيش والبوليس، إلا أنه يوسعه أحياناً ليشمل كل من فعله تقوده الجرأة والاقتحام وإرادة السيطرة، عندئذ ليس الأمر محصوراً في ضباط الجيش أو البوليس فقط. بل يشمل قادة الحزب الشيوعي، وربما كل حزب، والعامل المؤهل وآخرين غيرهم أيضاً.

لكن الجيش لم يعد ما كان قديماً، صحيح باترا يهمل الجنود

ويقصر صفة المقاتل على الضباط الذين في غالب الأحيان لا يفعلون إلا ارتداء أوسمة الانتصارات التي حققها الجنود بموتهم. ربما كان هذا الأمر صحيحاً عندما كان القتال هواية الفرسان في العصور الوسطى لكنه اليوم واجب إلزامي وطني ليس وارداً فيه اختبار العقلية.

ثم إن الجيش، مؤسسة المقاتلين الأولى، ليست بمنأى عن التطورات التقنية، لقد حلت الآلة محل الشجاعة والاقدام، وصار الضباط في غالب الأحيان يديرون ويخططون المعارك أكثر مما يشاركون فيها، الحدود بين عقلية المقاتل والمثقف تماهت كثيراً.

كما أن سمة الاستحواذ ليست حكراً على نمط معين هم الجمّاعين، إن النظام الاجتماعي والسياسي، أحياناً كثيرة وراء انتشار هذه السمة حتى وإن كان وراءه الجمّاعون. عملياً من هو الرأسمالي؟ إنه حسب تعبير باترا كل من يجعل هدفه تراكم الثروة، تعريف واسع لا يعرف ربما شيئاً، إنه على كل حال تعريف للفعل وليس للعقلية.

فعل الاستحواذ يمكن أن يظهر في غير الثروة، في السلطان مثلاً.

ثمة مأخذ آخر يتعلق بنظرته للدين، ربما عذره في هذا أن دراسته اقتصرت على الحضارة الأوروبية في شقيها الغربي والروسي، وعلى الحضارة الهندية. في الحضارة الغربية لعب رجال الدين

ومؤسسة الكنيسة دوراً سيئاً للغاية في المجتمع. رغم أنها نشأت تلقائياً وتبناها الناس عقيدة رغم القمع والتضحيات، فإن الكنيسة مقابل الاعتراف الرسمي بها من الدولة الرومانية، قدمت خدمات لا تقدر بثمن للحكام ثم للإقطاع. وصارت شريكة في استغلال الفلاحين والأقنان ومبررة الاستغلال في أبشع صوره باسم الله. وانشغلت في أغلب الأحيان، بأمور الدنيا عن أمور الآخرة، وتحولت في نهاية المطاف إلى إقطاعي أكبر وأقسى. هل هذا لأن رجال الدين، كما يعتبرهم باترا متابعاً ساركار، مثقفين؟ إن في هذا تجاهل مؤسسة الكنيسة وجبروتها حتى بالنسبة للقائمين عليها، كما أنه ليس كل رجل دين مسيحي إقطاعياً مستغلاً، وإلا ما كان لحركات الإصلاح الديني أن تقوم وحتى القائمين على الكنيسة، رغم رفاهيتهم وبذخهم وفسادهم، لا يملكون شخصياً الإقطاعيات ولا يستغلون شخصياً الأقنان والمزارعين: إنها الكنيسة! تماماً كما أن قادة الحزب الشيوعي ـ رغم رفاهيتهم وترفهم ـ لا يملكون شخصياً ثروة المجتمع: إنها المؤسسة!.

أما في روسيا فالحال أسوأ وإن كان يختلف: لقد فرضت المسيحية على الناس من أعلى بقوة السلطان، وأرغم الناس على اعتناقها قسراً، وهذا ما جعل الكنيسة منذ البداية مرتبطة بالسلطة، تابعة لها، تبرر فسادها وتدافع عنها حتى لو كانت السلطة أجنبية.

أما في الهند فالأديان شخصية، البراهما، بودا. من المجحف حسابها على الدين، إنها كأي عقيدة أخرى مصدرها إنسان. ومع

ذلك لا يمكن الادعاء بأن وراء الدين دائماً مثقفين يتخذونه وسيلة للوصول إلى المكانة والرفاهية ربما هذا يصدق على الأديان حين تتحول إلى مؤسسات هرمية محددة ورجال دين مكرسين للخدمات الدينية، إنها عندئذ المؤسسة وليس الدين. الدين يتحول مؤسسة عندما تتعقد طقوسه لدرجة تتطلب التفرغ والتخصص، عندئذ يظهر احتراف الدين كمهنة وشيئاً فشيئاً يحول الأتباع إلى مجرد ببغاوات يقومون بطقوس لا يتقنها ولا يعرف سرها إلا القساوسة.

لكن موضوعياً ثمة دين على الأقل لا توجد به مؤسسة دينية ولا رجال دين متفرغين يحترفون الوساطة بين الله والمؤمنين رغم الواقع أحياناً المنحرف، ولم يقم على أكتاف قساوسة ورهبان وأساقفة، أي بالتعبير الذي عند باترا مثقفين. لقد حمله بدو رعاة، وضحى في سبيله أميون، ونشره زهاداً وحماه مرابطون يعيشون على الكفاف. لم يكن محمد مثقفاً ولم يحمل عيسى المسيح غير صليبه ـ كما يقولون. العاطفة الدينية، التي يراها باترا رغبة عارمة في إدراك اللامتناهي، والتي تمنح السعادة وتوسع أفق الروح، والتي فسادها الاستعاضة عن اللامتناهي الحقيقي بلا متناهي فاسد: المال، المكانة السلطان. والذي يشقى الإنسان ويغرب وجوده. هذه العاطفة ليست حكراً على المثقفين، وليست صناعة ثقافية إنها عند كل إنسان.

صحيح قد يستغل الدين من رجاله، عندما يصير له رجالاً متفرغين محترفين، لكن صحوة الدين، صحوة العاطفة، صحوة التوجه نحو اللامتناهي الحقيقي تكنس المؤسسات الدينية ومحترفي

الدين ومستغليه. الإسلام يقوم في العلاقة المباشرة بين الله والإنسان، الإسلام ثورة على كل كنيسة وأصنامها من البشر أو من الحجارة! إنه تصحيح لمسار العاطفة الدينية.

لهذا أفرد هيجل للإسلام صفحات رائعة في ظاهريات الروح، باعتباره مركب القضية ونقيضها: اليهودية، المسيحية، الإسلام، ووصف نيتشه محمد بأنه بطل الإنسانية باعث الحضارة الشابة على أنقاض العجوز الهرمة حضارة أوروبا.

يبدو باترا، في نهاية المطاف، يميل إلى هذا الاعتبار، عندما تطرق إلى النهضة الروحية لمواجهة أزمة التسعينيات. الروحية تمد الإنسان بالقوة، بالأمل، تجعله يتغلب على الإحباط ويرفض اليأس. إذ بدون أمل في حياة أفضل، في العدالة في الحرية.. في الكرامة.. لماذا نبقى على قيد الحياة؟! إذا فقدنا الأمل فلن يبق أمامنا إلا حياة البهائم: الجاموس، النمور الثعالب الفئران وما أحقرها. إن استخدام هذه الرموز يسيء كثيراً يجعل الحياة غابة حيوانات: بين غباء الجاموس ولحمه اللذيذ ووحشية النمور ومكر الثعالب وحقارة الفئران... أين الإنسان؟ أين العاطفة الدينية؟ ما الفرق بين عصر يسوسه النمور وعصر تسوده الثعالب، وعصر تلعب فيه الفئران؟!

نظرية الدورة الاجتماعية تبدو حلقة مفرغة: إذ تتوالى الطبقات الثلاث على حكم المجتمع. منظوراً إلى المسألة تاريخياً، فإن هذا

لا يمثل تقدماً إنسانياً، رغم أن مصالح الطبقة الحاكمة تتحقق إلا أنها دائماً على حساب بقية المجتمع. ألا يجب إذن التفكير جدياً في وضع حد لهذه الحلقة المفرغة، ألم يصل الوعي الإنساني إلى درجة يتجاوز فيها هذه الحلقة المفرغة حيث يسقط كلما نهض؟

إن الاستناد إلى اختلاف الأنماط، وحيث أن سيادة نمط واحد، أو تحول المجتمع إلى نمط واحد مستحيل يعني أن الحكم لا محالة متداولاً بين الأنماط. فيه مغالطة صريحة، اختلاف الأنماط العقلية لا يبرر اختلاف الدور السياسي ولا حكم طبقة لغيرها، بالعكس يؤكد أن أهمية كل نمط مساوية لأهمية الأنماط الأخرى. ألا يقوم المجتمع على هذا الاختلاف؟ عندئذ من المنطقي التمييز بين الأنماط العقلية والدور السياسي، السياسي حق الجميع بغض النظر عن النمط العقلي. الوقت يبدو قد حان للوصول إلى مرحلة فيها الحكم يصير اتفاقاً عاماً وممارسة من كل الأنماط، الديمقراطية المباشرة مع قيامها على التعدد والاختلاف تحول دون أي شمولية أو طبقية وتضبط التوزيع العادل للثروة، إنها تمنع تحول الاختلاف إلى مبرر للسيطرة. . هذا هو رهان الإنسانية اليوم.

الإنسانية ليس مقدر عليها كما في الماضي أن تسحقها إحدى الطبقات الثلاث. رغم المنطق القاسي لنظرية الدورة الاجتماعية فإن باترا يبدو متفائلاً «لقد كنا قادرين على الذهاب إلى القمر نستطيع بالطبع إقامة نظام اجتماعي والذي فيه كل يجد فرصته للتفوق الفيزيقي والعقلي والروحي» إذن نظام لا تهيمن عليه أياً من هذه

الطبقات، نظام يقر الاختلاف ويحول دون تحوله إلى مبرر للاستحواذ على السلطان.

مع ذلك رغم ما ذكرنا من مآخذ، يظل هذا العمل معتبراً، ليس لأننا نقبل ما استند إليه ولا ما انتهى إليه، ليس فقط لأنه من خلال تمطيل طويل ومضني توصل إلى إعلان سقوط الشيوعية في وقت لم يخطر ذلك ببال الكثيرين، وليس لأنه يتوقع سقوط الرأسمالية الوشيك رغم سخرية الكثيرين. ولكن لأن تحليله كشف عالم اليوم مرتع حيوانات يقودها قانون الغاب. وماذا يمكن أن يقود حيوانات غير قانون الغاب؟ ليدرك الإنسان إن المطلوب لحضارة إنسانية ليس تكراراً بشكل ربما مختلف لعصر من العصور التي أقامتها هذه الحيوانات، وإنما المطلوب أنسنة الحياة!

لا شك أن العاطفة الدينية تلعب دوراً أساسياً في حضارة حقاً إنسانية، إن توق الإنسان إلى الما وراء يقوده إلى التآخي والتضامن، ويحد من اللهث المسعور خلف تلهيات تصيب بالظمأ أكثر مما تروي عطشه اللامتناهي. لكن التآخي لا يعني فقدان الخصائص. ثمة ثقافات ثمة لغات ثمة هويات ثمة قوميات: إذا فقدها الإنسان تحول من حيوان ـ جاموس نمر ثعلب فار ـ إلى رقم بلا محتوى في ذاكرة آلة، نكرة بلا إسم.

إن الانتماء القومي المتجسد في هوية قومية له دوره في التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل. الإنسان لم يناضل دائماً لأنه ثعلب أو

نمر أو فأر، وإنما لأنه هوية تبحث عن التجسد وتقاوم الإمحاء تحت سيطرة الغير. الإنسان لم يبحث دائماً وفي كل الأحوال عن السيطرة على غيره. رغم نكسات التاريخ، وأخطاء الطريق إنه يطلب الحرية. الإنسان لم يقاوم النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية رغبة في الغوغائية، ولكن طلباً لمجتمع منظم لا يصادر حريته. الإنسان لم يكافح من أجل الحقوق ليفوز بها البعض ويدفع الآخرون ثمنها، ولكن من أجل أن تصير هذه الحقوق حقوق كل إنسان.

إن الحضارة التي نريد مشحونة بالعاطفة الدينية ـ الروحية ـ مجسدة لهويات قومية، تتعاون لا تتقاتل، يسودها نظام الحرية لا حرية النظام. هذا هدف الإنسانية طال الزمان أم قصر... وهذا موضوع فعل الحرية في التاريخ.

رغم أن باترا، متابعاً ساركار، لا يوضح لنا ما إذا كانت العصور تتوالى، من عصر الجاموس إلى عصر المقاتلين إلى عصر المثقفين ثم الجمّاعين ـ جاموس، نمور، ثعالب فئران ـ ليعود عصر المقاتلين... وهكذا... أم أن عصر قد يسبق آخر أو يتلوه. وحتى إن كان يحدد كل عصر بسمة النمط العقلي الغالبة عليه فإنه لا يذكر لنا إن كانت هذه السمات تتوالى أم لا. لكنه في كل الأحوال يراها تتكرر. وتظل المعضلة نفسها التي سقط فيها ماركس قائمة: إن دراسة التاريخ الماضي ربما تؤكد ما ذهب إليه، ليس فقط لأن التاريخ مليء بكل شيء، ونجد فيه ما نريد. وإنما أيضاً لأنه ماضي، أفعال تجمدت غير قابلة للتغيير. وهذا ما قاد ماركس إلى فهم مسار

التاريخ على أنه حتمي، الماضي لا يمكن أن يكون إلا ما هو عليه. لكن هل ينطبق على المستقبل ما انطبق على الماضي؟ هل عوامل حددت الماضي هي عوامل تحقق المستقبل؟ إن التكرار الذي يأخذ به ساركار جعله أيضاً يقع في فخ الحتمية، رغم انتقاده لها، ورغم جعل باترا موقفه منها ما يميزه عن ماركس. لكن إذا أخذنا في الاعتبار أن حتمية الماضي تأتي من أنه ماضي، أما المستقبل فإنه مفتوح لفعل الحرية؟! إذا أخذنا في الاعتبار أن التاريخ هو مجال الحرية، الفالته أبداً من ماضيها، المتجمد في وجود، في ذاته، نحو الفعل؟! عندئذ انهيار الشيوعية ليس نتاجاً حتمياً لبلوغ عصر المقاتلين نهايته، وليس سقوط الرأسمالية نتاجاً حتمياً لدخول عصر الجمّاعين مرحلة الانهيار. علينا البحث عن فعل الحرية، البحث عن انتفاضة هوية مطموسة، صحوة التوق إلى اللامتناهي الحقيقي. السأم من السجود لمعبود صنعه الإنسان بيديه، كراهية سجن يشيده الإنسان لنفسه...

المستقبل إذن ليس جاهزاً على قائمة الانتظار، روسيا ليست على وشك دخول عصر المثقفين، وأمريكا وأوروبا ليستا على أبواب عصر المقاتلين، والعالم الإسلامي لا يدق أبواب عصر الجمّاعين. إن ما يكونه المستقبل يرجع إلى الإنسان. الثورة الاجتماعية قادمة، كما يقول باترا، لكن لا نعرف مقدماً ما سوف تتمخض عنه، لأنه ببساطة ليس له وجود بعد. هل سيقبل العمال بأوضاعهم ولو تحسنت بعض الشيء في نظام آخر؟ هل سيقبل المواطنون المركزية

علاجاً لسلبيات اللامركزية؟ هل ستقبل القوميات أن تظل أقليات؟ هل سيقبل المثقفون أن يكونوا حاشية في أي بلاط جديد، قساوسة لأي أديولوجية يصنعونها حسب الطلب ليقعوا ويوقعوا في أسارها؟ هذه الأسئلة تحدد العصر الجديد. إن كل ما يمكن أن نقوله ونحن نشهد الأحداث المعاصرة: المظاهرات الانتفاضات، الحروب الأهلية وغير الأهلية، صحوة القوميات، تململ الأقليات معاناة الفقراء، ظواهر الإدمان، الجريمة، الفساد العام قسوة الدولة هنا وغيابها هناك... إن هذا يؤكد أن عصراً يوشك أن ينتهي وعصراً يختمر.. لكن يتوقف على الإنسان ما يكونه العصر المقبل.

ثمة ملاحظة أخيرة لازمة، إن اختلافنا مع باترا ليس فيما انتهى إليه من سقوط النظم الشيوعية الذي هو اليوم أمر واقع. وسقوط الرأسمالية الوشيك. لقد توقعنا هذا مثله قبل حدوثه ونتوقع مثله مصير الرأسمالية القادم. لكن الطريق كان مختلفاً، لم نرجع إلى أغوار التاريخ نستقصي أحداث اليوم. إذ لم يشهد التاريخ قدر شمول هذا النظام سواء الشيوعي أو الرأسمالي. ولا تناقضاتهما الذاتية. عندئذ استقراء التاريخ لا يقدم عوناً كبيراً. سقط النظام الشيوعي لتناقضه الذاتي قدر شموله، احتكار السلطة المطلق نقيض الاشتراكية، ويسقط النظام الرأسمالي أيضاً لتناقضه الذاتي قدر شموله: احتكار الثروة ضد الديمقراطية.

المسألة إذن لم تعد مسؤولية فئة أو طبقة، إن الرد شامل شمولية النظام: الثورة ستكون اجتماعية لا فئوية. قد يقول البعض: ها هو

النظام الشيوعي انهار دون ثورة واستبدل نظامه السياسي بنظام برلماني، والاشتراكية بالسوق! ولنا على هذا ملاحظات:

أولاً: هذا الاستبدال لم ينجز بعد، الانتخابات والبرلمان لا يعنيان ديمقراطية.

ثانياً: إغراءات السلطة المطلقة لا زالت تعشش في الكرملين لقد ضرب البرلمان بقنابل الحكومة! واليوم فقط 18/ 6/ 95 يوجه الرئيس تحذيراً أو إنذاراً للبرلمان: التعاون أو الحل، التعاون في قاموسه يعني طاعة الحكومة، يعني طاعته. وليس أمام البرلمانيين إلا الخضوع أو الشارع. يا لها من ديمقراطية؟! رغم تغير اللافتة الطبقة السياسية لا زالت هي نفسها.

أما السوق الحر فربما مشكلته أكبر، لقد نشأ بقرار، على أساس ندرة رهيبة، وانهيار اقتصادي مروع.. فكانت البطالة والتضخم وارتفاع هائل في الأسعار، وازدهار فروع تخدم القلة الغنية وريثة بيروقراطية الحزب.

ثالثاً: لقد استبدل نظام انهار بآخر في طريقه إلى الانهيار حتى وإن عاش بضعة سنوات أخرى، روسيا تبنت رأسمالية تحتضر، وديمقراطية نيابية فقدت مصداقيتها.

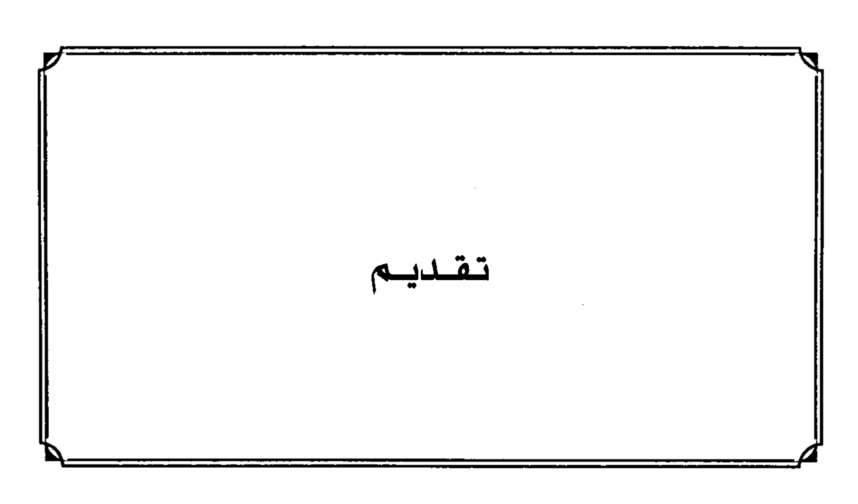
إن استيراد النظام الرأسمالي السياسي والاقتصادي لا يعني إلا استيراد تناقضاته الأساسية، مما يجعل روسيا اليوم في مآزق: الديمقراطية تتناقض مع السوق تماماً كما أن الدكتاتورية تتناقض مع

الاشتراكية. إن روسيا عندئذ تلحق فقط بالمجتمعات الرأسمالية في انحدارها. وهذا يدعم رأينا، النظام الرأسمالي صار أكثر شمولاً، مما يعني أن الرد سيكون على قدر شموليته: رد اجتماعي لا فئوي ولا طبقي.

انهيار النظم الشيوعية برهن على أن الاشتراكية لا تتعايش مع الدكتاتورية، وأزمة النظم الرأسمالية تبرهن على أن الديمقراطية لا تتعايش مع احتكار الثروة. إذن ليس من المجدي استبدال نظام منهما بآخر وإنما البحث عن نظام جديد. . إنه رهان القرن الواحد والعشرين.

د. رجب بودبوس

طرابلس 14/ 10/ 96



تقديم

لست دائماً متفقاً مع بعض تحليلات الدكتور رافي باترا، وبالطبع مع بعض استنتاجاته أيضاً. لكن هذا لا يبدو مع ذلك الأكثر أهمية: المهم يكمن في الجهد الذي بذله باترا في التفكير في شؤون العالم المعاصر، مستخدماً المنهج المقارن.

الطبعة الأولى من هذا الكتاب ظهرت عام 1978، وكان يبدو آنذاك أن الشيوعية قوية، تتجسد في دولة ذات قوة دائمة، الاتحاد السوفيتي يملك أسلحة نووية هائلة، ويتغلغل نفوذه في العالم الثالث، بعد كوبا جاء دور أثيوبيا وأنقولا وفيتنام، لتصير أسواقاً سوفيتية خارج الدائرة الأولى للأمبراطورية، في انتظار نيكاراقوا وأفغانستان.

وحتى لو كان عند البعض بعض الأفكار عن الضعف الاقتصادي للاتحاد السوفيتي، إلا أنه لا يبدو ـ آنذاك ـ لمعظم المراقبين على نحو يعرض للخطر تماسك الامبراطورية.

انهيار الشيوعية عام 1990 صار أمراً واقعاً في الاتحاد السوفيتي كما في الامبراطورية التي بناها، تقريباً كل البلدان التي استولى عليها منذ عام 1939 استعادت استقلالها، الديمقراطية السياسية تحل فيها محل التوتاليتارية. اقتصاد السوق يحل محل اقتصاد الدولة. الاتحاد السوفيتي نفسه فريسة تغيرات عدة، اقتصاده في حالة مزرية، والقوميات نهضت تتحدى السلطة المركزية، وتتصادم فيما بينها.

بعض البلدان ظلت شيوعية مثل كوبا، كوريا الشمالية، الصين فيتنام. لكن النظام الشيوعي ليس له البقاء فيها إلا بفضل القمع انهيار الشيوعية هذا ينظر إليه باترا من خلال قراءة للتاريخ مستلهمة من أعمال الفيلسوف الهندي ب.ر. ساركار. هذا الفيلسوف الذي يكتب بالبنغالية، هو مؤلف كتاب ضخم عنوانه «دراسة تاريخية» صدر عام 1954. باترا يقارن مطولاً فلسفة التاريخ عند ماركس مع توينبي وساركار.

عام 1977 توقع باترا انهيار الشيوعية خلال عام الألفين. لكنه يعترف بتأثير الشيوعية ودعايتها عليه في تحديد تاريخ بعيد كهذا.

من وجهة نظر باترا، نظرية الدائرة الاجتماعية عند ساركار تتيح فهم تطور الشيوعية وتطور الرأسمالية. ساركار يميز أربع أنماط من الأفراد. هذا التقسيم ليس مؤسساً فقط على اختلافات اقتصادية واجتماعية، عكس ماركس وتحليلاته، بل أيضاً على مجموعة من الخصائص التي تمثل بالنسبة لكل فرد ـ لكل نمط ـ بنية عقلية

حقيقية. هذا التقسيم في أربع مجموعات، تقريباً أبدى، لأنه يرتبط بتقسيمات قائمة على الطبيعة الإنسانية.

هناك المحاربون، والمثقفون، والباحثون عن الربح، والعمال. بالطبع داخل هذه الأنماط الأربع يميز ساركار تفرعات. عند العمال مثلاً يمكن أن نميز بين المؤهلين وغير المؤهلين. في الواقع هذا التقسيم لا ينتج لا في الزمان ولا في المكان، إنه إذن تقسيم إطاري للنظام الاجتماعي الذي يتناوله ساركار، مسلماً ببعض المرونة في محتوى الأنماط الأربع: العامل يمكن أن يصير محارباً، وحتى مثقفاً أيضاً في ظروف مختلفة. التقسيم البنيوي للإنسانية في أربع أنماط يتوافق مع وجود تاريخي والذي هو في العموم يعبر عن تطور العلاقات ما بين هذه الأنماط الأربع. من هنا فكرة الدائرة الاجتماعية. نظرية ساركار لا تحمل أفكاراً مسبقة بالنسبة لبعض العناصر الأخرى المكونة للسلوك الإنساني، والتي لا تؤخذ مباشرة في الاعتبار بالنسبة للدائرة الاجتماعية.

لن أدخل في نقاش عميق لهذه الأفكار، لأن هذا يتطلب عملاً خاصاً لشرحها وأحياناً دحضها، أريد فقط أن أجذب الانتباه عند القارىء الفرنسي، نحو منهجية تبدو لي مهمة في دراسة ظواهر تاريخية، ليس بإحالتها إلى أسسها الاجتماعية والاقتصادية مع إدماجها كفاية، لكي لا يقرأ التاريخ قراءة لاهوتية. في هذه النقطة يكمل ساركار نواقص معينة ظهرت اليوم واضحة في فكر ماركس.

في الفرضية التي حددها ساركار، يرى باترا تطور الشيوعية من المرحلة شبه حربية إلى مرحلة المثقفين. وفيما يتعلق بالحضارة الغربية فإنها أيضاً في طريقها إلى تحولات: إنها تعبر ـ حسب باترا ـ من مرحلة الرأسمالية، بالمعنى الواسع للمصطلح، إلى مرحلة المحاربين الجدد. هذا التحول يراه في صالح النساء والعمال، ضحايا التمييز الاقتصادي والاجتماعي اليوم.

هذه المرحلة الجديدة تنتج عصراً ذهبياً جديداً، مؤسساً على نظام اقتصادي تعاوني. هكذا يختفي التضخم والبطالة وتركز الثروة في أيدي قلة.

مع ذلك الأهم بالنسبة لساركار وباترا ليس هذا، ولكن ضرورة إصلاح روحي، بعث روحي. وهذا سوف يتأسس على إنسانية جديدة. وهذا هو عنوان الكتاب الصغير لساركار المترجم إلى الفرنسية عام 1984. باترا أعلن الكساد العظيم الذي ظهر في التسعينيات.

وعلى السؤال: هل بالمستطاع إنقاذ الرأسمالية؟ يضيف سؤال آخر: هل يجب إنقاذها؟ الجواب نعم ولا. نعم لأنه يجب إنقاذ المشروع الحر والذي بدونه ليس ثمة تطور اقتصادي ممكن، ولا لأنها صارت رأسمالية احتكارية. وهذه حقيقة تضع المشروع الحر نفسه موضع سؤال. يكتب باترا «تطرف تركيز السلطة السياسية في المعسكر السوفيتي سارع بانهيار الشيوعية، وبنفس الطريقة تطرف

تركيز الثروة في الغرب يفتح الطريق لانهيار الرأسمالية» سنوات التسعينيات إذن سوف تسمها الغوغائية والغموض والاضطرابات. هذا ما خلص إليه تحليل باترا.

بدون شك هل من المناسب التفكير بدقة أكبر في وضعية بلدان الجماعة الأوروبية؟ هل من الممكن وصفها بالرأسمالية؟ صحيح اقتصاد السوق يلعب دوراً حاسماً في الآليات الاقتصادية، ولكن في نفس الوقت يوجد قطاع عام مملوكاً للدولة، وحالة من الرفاهية، وهذا أقل صدقاً فيما يتعلق بالولايات المتحدة، حيث لا يوجد حقاً ما يمكن وصفه بالاقتصاد المختلط.

مع ذلك، الانهيار الحاد للشيوعية يظهر تناقضات أخرى في العالم المعاصر: في البلدان المتطورة الاقتصاد أكثر هشاشة مما يمكن اعتقاده أزمة الخليج أعادت إطلاق التضخم، وزادت في البطالة، وطورت أشكالاً أخرى من الفقر. الهوة تزداد اتساعاً بين البلدان المتطورة وغيرها. في بلداننا الأوروبية تنموا ظواهر المخدرات والجريمة. إننا لسنا في وضع يمكننا من السيطرة على تقدمنا التقني، بسبب غياب نظام قيمي قادر على إعطائه معنى وتحمل مخاطره. بيئتنا في طريقها إلى الدمار.

وإن لم يجب على كل التساؤلات التي يطرحها علينا عالم اليوم المعاصر فإن كتاب باترا له ميزة طرحها، وبيان الأخطار التي تهدد حضارتها بطريقة واضحة.

الفترات الانتقالية تكون دائماً خطرة، والدعوة الإنسانية جديدة ليس لنا إلا الاهتمام بها، إنه أمر حسن أن نصغي للأصوات القادمة من أماكن أخرى، إنها يمكن أن تثير أفكارنا في فترة صار فيها التفكير أكثر من ضروري. لا يجب أن انهيار الدوقمانطيقية الماركسية يجرنا إلى براجماتية سمجة وضارة.

جان الينشتاين

1990

مقدمة الطبعة الفرنسية
منجنيق التاريخ

في كتاب سابق بعنوان «متحف حضارة والأزمة في إيران» توقعت أنه من الآن وحتى عام الألفين، الاضطرابات العميقة التي تتفاعل في العالم الإسلامي ستؤدي إلى انهيار الرأسمالية. كان ذلك عام 1980، اليوم سبتمبر 1990، في الوقت الذي فيه جيوش إيران والولايات المتحدة يستعدان للاشتباك، وفي الوقت الذي تجد فيه أوروبا نفسها متورطة جزئياً في الأزمة، فإنه من السهل أن نرى في هذا التوقع قدر من الحقيقة.

إن توقعي كان مؤسساً على ما يمكن تسميته: أثر منجنيق التاريخ. لقد جرى تجاهله في ذلك الحين، مع ذلك دراسة التاريخ تسمح لنا أن نلاحظ ظاهرة متميزة، بقدر ما نتغلغل الماضي، فإننا نرى أن القبائل، الأجناس، الأمم، الأديان، قد حدثت بينها حروباً دامية، ولكن في معظم الصراعات ثمة أمر يدهشنا للوهلة الأولى: المهزوم ينتهي دائماً بأن يحدث في المنتصر تغيرات عميقة، وأحياناً

تصل حتى الهيمنة عليه، سواء بالقوة أو بالسلام، أو لأنه حامل أفكار وحضارة أكثر عمقاً وتفوقاً. أولئك الذين كانوا أولاً سادة غرقوا ـ بواسطة سلاح خصومهم أو أفكارهم وآدابهم ـ والتي أبعادها أكثر عالمية ـ هنا خاصية دائمة للتاريخ.

مثلاً في التاريخ القديم، هيمن على المصريين شعب جاء من سوريا وهو الهكسوس، مئتي سنة بعد ذلك، يقلب المصريون الأمر على حساب السوريين ويستولون على أملاكهم. بعد ذلك استعمر الرومان أوروبا الغربية وجزء كبير من آسيا الغربية وشمال أفريقيا بعد ذلك محاربو البلدان المستعمرة نهضوا ضد هيمنة السادة الرومان ثم كان دور هؤلاء المحاربين حين تغلبت عليهم نظرة أخرى للعالم أكثر عالمية: المسيحية.

في العالم الإسلامي، استولى العرب على إيران، لكن انتهوا بأن هيمنت عليهم بتراثها الغني وثقافتها الزاهرة. وبعد ذلك دمر المغول خلافة بغداد لكن الإسلام استهواهم واعتنقوه. يمكن أن نسرد عدداً أكبر من الأمثلة فيها المنتصر انتهى بالإنحناء أمام المهزوم.

في عصرنا، القرن العشرين، وخلال الحرب العالمية الثانية، هزمت الولايات المتحدة ألمانيا واليابان، لكن اليوم، الأمم المهزومة صارت غنية وقوية اقتصادياً لدرجة أنها صارت من أكبر دائني الولايات المتحدة. بينما هذه صارت البلد الأكثر مديونية في العالم. إن ما نراه هو أثر منجنيق التاريخ.

خلال القرون الثلاثة الماضية من التاريخ، إلى خلال الحقبة الحديثة أو إن شئنا ما بعد العصور الوسطى. كان الغرب أحد أسباب الاضطرابات العميقة في العالم الإسلامي، وفي الهند، البلدان الأوروبية وخاصة فرنسا وبريطانيا استعمرا واستغلا كل أفريقيا وآسيا تقريباً في نفس الوقت. بريطانيا، فرنسا، إيطاليا وحتى روسيا، تستحوذ على أراضي الدولة العثمانية وتستغلها. ما بين 1800 و1960م وهي الفترة التي فيها أغلب المستعمرات حصلت على استقلالها، كانت أوروبا السبب في كل الاضطرابات الكبرى في الهند والبلدان الإسلامية، والآن جاء دور الهند والإسلام ليهزا العالم الغربي وروسيا. إنه الشرق الذي الآن في طريقه لتحديد مستقبل الغرب.

رغم الإنكار الشديد، فإن السبب الرئيسي الذي دفع الولايات المتحدة لحشد قوة عسكرية ضخمة للدفاع عن السعودية هو النفط. النفط في العالم الإسلامي يمثل 60% من الاحتياطي العالمي. منذ الحرب، عرف الغرب ثلاث فترات كساد كبرى، وأسبابها، الثلاث، ترجع إلى ارتفاع أسعار النفظ الذي تسيطر عليه الدول المصدرة للنفط، من بين الأعضاء الأربعة عشر في الأوبيب، سبعة دول إسلامية. إنه إذن واضح منذ عشرين عاماً صار العالم الإسلامي مصدر اضطرابات بالنسبة للغرب، وسيكون كذلك.

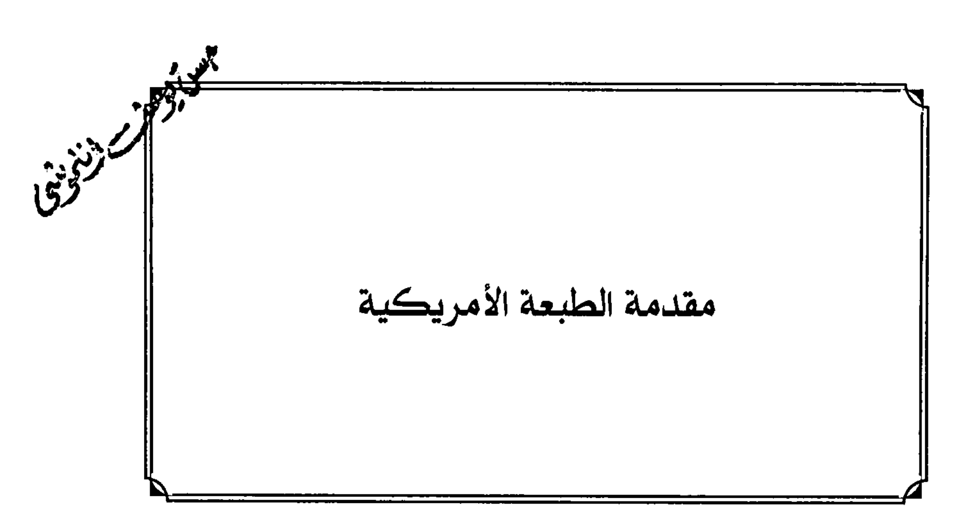
إن تطرف تركز الثروة في داخل حدود الرأسمالية هو الذي يقود إلى انهيارها، لكن السبب المباشر لها سيكون التهاب أسعار النفط على أثر غزو العراق للكويت في 2 أغسطس 1990.

خلال أعوام التسعينيات سيكون العالم كله خراباً. ولكن أفكار جديدة ذات بعد عالمي تجعل من العشر سنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين بداية عصر ذهبي لكل العالم.

معظم الأمريكان لم يرغبوا الاستماع إلى صرخة الإنذار التي أطلقها منذ عام 1980، كساد عظيم يستعد للإطباق على العالم. وأتمنى أن القارىء الفرنسي لكتابي لا يرفض سماع الإنذار الذي أعلنه اليوم: تشجع لكي تعبر حقبة من الكوارث الاقتصادية والاجتماعية لأن العصر الذهبي في انتظارنا. إنني لم أتوقع شيئاً لم يثبت صدقه، حياتي سيرتي المهنية تشهد بذلك.

رافي باترا

تكساس 1977



مقدمة الطبعة الأمريكية

قليل من المسائل أثارت اهتمام المؤرخين المحدثين قدر ما أثارته مسألة غموض. . عظمة. . وانهيار الحضارات في فترة مئة سنة. ثلاث دراسات جذرياً مجددة رأت النور وأثرت بعمق على الجامعيين: ماركس، شبنقلر، وتوينبي. لكنها تعتبر اليوم ناقصة أو معيبة. عقائدهم، التي أثارت في يوم ما حماساً عقلياً، لم تصمد أمام الاختبار النقدي الدقيق، وسقطت من الاعتبار، ليس لأنها نسيت: أفكارهم تحتوي عدة عناصر إيجابية ولكن قلة من الناس يسلمون اليوم بدعواهم بالقيمة الكلية لهذه الدراسات، منهجهم التحليلي، ومنهج الحتمية التاريخية، الذي يريد الباحث بواسطته الكشف عن مبدأ الانتظام في أوحال أحداث التاريخ، يعتبر اليوم بالنسبة للبعض فكرة ماتت نهائياً.

مع ذلك، هذه الفكرة الميتة هي التي أحاول بعثها، من دراسة الاقتصاد عبرت إلى دراسة التاريخ، لقد استهوتني نظرية جديدة مبهرة

لمنظر هندي هو ساركار، والذي ركَّب عدة نظريات موجودة حول الحضارات في قانون كلِّي واحد هو الدورة الاجتماعية. تحليله لا يفسر فقط حركية التاريخ الماضي. بل أيضاً محتواه يتيح عدة تنبؤات. من سوء الحظ هذا العمل العظيم، المكتوب بالبنغالية، بعيد انتهاء توينبي من عمله الضخم: دراسة التاريخ عام 1954، لم يطلع عليه العالم في صورته الكاملة، في اعتقادي أن فلسفة التاريخ عند ساركار أكثر عمومية من كل تلك التي عرضها العالم حتى اليوم. إنها تقدم إجابة لكل الانتقادات التي وجهها أولئك الذين استهدفوا الدوقما الشعبية للحتمية التاريخية.

هدف هذا الكتاب ثلاثي:

إنه يهدف إلى تقديم نظرية ساركار إلى العالم، وثانياً يهدف إلى إخضاعها لتحقيق تجريبي بمواجهتها بتاريخ ثلاث حضارات ماضية: الحضارات الغربية، الروسية، الهندية. تم اختيار هذه الحضارات بسبب تنوعها، وأصالة تعبيراتها. وثالثاً يبحث في استنتاج خلاصات من هذه النظرية بالنسبة لمستقبل العالم الغربي والعالم بشكل عام. هذه الحضارات تطورت في اتجاهات مختلفة، لكن نظرية ساركار تفسر تماماً تطورها. وهذا ما يجعل توقعاتي حول الرأسمالية والشيوعية والديمقراطية صادقة:

- ما هو مستقبل الرأسمالية والشيوعية؟
- هل سينهارا؟ وإذا نعم متى ولماذا؟
- ما الفلسفة التي سوف تقود العالم خلال الأجيال القادمة؟

سوف أجيب على هذه التساؤلات، لا شك أن الأسئلة التي أطرحها طرحها غيري قبلي، لكن الإجابات التي أقدمها مختلفة تماماً. إنها مزعجة، تثير الضيق، لكنها مطمئنة أيضاً. عالم اليوم يهيمن عليه حلف ثلاثي، مرن جداً، بين الأمم الرأسمالية، والشيوعية، والبلدان النامية. كل هذه الأنظمة معرضة لتصدع داخلي وصدمات خارجية، الظلم عميقاً في توزيع الثروة.

العالم الحالي يعيش تحت تهديد أزمة الطاقة، وتلوث بيئي غير قابل للعلاج، وانفجار سكاني، وكذلك العديد من الاضطرابات التي بإمكانها شله. السبب العميق في كل هذه الأمراض، في رأي، المادية متطرفة الأنانية عند الجماعات الحاكمة في كل البلدان، مهما كان الشعار الأديولوجي: فلسفة الحياة التي تقود عالم اليوم مؤسسة على المصلحة الخاصة في حالتها المحضة، إنها أزمة لا يمكن أن تستمر وقتاً طويلاً ونظرية ساركار تقول لنا لماذا. إنها توضح لنا نحو ماذا نتوجه، إنها تقول لنا أيضاً أن الطبقات الحاكمة الحالية إن لم تضع حداً لأنانيتها وماديتها، كان عدة بلدان سوف تجد نفسها في دوامة اضطرابات ثورية وعنيفة. آمل أن ما يقدمه هذا الكتاب للعالم لا يمر دون إثارة الانتباه.

هذا العمل أمكنني القيام به بفضل مساعدة أشخاص، آراءهم وقدراتهم متنوعة جداً، إن الدين الكبير يرجع إلى ما أدين به لساركار، والذي عمله الضخم هو محور أعمالي. لقد سنحت لي الفرصة لأكون من بين الأوائل الذين اطلعوا على أعماله، والتي يدين

لها الكثيرون، لأن ساركار غامر ليس فقط في غوامض التاريخ، ولكن أيضاً في مجالات علم النفس والاجتماع وعلم الاجرام والاقتصاد والفلسفة الاجتماعية على سبيل المثال.

هذا الكتاب لا يتطرق إلاّ إلى مساهمته في فلسفة التاريخ، لأنه فوق طاقتي أن أنوه بعبقرية ساركار في عمل واحد كهذا.

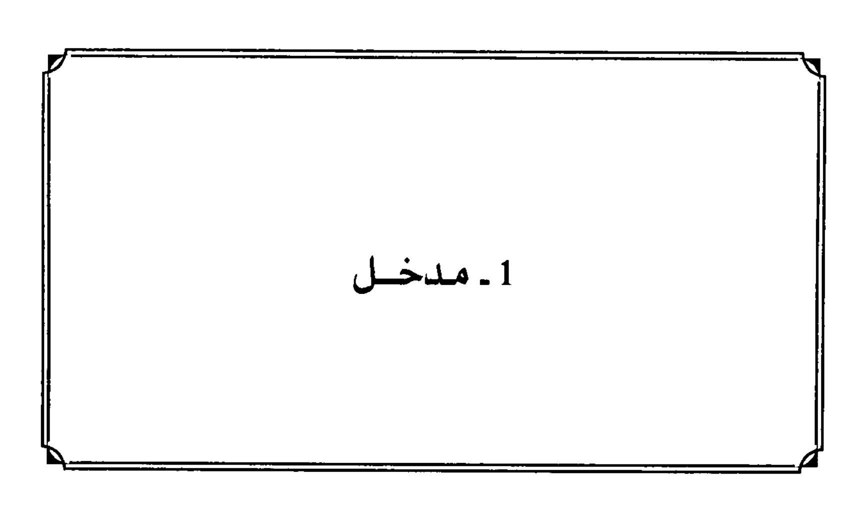
من بين الذين قدموا لي مساعدتهم في هذا العمل، أريد أن أشكر برازا نتاباتاناك، ساتيش كولي، توماس فوممبي، الذين اطلعوا على هذا الكتاب مخطوطاً واقترحوا علي تعديلات مفيدة. وكلين ليندن، دانيال أورلوفسكي، ودانقو قيستا، وراجيندرا قوبتا، ووليام راسل، جاديش أوبادي، وأمان الله الذين اطلعواعلى النسخ الأولى لعدة فصول. من نافل القول أن مساعدتهم الكريمة لا تجعلهم مسؤولين عن أخطائي.

إنني أدين بالشكر لجامعة سوتيرن ميتودسيت التي وفرت لي مكان عمل هادىء، ومنحة جامعية، والذي مكنني من تخصيص الجزء الأكبر من وقتي للعمل.

يجب أيضاً التوجه بالشكر لقلوريا جونس، كارولين سيمون، ألين بران، وجيمس سميت، الذين طبعوا العمل على الآلة الكاتبة وخففوا عني مهمة المادة النظر في مختلف فصوله.

رافي باترا

دلاس ـ تكساس



1 ـ مدخل

لقد كتبت سقوط الرأسمالية والشيوعية عام 1977، لكي أجذب الانتباه العام لقسوة النظامين الاقتصاديين الذين يسيطران على العالم اليوم: قسوة الشيوعية كانت واضحة لكل عين موضوعية، لكن قسوة الرأسمالية ظلت فترة طويلة مخفية تحت ستار الازدهار الزائف والحياة المرفهة لبعض الأغنياء من ذوي الامتيازات.

على مدى التاريخ، قمعت الشيوعية الناس، وغذتهم بآمال زائفة، وأكاذيب ودعاية مضللة تؤكدان الدولة توجد وتعمل من أجل رفاهية الناس. لكن الواقع المر كان أن الدولة، خلف ستارها الحديدي، تعزل شعبها عن حقيقة الأمم الأخرى، وحريات أساسية مثل حرية التعبير، حرية الصحافة، حرية الاجتماع، والتي تعتبر منجزة في مجتمعات أخرى، لم تكن في كل الأحوال مسموحاً بها في البلدان الماركسية.

سمة الطغيان في الماركسية كانت ظاهرة للعيان بالنسبة للشعوب

الحرة، لكن طغيان الرأسمالية كان في العموم مخفياً، خاصة في الولايات المتحدة، أمريكا تمتعت، ولوقت طويل، بمستوى حياة هو الأرقى في العالم، ومع ذلك داخل حدودها نفسها، كان هناك ولا يزال تفاوتاً عظيماً وتعاسة فائقة. ملايين من الأمريكان يعيشون دون الحد الأدنى الرسمي للفقر، بينما ملايين أخرى ملقاة في البطالة، والمستخدمين الاجراء أنفسهم بالملايين لا يملكون ضماناً اجتماعياً صحياً في بلد ثمن الصحة عرف زيادة هي الأسرع في العالم منذ سنوات.

الشيوعية كانت ولا زالت ـ صحيح ـ أكثر قمعاً من الرأسمالية، لكن قل لهذا الأمريكي، الذي بدون عمل، وبدون ضمان اجتماعي صحي، قل لهذا الكهل المريض الذي يطرد من المستشفى لأنه لا يملك القدرة على دفع ثمن استشارة طبية. الجوعى والمحتضرين لهم أولويات أخرى غير معرفة ما هو النظام الأقل قسوة.

كتبت هذا الكتاب لأمنح المظلومين أملاً. تأملاتي في التاريخ قادتني إلى استخلاص أن النظامين ـ الرأسمالي والشيوعي ـ سوف يختفيان من الآن وحتى 2010 أو عشر سنوات بعد هذا تقريباً.

لقد طورت توقعاتي هذه، منذ عشر سنوات، في كتابي انهيار الشيوعية والرأسمالية، لكنه مر دون لفت انتباه.

عام 1989، نفس وسائل الإعلام، التي تجاهلت كتابي، تتنافس في ابتكار أبلغ الأوصاف عند تناولها سقوط جدار برلين والأنظمة

الماركسية. المثقفون الأمريكان، يعلنون عالياً وبقوة أن العاصفة التي أطاحت بالشيوعية، لا تمثل فقط حدث العام، ولكن أيضاً حدث كل أعوام الثمانينيات. هؤلاء عندما اطلعوا على كتابي قبل ذلك اعتبروا نبوءتي بسقوط الشيوعية شطحة خيالية، وقذفوا بالكتاب في سلة المهملات.

لقد بينت أن تناقضات الماركسية سوف تجعلها تنهار تحت وطأتها نفسها خلال أعوام الألفين، وكررت هذا في «الأزمة الكبرى لسنوات التسعينيات» لكن أعمتهم سنوات الخداع والدعاية الشيوعية، قلة فقط كانوا على استعداد للتخلي عن أفكارهم وحماسهم.

المثقفون الأمريكان أهملوا حججي تماماً، بالطبع بعض المفكرين الأمريكان والأوروبيين، مثل ماركس توينبي، روبير هايلبرونر، أعلنوا أن الرأسمالية مقضي عليها، لكن لا أحد كان مستعداً لقبول ذلك المصير بالنسبة للشيوعية.

كان ذلك كما لو أنني أعظ في صحراء، قلة صدقوني عام 1978، وقلة صدقوني حتى عام 1989/ 9 نوفمبر، اليوم التاريخي لسقوط جدار برلين.

المثقفون الأمريكان، مثل معظم المثقفين، ليسوا مستعدين لبحث أفكار جديدة، كم كان نظرهم قصيراً؟ كم كان على أمريكا دفعه بقبولها أفكارهم الخاطئة المبنية على معلومات ناقصة؟ في أعوام الثمانينيات صرفت أمريكا مليارات الدولارات على الدفاع في

مواجهة الشيوعية، مراكمة هكذا ديوناً هائلة، لكن تكتشف أخيراً وبعد وقت قليل، إن العدو يعيش طوال هذا الوقت على قواعد متصدعة. إذا رجعنا قليلاً نجد أن القلعة الدفاعية التي بنيت بدقة تكشفت خطأ هائل، المسؤولين في الحكومة، وأنصارهم كذلك، يتوجب عليهم، على الأقل، تقديم تفسير للمواطنين لهذا التبذير الضخم للموارد.

لقد قمت بواجبي بتحذير المواطنين والسلطات العامة بالانهيار المحتم للشيوعية، لكن في تلك الحقبة لم يستمع إلي أحد. اليوم الولايات المتحدة تغرق في محيط من الديون التي كان يمكن تفادي جزء منها على الأقل.

عام 1990، جزء كبير من توقعاتي ـ انهيار الماركسية ـ أخذ يتحقق والجزء الآخر ـ انهيار الرأسمالية ـ لم يكن قد بدأ بعد. لكن هذا لن يتأخر الرأسمالية سوف تبدأ الانهيار خلال عام 1992 و1993.

هل يمكن إنقاذ الرأسمالية؟ جوابي نعم إذا أبعدنا تأثير النقود عن الحياة السياسية، وذلك يتطلب إعداد نفسي وروحي، والذي يجب على كل منا أن يقوم به في مواجهة الدوامة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأعوام التسعينيات. عند قراءة الفصول المتضمنة التنبؤات تذكروا أنها كتبت عام 1977. أشياء عديدة تغيرت منذ ذلك الحين، لكنكم تكتشفون أن معظمها قد أعلنه هذا الكتاب.

لقد اتهمت بإعلان نبوءات تعسفية وبدون أساس.

السادة القراء، مهما بدت لكم نبوءاتي، لا تستنتجوا سريعاً إنها خاطئة أو غير دقيقة. اقرؤوا هذا الكتاب بصدر مفتوح آخذين في الاعتبار: أن الرأسمالية مثل الشيوعية سوف تختفي عاجلاً. من رمادهما سيولد نظام جديد. نظام يتميز بالكرم والاهتمام بمشاكل الإنسانية. سيكون الأول في عالمنا.

2 ـ نظرية الدورة الاجتماعية عند ساركار

ب.ر. ساركار رجل علم عظيم، وأحد كبار الفلاسفة الهنود. منذ 1955 صدرت له عدة مؤلفات ومقالات، تبرهن على نظرة ثاقبة لفلسفة الروح، وتطور التاريخ، والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية، التي أثارت، في كل الحقب، النفوس السامية.

هذه الأعمال كتبت باللغة البنغالية، ومع أنها ترجمت حديثاً إلى الانجليزية فإن معظمها ظل مجهولاً خارج الهند.

هذا الفصل يدرس نظرية الدورة الاجتماعية عند ساركار الذي يفسر صيرورة الحضارة من خلال توالي حقب معد مسبقاً، نظرية ساركار، بسبب عموميتها وشمولها تتجاوز كل تلك النظريات التي جرى اعتناقها قبل ذلك. بما في ذلك نظريات رجال مشهورين مثل ماركس، توينبي شبينقلر. سنعرضها عرضاً بسيطاً ومختصراً، ومع ذلك حاسماً. إنها تضع حداً نهائياً للنقد العنيف الذي وجه، في الماضي، لعقائد الحتمية التاريخية.

الأنماط الأربع للروح الإنسانية :

أفكار ساركار تقوم على إدراك بسيط، ومع ذلك عميق، إنها تنطلق من واقعة أن المجتمع يتكون أساساً من أربع أنماط من الشخصيات، والتي لكل منها بنية عقلية مختلفة: منهم المحاربون بطبيعتهم. آخرون مثقفين، البعض رأسماليين، والآخرون عمالاً.

هكذا هناك أربع جماعات كبرى أو طبقات اجتماعية. ساركار يختلف إذن عن ماركس جذرياً، وعن غيره من الاجتماعيين الذين ينظرون إلى الطبقة وفق سمات اقتصادية، على أساس قاعدة الدخل والثروة، بالطبع ساركار لا يهمل السمة الاقتصادية، لكنها بالنسبة له ليست إلا إحدى سمات تحديد مجتمع ما في مجموعه. من وجهة نظره، اختلاف الطبقات يوجد، ووجد منذ تكون الحضارات بسبب بنية الطبيعة الإنسانية نفسها.

أنماط الشخصية الأربع: محاربون، مثقفون، رأسماليون، عمال، لا تغطي بالطبع كل أفراد المجتع، توجد مستويات وسطى ما بين الأنماط المذكورة. في العمال مثلاً البعض منهم مؤهل تأهيلاً عالياً، والبعض الآخر دون تأهيل، كذلك الرأسماليون لم يكونوا دائماً جزءاً من التكوين الاجتماعي.

ولكي يعطي ساركار تعريفاً للطبقات، مستقلاً عن الزمان والمكان، فإنه يتجه إلى أعماق السلوك الإنساني، يقتحم هذه الأعماق، أي يتجه إلى السمات العقلية والتي يصنفها في أربع أنماط متميزة.

لهذا السبب، كل مجتمع لا يحتوي أساساً إلا على أربع أنماط من الأشخاص، والتي تجتمع تحت اسم: الشغيلة، المحاربون، المثقفون، الجمَّاعون، والتي نعطيها الرموز، الطوطمية التالية: جاموس، نمور، ثعالب فئران.

بالنسبة للمطلع على الحضارة الهندية، هذه المجموعات ذات علاقة إما بنظام الطوائف الذي لا زال قائماً في الهند، وإما كما هو الحال في الزمن الماضي، ذات علاقة بمهنة الأفراد. لكن بالنسبة لساركار لها معنى وبعد آخر: إنها ببساطة انعكاس لأربع بنى عقلية، كل منها لا يظهر إلا من خلال المواهب، نمط التفكير وموقف كل واحد من الحياة.

الجاموس :

العقل الشغيل هو عقل تهيمن عليه تماماً البيئة المحيطة التي يتطور فيها، إن ذكاءه أقل بالنسبة للأنماط الأخرى. العقل الشغيل لا يستطيع إنجاز أي عمل دقيق أو ثقافي، لأنه مقاد بأفكار مادية والتي تتبع الموجات المنبعثة من المادة.

يعتقد ساركار إنه في هذا العالم، كل كيان تصدر عنه موجات وصدى لا يمكن إدراكهما بالعين المجردة، موجات عقل الشغيل مماثلة لموجات المادة الجامدة. الشغيل إذن لا يستطيع قهر قوى المادة، أو المحيط الطبيعي الذي فيه يتطور: العمال غير المؤهلين والمزارعون والأقنان ينتمون عموماً في الحاضر كما في الماضي لطبقة الشغيلة.

يمكن ملاحظة بعض الاستثناءات في كل هذه المهن، بعض المزارعين أو العمال الزراعيين يمكن أن يكونوا على درجة عالية من الذكاء، كما من الممكن أن عمالاً آخرين ينجزون الأعمال الشاقة ليس بسبب اختيارهم وإنما بسبب الضغط الاجتماعي. مثل هؤلاء ليسوا شغيلة بالطبيعة. كذلك في كل المجتمعات القديمة، كانت العبودية مؤسسة اعتيادية، وكان العبيد مرغمين على القيام بالأعمال المادية الشاقة، لكن هذا لا يعني أن العبيد في كل الأحوال كانوا شغيلة. الشغيل هو ببساطة ذلك الذي يقوم بعمل مادي سواء باختياره أو لأنه غير مؤهل وغير قادر على الحصول على تأهيل تقني مع أنه يتميز بقوة فيزيقية. الشغيلة تنقصهم المبادرة والطموح الذي يمكنهم من إخضاع المادة والنجاح في الحياة.

النمور :

الروح التي تنعشها إرادة السيطرة على الطبيعة هي الروح الحربية«تحويل المادة إلى عبد» يقول ساركار «هي الرغبة العارمة عند المقاتل» هكذا المقاتل هو شخص يحب المغامرة، تملؤه الشجاعة والإقدام ويطلب سلوك دروب جديدة، ويستخدم قوته وقدراته الفيزيقية في حل مشاكله. وبما أن المقاتل أكثر مهارة من الشغيل، فإنه يجعل الشغيل يقوم له بجزء كبير من عمله.

إذا أخذنا في الاعتبار أقسام الزمن الثلاث: الماضي، الحاضر المستقبل. فإن الشغيل يعيش الحاضر فقط، بينما الروح المقاتلة

تعيش في الماضي كما في الحاضر. المقاتل لا يرضى بأن يعيش فقط إنه يتطلع إلى الكرامة وتقدير عالٍ للذات. الرجال الذين سماتهم القتالية مدفوعة إلى أقصى حد، يريدون ترك بصماتهم على التاريخ. وبواسطة إنجازاتهم يطمحون في الخلود. في طبقة المقاتلين يدخل عادة ضباط الجيش، العمال المؤهلون، المغامرون أبطال الرياضة المحترفين.. باختصار كل أولئك الذين يصرون على حل المشكلات بواسطة مواجهة مباشرة أو بواسطة إنجاز فيزيقي.

الثعالب :

الروح الثقافية هي روح تمثل إلى البحث النظري أكثر من الروح القتالية. تماماً مثل المحارب، يريد المثقف أيضاً السيطرة على المادة، يريد فرض نمط حياته. ولكن عكس المحارب الذي يواجه قوى المادة ببطولته وقدراته الفيزيقية. فإن المثقف يلجأ إلى قدراته العقلية للحصول على متع الحياة. الروح الثقافية أكثر مهارة من الروح المقاتل سواء في العلاقات الاجتاعية كما في السياسة، فينتهي المثقف بإن يقود المقاتل. هكذا المثقفون الطموحين، تنقصهم جرأة وقوة المقاتلين، فإنهم يعملون للسيطرة على المجتمع من خلال السيطرة على الروح المقاتل، وبواسطتها على الشغالين. وحسبما عبر عنه ساركار «المقاتل يريد إخضاع الطبيعة بواسطة معركة مباشرة، المثقف يريد السيطرة على المقاتل المنتصر على المادة بواسطة صراع روحي».

سلوك المقاتل إذن مباشر وبسيط وسهل الفهم، بينما يتطرق المثقف عموماً لمشكلة ما بطرق ملتوية مليئة بالنظريات والعبادات والعقائد لكي يضلل المقاتل ويستغل أسلوبه المباشر. القساوسة، الشعراء، العلماء القضاة، الأطباء، الأساتذة وأمثالهم يشكلون هذه الطبقة.

معظم المثقفين يقفون بعيداً عن السياسة، ويكسبون معاشهم بواسطة قدراتهم العقلية. ولكن أولئك من بينهم الذين يبحثون عن وضع اجتماعي عالي، ويطلبون السلطة السياسية، فإنهم يتوصلون إلى هذا بالسيطرة على الروح المقاتل. والنتيجة إنه في كل مرة يحكم فيها المثقفون فإنهم يحكمون بالتنسيق مع المحاربين، فهؤلاء وحدهم يملكون القدرات الفيزيقية الضرورية للحفاظ على النظام في المجتمع.

الفئران :

معظم الناس يرغبون التمتع بالخيرات المادية، لكن الروح التجميعية تظهر ميلاً للتراكم، وفق ساركار الروح التجميعية «أكثر ميلاً إلى الامتلاك منها إلى التمتع بالأشياء المادية» يريدون الشعور بالراحة بالتفكير في هذه الأشياء، ويحصلون على لذة من مجرد رؤيتها. من الأبعاد الثلاث للزمن، المستقبل هو الذي يشغل الروح التجميعية والتي تسعى لاكتناز الثروة من أجل «الأيام السود» في لحظة معينة، المجمع يتوصل إلى السيطرة على المجموعات الثلاثة

الأخرى بشراء خدماتهم بفضل ثروته. وبكلمات أخرى أن تراكم الثروة هو الذي بفضله يحاول الروح المجمع الحصول ليس فقط على متع الحياة وضمان المستقبل وإنما أيضاً على المكانة والسلطة في المجتمع: المقرضون، السماسرة، سادة الإقطاع الرأسماليون هم جزء من هذه الطبقة.

بالتأكيد لا ينخرط كل المجمعين في الحياة السياسية، لكن أولئك الذين يهتمون بالسياسة، يرتقون عادة في المجتمع بتأجير خدمات المثقفين. وإذا كان المحاربون يعملون من أجل المثقفين، والشغيلة يعملون من أجل المحاربين، فإنه في لحظة أو أخرى تصير كل الأنماط خاضعة للأثرياء أي الذين روح التجميع متطورة عندهم جداً.

مثل بسيط يوضح الاختلاف بين هذه الأنماط الأربع من العقليات إذا برزت مشكلة. الشغيل - الجاموس - يتجاهلها تماماً وببساطة أو أنه يحاول تأجيل حلها أطول وقت ممكن.

المحارب - النمر - بالعكس يواجهها مباشرة ويلجأ إلى قوته الفيزيقية، ولا يرتاح حتى يتراءى له أكل.

المثقف - الثعلب - يستخدم ذكاءه، ولكن في حالة العجز يطلب مساعدة المقاتل - النمر - أو يحاول ربطه به بالإقناع.

أخيراً المجمع - الفأر - يعالج المشكلة بتوزيع أمواله ليضمن خدمات المثقف - الثعلب - والمقاتل - النمر - والشغيلة

ـ الجاموس ـ سواء كان جاموساً أو ثعلباً أو نمراً أو فأراً، فإن هذا المثل يعطي فكرة صحيحة بما يكفي عن مختلف المواقف التي يتبناها الناس في الحياة.

في كل مكان، في أمريكا، في آسيا، في أوروبا وغيرها، الفحص الجاد للتاريخ يكشف عن هذا التقسيم الرباعي للمجتمع والذي يسميه ساركار «النظام الاجتماعي الرباعي».

الأنماط العقلية التي يحددها واسعة بما فيه الكفاية لتشمل كل مجتمع وصل إلى درجة النضج، إذ نراه يتكون من أربع أنماط، وحيث تسيطر إحدى هذه الأنماط.

سلوك فرد ما يكشف عادة عن اثنين أو حتى عن مجموع المواقف الأربعة. لكن عند معظم الأفراد، وخاصة في الأوقات الصعبة فإن نمط واحد من العقلية يتكشف حقاً.

يوجد في كل منا جانب تجميعي، غريزة استحواذ، لكن بعض الناس فقط يلهثون خلف المال، ويجعلون منه الخير الأقصى في الحياة، نحن جميعاً نبحث عن مستوى حياة مريحة وعن المكانة الاجتماعية ولكن بعض منا ـ المحاربون ـ يحاولون التوصل إلى هذا بالقوة وبفضل قدراتهم الفيزيقية. وآخرون ـ المثقفين ـ بواسطة البحث وبفضل قدراتهم العقلية، وآخرون ـ المجمعون ـ بواسطة التقشف الدائم أو باستثمار أموالهم التي يملكونها. أولئك من بيننا الذين لا طموح لهم أو لا مواهب والذين لم يتحصلوا على تعليم

أساسي أو تأهيل مناسب فإنهم يكونون شغيلة أو جاموس.

من الواجب ملاحظة أن تقسيم المجتمع إلى أربع أقسام مختلفة، والذي قام به ساركار، مرن جداً. إذ يمكن حصول حراك اجتماعي ما بين المجموعات إذا تغيرت السمات العقلية للأفراد مع تغير الزمن، أو بواسطة جهد إرادي أو بفضل اتصال طويل مع الآخر. مثلاً تحت قيادة المقاتل فإن الشغيل يمكن أن يصير محارباً حقيقياً، إو بواسطة تعليم معمق يصير مثقفاً، وكذلك الحال مع العقلية المثقفة والتي باتصالها بالنقود تصير قادرة على تبني روح الاستحواذ التي تسم روح المجمع. كما أن المجمع يمكن أن يصير شغيلاً. هكذا مع أن التمييز بين الأنماط الاجتماعية يصدر عن اختلاف في الطبيعة الإنسانية، فإنه يمكن أن يكون وراثياً كما يمكن أن يكون غير وراثي، أي مكتسب[1].

المراحل الأربع للدورة الاجتماعية:

يرتبط بالأنماط الأربع، التي تكون المجتمع، تطور اجتماعي في أربع مراحل. عند ساركار، المجتمع يمر بأربع عصور متميزة: وهي عصر المحاربين، عصر المثقفين، عصر الجمّاعين، والذين

(1) الأنماط العقلية المشار إليها تنطبق على الرجال كما على النساء. من سوء الحظ أنه في معظم اللغات لا يوجد ما يمكن أن يشير إلى الرجال والنساء معاً بضمير واحد. عقدة تفوق الذكور لا ترجع إلى النظام الطبيعي، كما يعتقد كثيرون، ولكن بقايا هيمنة المثقفين.

يهيمنون على النظام الاجتماعي والسياسي كل بدوره. أما الشغالين فلا يهيمنون. لكن في بعض الفترات، تنغلق الطبقة الحاكمة على نفسها، وفسادها يجعل المجتمع، لبعض الوقت، يسقط في حالة غوغائية حيث السلطة ليست في يد أحد. هذه الحالة تسم مراحل الشغيلة أو الجاموس.

لا تستطيع مجموعة واحدة أن تمارس هيمنة وسلطة أبدية في المجتمع، المجتمع يمر من مرحلة إلى أخرى وفق نسق محدد. سواء كنا في حضارة قديمة أو حديثة، شرقية أو غربية: عصر الشغيلة يليه عصر المقاتلين، وعصر المقاتلين يتلوه عصر المثقفين، وعصر هؤلاء يليه عصر الجمَّاعين والذي يبلغ الذروة في ثورة اجتماعية. «هذا التطور الاجتماعي هو القانون الصارم للطبيعة».

هذا هو قانون الدورة الاجتماعية عند ساركار، هذا القانون الطبيعي يراه حتمياً لأنه يتأسس على مبدأ «التطور» وكما أن تطور الإنسان، ابتداء من المرحلة الحيوانية، أمر لا شك فيه، فإن تقدم الإنسانية في طريق التطور، أمر لا يمكن إيقافه. إن حركة الدورة الاجتماعية ظاهرة طبيعية لا يمكن تفاديها، والتي بواسطتها تنتقل الهيمنة الاجتماعية من نمط اجتماعي إلى آخر، ومن جماعة ذات بنية عقلية معينة إلى أخرى.

هكذا، خلف الصدفة التي تبدو أنها تحكم تحولات مجتمع ما، يختص الطابع، غير الممكن تفاديه ولا يمكن نفيه، لقوانين طبيعية

معينة التطور الاجتماعي يسير مواكباً تطور الإنسانية. هكذا في كلمات تنبؤية يقدم لنا ساركار رسالته. في رأيه المجتمع كيان حركي، والتغير الدائم جوهره. حضارة ما تنبعث مع ظهور عصر المقاتلين، وبعد صعود وهبوط يأتي عصر المثقفين، ومن ثم عصر الجماعين، ومرحلة انتقالية هي عصر الشغيلة. إنه لا يعود إلى عصر المقاتلين إلا ليتقدم وفق نفس المسار الثابت.

لماذا يجب على المجتمع المرور بهذا التطور؟ لماذا عليه التقدم وفق دورات وليس في خط مستقيم؟

ساركار يعتقد أن حركية كل كيان أرضي، فردي أو جماعي أو مجتمع هي حركة نسقية تتصف مثل حركة القلب بالانفتاح والانقباض بالتداول، صعوداً وهبوطاً، صفة «انفتاح لكل حركة ليست إلا تعبير عن حالته التقدمية، والتي في نقطة الذروة تنقلب إلى مرحلة تراجعية وانقباض».

السبب الذي يجعل كل حركة نسبية نسقية، يكمن في أن منبع إلهامها يكمن في حالة السكون. هذه وفق ساركار لا تتحدد كحالة جامدة، ولكن كحالة توازن: من السكون يظهر كل نشاط ونحو السكون يتجه كل نشاط. لنفرض أن توازن كيان ما اختل بسبب قوة خارجية. هذا الانحراف بالنسبة للتوازن والاضطراب المتوالي في هذا الكيان يمثل مرحلته الانفتاحية، إذا، خلال هذه المرحلة بقيت له بعض الحيوية، فإن مرحلة الانقباض تبدأ موسومة بحركة عكسية.

الكيان الذي طرأ عليه بعض التغير خلال هذه العملية، يعود من جديد نحو التوازن، أو نحو ما يمكن تسميته الحالة المستقرة. وحسب حركيته، فإنه من الممكن أن يتطور خلال المرحلة الانقباضية بطموح أكثر عمقاً من السابق. مع ذلك، إذاً خلال اختلال التوازن أو «الانفتاح» لم تحدث أي حركة عكسية فإن الكيان يتجه إلى الضياع.

كل الحركات النسبية تكون اهتزازات، يمكنها أن تموت قبل أو بعد الانجاز الكامل لدورة ما، أو وفق قوتها نفسها تتبع بشكل لا متناهي طريقاً دورياً موسوماً بتيارات انقباضية وانفتاحية تدوالية. المسار المتصل ذو الاتجاه الواحد لأي كيان يكون مستحيلاً.

مجتمع يتطور أسرع كثيراً من جماعة بدائية، والتي حسب توينبي لا تستطيع تقديم ردود أفعال مناسبة لتحديات الحياة، إنها خاضعة لظاهرة تنوعات دورية والتي تجسدها الحقب أو العصور الاجتماعية عند ساركار.

عصر الجاموس:

ما هو عصر الشغيلة؟

مجتمع الشغيلة هو مجتمع يعاني من غياب تام للقيادة وللسلطة، عصر الشغيلة إذن يتصف بالغوغائية، وغياب النظام الاجتماعي والعلاقات العائلية ليس لها قيمة. الأفراد يسخرون من أسمى القيم ومن أروع الأشياء في الحياة. الموقف الديني ـ إذا وجد ـ ينتج عن

الخوف من المجهول، الأخلاق مائعة جداً. الجريمة شائعة، المادية تنخر المجتمع حتى النخاع.

الناس الذين لهم ميول شغيلة يوجدون في كل مكان وفي كل حضارة. لكن عندما يفقد المجتمع أي هدف، والطبقة الحاكمة تضطهد الناس إلى أقصى حد، يبدأ عصر الشغيلة، الدولة أو الحكومة يمكن أن توجد في عصر الشغيلة، لكن سلطتها غير محترمة. في كل الأحوال الشغيلة لا يسيطرون على الحكومة. والمسألة المهمة أن عصر الشغيلة يظهر بسبب اكتفاء وغطرسة الجماعة المهيمنة والتي لم يعد في إمكانها التأثير في الآخرين.

عصر النمور :

عصر المقاتلين هو عصر، بالمعنى البنيوي السياسي والاجتماعي، على نقيض عصر الشغيلة، في عهد المحاربين، أو الأشخاص ذوي العقلية القتالية، ومع أنهم لا يمثلون الأغلبية ضرورة، إلا أنهم يسيطرون على المجتمع وعلى الحكومة. السلطة السياسية تكون عندئذ مركزية إلى أقصى حد، الأفراد غير منظمين، الروابط العائلية تمثل إرغاماً أخلاقيا، المكانة الاجتماعية ترجع إلى القوة الفيزيقية، ويجري البحث باستمرار عن الانجازات الكبرى. السلوك الديني عند المقاتلين يجسد الرغبة الشائعة عندهم في هزيمة المادة المحضة. المثقفون والجمّاعون يتمتعون ببعض الاحترام عند المقاتلين. مع أنهما ـ مثقفون وجمّاعون ـ يتدخلان بعض الشيء في

مجال الحكومة. لكن الشغيلة يقومون بالأعمال الفصلية لحساب المقاتلين.

في المرحلة النهائية لهذه الحقبة، كما في العصور الأخرى، يكون الشغيلة مستغلين بدون رحمة. مع ذلك في فجر عصر المقاتلين فإن القادة يحترمون مساهمة الشغيلة ويعاملونهم برفق.

عصر الثعالب :

عصر المثقفين يتصف بارتقاء القساوسة والمثقفين، هنا أيضاً الطبقة الحاكمة ليست في حاجة لأن تكون متفوقة عددياً، في هذا العصر يظهر عدد من النظريات الجديدة تتناول مختلف مظاهر الحياة. ومع أن معظم المثقفين يهتمون أساساً بنجاحهم في الدنيا، إلا أن بعضهم مأخوذاً برغبة عارمة في إدراك المطلق، يتوصلون إلى تجربة عن سعادة تعلو أو تسمو بالروح. من خلالهم ظهر مبدأ الصلاة لله بدافع الحب فقط.

بينما في بداية عصر المقاتلين يكون السلطان قوياً ومتسامحاً، ويصدر عن أشخاص يمتلكون القوة الفيزيقية، فإنه خلال عصر المثقفين يصدر عن مثقفين يتسمون بالنزاهة وقلة من الأشخاص المتنورين. المثقفون، بدون شفقة، يستغلون مع ذلك المحاربين والشغيلة باسم حكماء قهروا في أنفسهم كل ضعف. في نهاية عصر المثقفين هذا الاستغلال يصير قمعاً.

عصر الفئران :

عصر الجمّاعين يتشابه كثيراً مع المراحل الأخيرة من عصر المثقفين، والتي خلالها يجري استغلال المحاربين والشغيلة بوحشية من قبل المثقفين. المثقفون مع ذلك، لم تعد في أيديهم مقاليد السلطان، إنهم منذئذ يعملون لصالح الطبقة المترفة والتي تفرض على الجماعة نظاماً لا مركزياً جداً.

خلال عصر الجمّاعين تختزل القيمة الباطنية أو العملية للأشياء إلى صفر. كل شيء يقيم من خلال الأوراق أو قطع النقود. القيمة الإنسانية تأخذ في التراجع: الفن الموسيقى الدين الرياضة... كل شيء يصير تجارة. الجريمة تزدهر، الروابط العائلية تتراخى. ومن جديد يتجه عصر الجمّاعين إلى الغوغائية أي عصر الشغيلة، تدريجياً.

في نهاية عصر الجمّاعين يجري استغلال كل الأنماط الاجتماعية من قبل الجمّاعين بدون شفقة، انحطاط الجماعين لا يعرف حدوداً. المجتمع حينئذ لا يعبر مرحلة الشغيلة، والتي يمكن أن تكون قصيرة جداً، إلا لكي يقع في ثورة اجتماعية، والتي في نهايتها يتابع المجتمع تقدمه، هذا التقدم يترجم في مرحلة جديدة من عصر المقاتلين... وهكذا...

الدورة الاجتماعية عند ساركار :

وفقاً لقانون الدورة الاجتماعية، الذي يقول به ساركار، السلطان

والنفوذ ينتقلان من نمط إلى آخر طبقاً لظاهرة الحركة النسقية.

الانتقال من عصر إلى عصر هل هو انتقال هادي، سلمي، أم عنيف يتسم بالانقلابات؟ ثم كيف تتطور فترة التقدم أو التراجع خلال كل عصر؟

الرقي أو الانحطاط خلال عصر ما هل هما حران؟ أم هما خاضعان لتذبذبات دورية؟

إذا كانت حركة كل كيان اهتزازية، فإنه في كل مرحلة، المكاسب أو الخسائر التي تمنى بها جماعة ما لا يمكن أن تكون منتظمة. كل فعل، كل حركة لها طول موجة معين والتي يسميها البعض حياة. كل الأنشطة الاجتماعية السياسية الثقافية والاقتصادية تخضع لدورات لذلك خلال عصر معين من الحضارة، الرقي كما الانحطاط عند جماعة معينة يتصف بتنوعات دورية. لهذا السبب تبدوا بعض الأحداث تكرارية. حتى حياة كل فرد، والتي طول موجتها أقصر كثيراً من موجة العصر الاجتماعي، خاضعة لظاهرة الصعود والهبوط. ولكي يفسر الهوامش التي تظهر في كل عصر، يدخل ساركار تصوره عن التطور والثورة الاجتماعية.

التطور الاجتماعي يحدث عندما، بفضل تغيرات تدريجية ممتدة على مدى زمني طويل، يمر المجتمع من عصر إلى العصر الذي يليه، أي من عصر المقاتلين إلى عصر المثقفين... وهكذا دواليك. النظام الاجتماعي في هذه الحالة يتطور ببطء، كما أن العبور من

نظام إلى آخر لا يؤثر بعمق على الناس، أنه في صالح أقلية صغيرة من أصحاب الامتيازات الذين يسيطرون على الحكومة الجديدة، بينما بالمقارنة عامة الناس لا تحصل إلا على فائدة ضئيلة.

عكس التطور الاجتماعي هو ضد ـ التطور. ضد التطور يحدث بالتناقض مع قانون الدورة الاجتاعية، عندما يتراجع عصر ليعود إلى العصر الذي سبقه، أي عندما عصر الجمّاعين ـ الفئران ـ يعود إلى عصر المثقفين ـ الثعالب ـ وعصر هؤلاء يرجع إلى عصر المقاتلين. وبما أن هذا انتهاك لمبدأ تطور الدورة الاجتماعية فإنه ضد ـ التطور، لذلك عمره نسبياً قصير.

أحياناً يكون انتقال السلطة ما بين الأنماط الاجتماعية وعراً وصاخباً إذا كانت الثورة متطابقة مع الدورة الاجتماعية، فإنه يصاحبها عموماً نمط حياة جديد تماماً، سواء بالنسبة للذين يقبضون على مقاليد السلطان كما بالنسبة لجماهير الناس، يمكن أن تكون الثورة الاجتماعية مفيدة كما يمكن أن تكون غير مفيدة لكل أعضاء المجتمع، ولا تولد الثورة ـ بالضرورة ـ العنف وسفك الدماء، لكنها تنتهي باستبدال الأفكار القائمة بغيرها من الأفكار المتفقة مع متطلبات العصر.

في الواقع، الثورة الاجتاعية عند ساركار، مرادفة لعملية إدخال مفاجىء لأفكار جديدة حتى وإن لم يحدث بالتوازي أي تغيير في جسم الحكومة. هكذا أي حدث، عنيف أم غير عنيف، والذي يهز

النظام، ويقوده إلى تعديل جذري للعرف والمؤسسات العتيقة يمكن أن نصفه بالثورية. مثلاً تقليص سلطات وصلاحيات الملوك الذي قام به البرلمان البريطاني عام 1688 كان حدثاً مهماً مع أنه سلمي، ومع ذلك يمكن تفسيره على أنه ثورة اجتماعية. ونفس الشيء. الثورات العديدة والانتفاضات التي حدثت في الماضي، لكنها لم تسم بشكل واضح المستقبل يمكن أن نسميها ثورات اجتماعية حتى وإن كانت عنيفة وأدت أحياناً إلى تغير الحكومة عكس الثورة الاجتماعية يكون ضد ـ الثورة، والذي يتضمن عادة قلباً عنيفاً للدورة الاجتماعية، وهذا عمره أكثر قصراً من عمر ضد ـ التطور. ضد ـ التطور وضد ـ الثورة يحدثان عموماً عندما يبلغ عصر ما نهايته.

التحولات التي يتكبدها المجتمع خلال لحظات دورية من تطور اجتماعي وضد التطور الاجتماعي (أو ثورة اجتماعية وضد ثورة اجتماعية) يمكن أن تحدث مرات عديدة قبل أن يخلي عصر ما مكانه للعصر التالي. المجتمع يتقدم بنسق سريع، عندما يكون قائداً كفؤاً على رأس الجماهير والتي عادة ما تقلد قياداتها.

إن الفحص الدقيق لصعود وهبوط الحضارات يكشف ما يحدث عادة في فجر كل عصر، خاصة عصر المقاتلين ـ النمور ـ: نسق التطور الاجتماعي يتسارع بفضل ما يدعوه توينبي «التقليد الاجتماعي» والذي ينتج عن تقليد شخصيات مبدعة. تقليد بواسطته جمهور الناس غير المبدعين يقلدون خطى بعض الأشخاص المبدعين. لكن الشروط الأولى لم يمكن تسميته تقليداً اجتماعياً

إيجابياً هو أن القائد يوجه الأقلية أو أنه هو نفسه شخص مبدع. ومهما كان السبب فإن النصف الأول من كل عصر اجتماعي، باستثناء عصر الشغيلة ـ الجاموس ـ يتميز بإنجازات اجتماعية واقتصادية وفنية وإنسانية ملفتة للنظر.

مع ذلك بمرور الزمن، الطبقة الحاكمة تفقد أهليتها وتسقط فيما يسميه توينبي «أقلية مهيمنة» والتي لم تعد تحصل على دعم تلقائي من الناس، هذه الطبقة تختفي حالما يحدث رد فعل اجتماعي ضد الاضطهاد الذي يمارسه النظام.

لماذا يحدث هذا الفساد؟ لماذا زهرة الإنسانية ما قبل ذلك يانعة تذبل؟ لن ننشغل بهذا الآن. ما يهمنا هو الظاهرة الملاحظة عالمياً، والتي تعني أن هذا مصير كل كيان دنيوي، كل حركة نسبية، كل واجهة حضارية.

الاضطهاد الذي تمارسه الطبقة الحاكمة، والتي ترفض التخلي عن هيمنتها التي استحقتها يوماً ما، والتي لم تعد أهلاً لها، ينتج صدمة قوية في نفوس المظلومين، في نفوس ضحايا قمع الأقلية المسيطرة. ينتج عن هذا أن الذين يتكبدون الظلم يتطورون أسرع جداً من الطبقة الحاكمة. أطفالهم يعيشون في ذكرى الطغيان الذي تكبده أباءهم، فيصيرون الخصوم الأشد للطبقة الحاكمة. وبقدر ما يزداد الطغيان يزداد تصميمهم على الكفاح، حتى يأتي اليوم الذي فيه، أقوياء بإرادتهم وأكثر حماساً، ينتزعون السلطان من قياداتهم

ـ حكامهم ـ. إذا مثل هذا التغيير حدث بشكل عنيف وترسخ، فإن هذا الحدث يدعوه ساركار ثورة اجتماعية، وإذا جرى الحدث تدريجياً وبعد فترة طويلة من الاضطهاد يدعوه تطوراً اجتماعياً.

أولئك الذين يعلنون العصر الجديد، القادة الجدد، قلوبهم عامرة بالشهامة، لقد عاشوا حياة الألم والحرمان، وبتحريضهم يستعيد التطور الاجتماعي مسيرته إلى الإمام في نسق متسارع. إنها مرحلة «الدفع» نتيجة تسامح القادة وإبداع القلة. بالعكس مرحلة «الانقباض» في أي مجتمع تصدر عن خمول المجموعة القائدة.

هذه هي العملية التي تظهر وتتكرر خلال تطور المجتمعات. . . من عصر المحاربين ـ النمور ـ إلى عصر المثقفين ـ الثعالب ـ ثم عصر الجماعين ـ الفئران.

إذن في كل مراحل الحضارة يتكون المجتمع من أربع أنماط رئيسية إلا أنه في نهاية عصر الجماعين اثنان فقط يبقيا: الجمّاعين ـ الفئران ـ والشغيلة ـ الجاموس. أما المثقفون ـ ثعالب ـ والمقاتلون ـ نمور ـ فقد أحيلا إلى وضعية شغيلة بسبب دناءة الجمّاعين ـ الفئران ـ

في المرحلة الأولى من عصر الجمّاعين لا يلاحظ المحاربون والمثقفون أن الجماعين يستغلونهم، ويقدمون خدماتهم لهم إرادياً لكسب معاشهم، ولفترة من الزمن يسخر النظام الاجتماعي كله من أجل ترسيخ هيمنة الجماعين. مع ذلك الجماعون يدفعون مقابل

الخدمات ليس عرفاناً بالجميل ولكن من فائض الاستغلال. بدافع غريزة الاستحواذ عندهم يستمر الجماعون في تكديس الثروات، لكن الموارد المادية التي في حوزة مجتمع ما محدودة، عندئذ لا يثري الجماعون أكثر إلا على حساب الطبقات الأخرى.

عقلية الجماعين ـ الفئران ـ تعارض تقاسم الخيرات مع الآخرين إلا إذا كان التقسيم في صالحهم. وبقدر ما تتكدس الثروات في خزائن الجماعين فإن مستوى حياة الثلاث طبقات الأخرى يتدنى تدريجياً: حتى الوصول إلى لحظة ينحل فيها المجتمع إلى طبقتين: الملاك وغير الملاك. ويكون الجوع والفقر شديداً حتى إن السمات الخاصة بالمقاتلين والمثقفين تختفي أمام متطلبات البقاء على قيد الحياة.

خلال هذه الأيام السود من الاستغلال المفرط تولد مرحلة الشغيلة الشراهة اللامحدودة للمال عند الجمّاعين تنتهي بأن تدفع الجماهير إلى التمرد. الجماهير يقودها نفس المقاتلين والمثقفين ـ الذين صار لهم نفس نمط تفكير الشغيلة ـ وإن كانوا قد استقبلوا قبل ذلك نظام الجماعين بأيدي مفتوحة.

ساركار يسمي هذه الثورة ثورة الشغيلة، ثورة تحدث خلال نهاية عصر الجماعين والتي تساهم في سقوطه. هذه الثورة يثيرها المقاتلون والمثقفون الغاضبين[*]. التسمية ثورة الشغيلة لا تعني أنها

(*) طبقاً لهذا التعريف قلة من الثورات المشهورة ـ ثورة انجلترا، الثورة الفرنسية =

من صنع الشغيلة، فهؤلاء عموماً غير قادرين على القيادة، وإنما تعني أن مدبريها هم أولئك الذين ـ بسبب هيمنة الجمّاعين وبخلهم ـ سقطوا في مستوى حياة الشغيلة.

المرحلة النهائية لعصر الجماعين يمكن أن ندعوها عصر الشغيلة أو عصر الشغيلة ـ الجمّاعين. ذلك لأن الشغيلة يكونون آنذاك الأغلبية العظمى بينما لا يزال الجمَّاعون في السلطة. يظل في هذه المرحلة قلة من المحاربين والمثقفين، ذلك لأنهم ـ بسبب دناءة الجماعين ـ مرغمين على تخصيص كل وقتهم لكسب العيش، غير قادرين على القيام بأنشطة فنية ثقافية أو مغامراتية، وهي الأنشطة التي ترتبط بعقلية المثقف والمحارب. في هذا الوقت تقوم ثورة الشغيلة، ويجري كنس الجمَّاعين. الشراهة المفرطة عند الجماعين تصير ـ في نهاية المطاف ـ جلاد الجمّاعين.

في النظام الذي يليه، والذي يمكن أن يقوم مباشرة أو بعد فترة قصيرة من التعديلات، يعود السلطان إلى المقاتلين، ويبدأ التطور الاجتماعي مسيرته من جديد، بشكل يجعل كل عصر يتبعه عصر آخر.

= عام 1789 الثورة الروسية 1917ـ يمكن أن ندعوها ثورات شغيلة لأنها لم تحدث في نهاية عصر الجمّاعين. بالعكس مجيء هنري الخامس في انجلترا ثورة شاندرا قوبتا موري ضد الإغريق ودانانناندا في الهند تبدو في عداد الأحداث التي أتاحت وضع حد لمختلف عهود الجمّاعين.

يمكن ملاحظة أنه في كل العصور الأخرى غير عصر الجمّاعين، انتقال السلطان يمكن أن يتم بواسطة ثورة أو بواسطة تطور اجتماعي. بينما مرحلة الجماعين تنتهي ضرورة بفعل ثورة اجتماعية يقوم بها الشغيلة.

تداول الهيمنة الاجتماعية حول نواة يكونها المقاتلون، المثقفون والجماعون والتي تنتهي بثورة الشغيلة تمثل قانون الدورة الاجتماعية عند ساركار. من وجهة نظره معظم البلدان تكون اليوم في المرحلة النهائية لعصر المقاتلين ـ النمور ـ. في بعض الأماكن أخذ يتأسس عصر المثقفين ـ الثعالب ـ بينما في عدد كبير من البلدان الديمقراطية نجد مرحلة الجماعين في الصدارة(*).

بقي أن نعرف إن كان بإمكان حضارة ما الانهيار قبل أن تعبر كل مراحل الدورة الاجتماعية؟

الجواب نعم. إذا خلال مرحلة «الانقباض» في عصر معين لم يظهر قائد جديد، وإذا لم تظهر شخصية نشطة، فإن هذه المرحلة يمكن أن تموت تحت ثقل الأقلية المهيمنة. وحينئذ فإن الحضارة يمكن أن ترتد إلى غوغاء الشغيلة. هذه المرحلة تدوم إما بسبب

(*) إذا اعتمدنا نظرية الدورة الاجتماعية عند ساركار فإن الاتحاد السوفيتي والصين يكونان نموذج عصر المقاتلين بينما المجتمعات الغربية والهندية (هند إسلامية) فإنها تعبر مرحلتها أي مرحلة الجمّاعين. مع أن الهند والغرب ليس بينهما تشابه كبير ثقافي واقتصادي إلا أنهما معاً تسيطر عليهما روح الربح والفائدة.

السكان المحليين أو بسبب ما يسميه توينبي «الغزو البربري».

هكذا مرحلة الانتقال من عصر إلى عصر آخر هي مرحلة خطيرة بالنسبة لمصير الحضارة، يمكنها أن تشكل الاختلاف التام بين حياة مديدة والموت، بين وجود حضاري والبدائية.

وإذا ما ارتد المجتمع إلى حالة الشغيلة، والتي يمكن أن تستمر عدة قرون، فإن هذا المجتمع المنحط إذا ما استيقظ مجدداً، مؤقتاً أو نهائياً، فإنه يأخذ من جديد اتباع مسار التطور من عصر المحاربين إلى عصر المثقفين.. وهكذا دواليك..

مراجع

1 ـ ب. ر. ساركار: «**المجتمع الإنساني**» ج2 سنة 1967

2 ـ توينبي: «**دراسات تاريخية» ج1 سنة 1948**

3 ـ مواقف الطبقة والاستغلال الإنساني

في الفصل السابق قدمت للقارىء نظرية الدورة الاجتماعية عند ساركار والطبقات الاجتماعية الأربع التي تقوم عليها. النظرية تؤكد بكل بساطة إنه ما بين الأربع مجموعات: مقاتلون، مثقفون، جمّاعون، شغيلة، فإن الثلاث الأولى تمارس السلطان بالدور، وتستحوذ على التفوق الاجتماعي في كل حضارة، بينما الطبقة الرابعة ـ الشغيلة ـ لا تطلب الوصول إلى الأولوية ولا السلطان السياسي، لقد تفحصت أيضاً صفات معينة والتي تميز هيمنة طبقة عن هيمنة طبقة أخرى.

هذا الفصل يتناول بعض الأمور ذات العلاقة والمثيرة للاستغراب والتي تنتج عن الفرضية الرئيسية التي يتقدم بها ساركار كتفسير للتطور الاجتماعي.

عصر الجاموس :

نحن نعرف، كما سبق، أن الشخص الذي عقليته عقلية شغيلة

يفتقد إلى المبادرة والذكاء مقارنة بالأشخاص المنتمين للأنماط الأخرى. الشغيلة غير قادرين على قيادة المجتمع. لهذا السبب كل مجتمعات الشغيلة في الزمن القديم كانت بدائية، وظلت كذلك حتى ظهور بعض المقاتلين الذين يستولون على السلطان.

ما يميز حضارة عن جماعة بدائية، ظل وقتاً طويلاً موضوع خلاف بين المؤرخين. ساركار يقسم المجتمع إلى أربع طبقات ذات سمات عقلية معينة. هذا التقسيم مع ذلك يتطلب تحديداً دقيقاً. إذا رجعنا إلى تصورات ساركار فإن الجماعة البدائية هي مجتمع جميع أعضائه ذو سمات شغيلة، بشكل يجعل فرصته محدودة للخروج من هوة الأمية والجهل والهمجية، الصعود الحضاري يمكنه حينئذ أن يتوافق أو يرتبط بصعود أفراد لهم استعدادات عقلية أخرى غير استعدادات عقلية الشغيلة. وبالذات أشخاص يتحلون بصفات قتالية.

ويمكن تمييز الشغيلة عن الجماعات الأخرى عن طريق ملاحظة مستوى التعليم عند كل منها. في العموم المستوى الدراسي هو الأعلى عند المثقفين والأدنى عند الشغيلة، بينما المقاتلون والجماعون يشغلون وضعاً وسطاً. في العديد من المجتمعات الماضية، رجال الدين وحدهم هم المثقفين، يستطيعون وحدهم القراءة والكتابة. العبور إلى التعليم. في المرحلة المعنية، يعتبر امتيازاً محروماً منه الفلاحين الشغيلة والأقنان والعمال غير المؤهلين. اليوم البنية التعليمية مفتوحة للجميع، مع ذلك العمال العضليون هم نسبياً الأقل تعليماً. من الصعب مقارنة تعليم المقاتلين بتعليم

الجمّاعين. لكن المثقفين يتفوقون بوضوح على الجماعات الأخرى في هذا المجال.

تاريخ الزمن البدائي للإنسانية، فترة ما قبل التاريخ والتي تشمل إنسان هابيليس. من إنسان جافا إلى إنسان نياندير تال، وأخيراً إلى أجدادنا المباشرين أي إنسان كرومانون، ينتمون إلى مرحلة الشغيلة. ساركار يصف هذا الزمن على النحو التالي: «في مرحلة الطفولة للجنس البشري، عندما كان النوع الإنساني أو الشرط الإنساني بالكاد يتميز عن المرحلة الحيوانية، أفراد ذلك الزمن مثل أفراد اليوم، لم يجدوا أمامهم مفتوحاً إلا طريقين: طريق الشغيلة أو طريق الانتصار على المادة وعلى الروح بفضل تأمر ما هو أي طريق المحاربين. في ذلك الوقت كان يتوجب على الإنسان التفكير كثيراً في مشاكل المادة، بسبب أنه يعيش في قلب بيئة طبيعية معادية، فإن لم يستطيع الاحتفاظ إلا بنمط تفكير شغيلة، بعيداً جداً عن نمط تفكير الغازي».

يمكن الرجوع، في تكوين مرحلة الشغيلة إلى 1750000 قبل الميلاد، المرحلة التي يفترض فيها أن إنسان باليوليتيك ابتعد كفاية عن القرد لكي ينجز، ما دعاه علماء الآثار والمؤرخين، إنجازات مدهشة. لقد ثبت أن إنسان نياندارتال وإنسان كرومانون، الذين عاشا في الكهوف، بدءا يطبخان طعامهما ويدفنان موتاهما. حياة الجماعة التي نجدها آنذاك في الثقافة الباليوليتيك متدنية، صارت أكثر انتظاماً وأكثر تنظيماً بظهور إنسان كرومانون.

إنجازه العظيم يكمن، مع ذلك، في فنونه ـ خاصة الرسم ـ والذي أتاح فهم ما يسمى عادة الثقافة الباليوليتية العليا.

مع أن حياة الجماعة قامت خلال مرحلة الباليوليتيك، إلا أن العناصر الأساسية لمجتمع منظم لا زالت مفقودة. مؤسسة الزواج والحياة العائلية لا زالت منتظرة. الرجال والنساء يعيشون معاً، ليس بفضل روابط عاطفية أو قانونية وإنما بسبب انجذاب بيلوجي متبادل، ولم يكن لديهم إلا القليل من الحب نحو أطفالهم. أو نحو قرينهم. كل رجل قوي له عدة نساء. أكثر ضعفاً من الرجال فإن النساء اضطررن إلى قبول وضع أدنى منهم. وفي غياب الحكومة لم يكن هناك لا نظام ولا قانون، الغوغائية سائدة، كل منشغل بأمر بقائه الخاص على قيد الحياة.

اليوم، مرور القرون يساعدنا، ندرك أننا تطورنا لدرجة تجعل فكرة إمكانية العودة إلى ما قبل التاريخ، إلى ذلك الوجود الهمجي، فكرة لا يمكن حتى تصورها، هل يمكن القول أن الإنسانية لم يعد في إمكانها السقوط في عصر شغيلة جديد؟ الجواب: لا.

كل شيء في هذا العالم نسبي، ويتغير حسب الزمان والمكان، مجتمع شغيلة اليوم يكون مشابهاً في بعض النواحي لذلك في الزمن الغابر، لكنه لا يمكن أن يكون مماثلاً له تماماً. إن هذا يعني إهمال أو تجاهل ثمار تطور طبيعي جرى خلال ملايين السنين. روح الشغيلة اليوم أكثر ذكاء مما كانته عند ولادة الوعي الإنساني، إنها لم تعد في

حاجة لأن تكون سلبية بالمعنى المطلق، شغيل اليوم هو شخص ذو مبادرة أقل وقدرات أقل بالنسبة للأنماط الأخرى من الأشخاص، ولهذا في كل البلدان الطبقة الشغيلة اليوم مستغلة قدر استغلالها في الماضي. مساهمتها دائماً غير ممكن الاستغناء عنها لبقاء كل مجتمع، لكن الطبقات الحاكمة تستغلها في كل أنحاء العالم.

من السمات المميزة لمجتمع الشغيلة اليوم احتقار الأعضاء الذين يهيمنون عليه للسلطة وللحكومة وللقانون، هكذا بالاختلاف مع عصر الباليوليتيك يمكن لحكومة أن توجد في مجتمع شغيلة معاصر، لكن سلطتها لا تكون محترمة. العنف ينتشر، ويعيش الناس في خوف. في العصور القديمة لا توجد أي روابط عائلية جديرة بهذا الاسم، اليوم غياب الروابط العائلية يتمثل في عدم انضباطية الأطفال أو احتقارهم لسلطة الآباء، وفي شيوع الطلاق والخلافات الأخرى، وفي التخلي الأناني عن كبار السن. في الزمن القديم كان للنساء وضعاً دونياً في مجتمع الشغيلة اليوم تتمثل هذه الدونية في انتشار الدعارة وفي خضوع النساء للرجال في كل المجتمعات.

باختصار، إذا كل هذه السمات، أو معظمها توفرت في مجتمع فإن هذا يعني أنه يمر ضرورة بعصر الشغيلة، الفحص الدقيق للتاريخ يكشف أن كل هذه الحضارات، بما في ذلك تلك الموجودة اليوم يتوجب عليها عاجلاً أو آجلاً تكبد فواجع مرحلة الشغيلة. في بعض الحقب هزتها تصدعات داخلية أو هجمات خارجية. في الواقع الاختلاف بين الحضارات زال، الحضارات الحية تقوم أساساً على

واقعة أن مجتمعات معينة قضت عليها عصور الشغيلة، بينما حضارات أخرى استطاعت تجاوزها واستعادت تطورها. في الفصول القادمة سوف ندرس الحضارات القائمة، وسوف أشير إلى السنوات العاصفة والتي خلالها قام عصر شغيلة لبعض الوقت قبل أن يقضي عليه أشخاص متنورون.

عصر المحاربين :

من كل الجهات تقريباً، عصر المحاربين، والذي خلال رجال ذوو عقلية قتالية يحكمون، يمثل تناقضاً صريحاً مع عصر الشغيلة. الاختلاف العميق بين عقلية الشغيلة وعقلية المحاربين هو المسؤول الأول مع أنهم جسدياً أقوياء، إلا أن الشغيلة يفتقدون روح المبادأة وروح المغامرة التي نجدها عند المقاتلين الذين يستعملون قدراتهم الفيزيقية ليتقدموا في الحياة وللتفوق في وسطهم. إنها الروح القتالية التي أتاحت لكولومبس اكتشاف أمريكا وروبرت بيلي الوصول إلى القطب الشمالي وادموند هيلاري وتانسينق تسلق قمة إيفرست، نفس الروح أتاح للروس إطلاق سبوتنيك، وبفضله ترك الأمريكان بصماتهم على القمر.

المقاتل النمر يعتقد في النظام الطبيعي وفي سلطة حازمة على العائلة. مع ذلك، عندما يصل المقاتل إلى السلطة تتسع عائلته لتشمل كل الناس الذين يعيشون تحت إمرته. إنه قيادي مقاتل يعتقد إذن في حكومة سلطوية وفي الطغيان. ولهذا فإن عصور المقاتلين

تتصف دائماً بمركزية سياسية. وبالحق المقدس للحلول غير القابل للنقاش، وبالدكتاتورية.

بالرجوع إلى العصور القديمة، يمكننا أن نرى أن عصر المقاتلين بدأ مع النيوليتيك أو العصر الحجري الجديد، والذي يبدو أنه تأسس حوالي 3000 سنة قبل الميلاد، مع أنه وجد في مصر عام 5000 قبل الميلاد.

العصر النيوليتيكي عرف بداية الزراعة وترويض الحيوانات. خلال هذه المرحلة أخذ الرجال والنساء يعيشون خارج الكهوف لكي يمكنهم التحكم أكثر في البيئة مما كان عليه حال أجدادهم.

ما الذي أوحى إليهم بالخروج بدون خوف ليبحثوا عن مصادر حياة قابلة للترويض إن لم تكن الروح القتالية؟! وفق كلمات برون ورالف «بينما كل الناس حتى ذلك الحين عاشوا على الالتقاط فإن الإنسان النيوليتيكي بدأ ينتج غذاءه».

سمة أخرى مميزة لهذه المرحلة، إنها صعود المؤسسات، والتي بالنسبة لها، حياة الجماعة والحياة الاجتماعية فائقة التنظيم تكون مسألة أساسية، أصل الدولة يعود بدون شك أيضاً إلى هذه المرحلة، والتي خلالها اكتشاف الزراعة والانفجار السكاني الذي نتج عنها، جعل التنظيم الاجتماعي ضرورة لازمة للبقاء.

المختصون في العلوم السياسية يوردون أسباباً مختلفة لتبرير ظهور الدولة، إذ يمكن أن تكون نتاج نشاط جرى يستهدف الغزو،

أو تكون للدفاع ضد الغزو الأجنبي، أو نتاج التوسع الطبيعي وصدامات الحياة الاجتماعية، أو نتاج الديانات الأولى التي تلجأ إلى السحر، والذي بفضله وصل السحرة إلى مقدمة أناسهم مع افتقارهم القوة الفيزيقية.

مع ذلك، حسب ساركار، يمكننا إرجاع نشوء الدولة ذات السيادة أساساً إلى صعود رجال أقوياء، يتحلون بعقلية قتالية وقوة فيزيقية عليا، والذين اختاروا عدم الخضوع ونبذوا الخوف من الطبيعة. أولئك الذين يقاتلون البيئة ببعض النجاح أثاروا الرعب والاعجاب عند الشغيلة.

في هذا الزمن من رجحان كفة الشغيلة، مؤسسات العائلة والدولة والملكية لا وجود لها، المقاتلون يظهرون مما يسميه ساركار «التحولات النفسية الاجتماعية» التي تحدث في الشغيلة ـ الجاموس ـ والراجعة إلى صدمات فيزيقية وعقلية ناتجة عن عداء الوسط الطبيعي. وعندما تنظم الشغيلة تحت قيادة مقاتل يبدأ التطور الاجتماعي في الظهور لأول مرة في تاريخ الإنسانية وفق ما يذهب إليه ساركار.

هكذا تكونت عدة جماعات من القبائل، كلها يقودها ويوجهها مقاتل ـ نمر ـ من الممكن أن بعض القبائل تكونت تحت قيادة ساحر أو طبيب ذي عقلية ثقافية، لكن سريعاً ما احتوتها القبائل التي يقودها مقاتلون ـ نمور.

مع أنه بالإمكان أن نلاحظ اليوم بعض آثار الثقافة النيوليتية في بعض الأماكن، إلا أنه من المفترض أنها انتهت باكتشاف المعادن، ففي مصر ماتت منذ أربعة آلاف عام ق.م وفي أوروبا حوالي ألفين عام ق.م. وفي معظم المناطق الأخرى من العالم، حيث الحضارات القديمة حلت محل المجتمعات البدائية فإن العصر النيوليتي انتهى حوالي عام 3000 ق.م. يبدو مع ذلك أن عصر المقاتلين تواصل بدون انقطاعات مهمة. مع أنه، طبقاً لتطور الإنسانية الاجتماعي تكبدت بنيته بعض التعديلات الجذرية ولكي نميز المرحلة الأولى من عصر المقاتلين عن لاحقاتها في مجتمع ما، وهذا التمييز مهم في حالة الحضارات القديمة، فإننا يمكن أن نسمي العصر النيوليتي عصر المقاتلين البدئي.

المرحلة التي تلت مباشرة العصر النيوليتي، عصر المقاتلين تتصف بهيمنة السادة ـ الملوك الأباطرة الدكتاتوريين ـ. مصر القديمة عصر ريق فيدا في الهند، اليونان القديمة، روما القديمة الممالك الوطنية المركزية وعدد كبير من البلدان الشيوعية، وغير المتطورة اليوم هي مثال صارخ للمجتمعات المنتمية لعصر المقاتلين، خلال عصر المقاتلين حسن الانضباط في العائلة أولاً ثم في كل المجتمع يكون قوياً جداً. ولهذا تتمتع النساء بوضع اجتماعي راقي، على الأقل بالنسبة للطريقة التي كن يعاملن بها خلال العصور الأخرى.

في العصر النيوليتي، عدة قبائل يقودها مقاتلون ذووا عقلية حربية، وباعتبارها في حرب مستمرة بعضها ضد بعض، فإنها أدركت

سريعاً أهمية القوة العددية، نمو سكاني سريع صار هدفها المشترك. هذا الهدف جعل من النساء شريكات على الأقل في مستوى مساوي للرجال. في هذه العلاقة، وللحفاظ على نقاوة الدم، فإن النساء الجريئات الشجاعات حصلن في العصر النيوليتي على لقب أمهات الجماعة. مجتمع المقاتلين إذن كان محكوماً بنطام أموي، المرأة تعطي خط مباشر هوية كل رجل وكل امرأة منتمية إلى فرع معين.

مؤسسة الزواج ظهرت في الحقبة الأولى من هيمنة المقاتلين خلال عصر الشغيلة لا تكاد توجد حياة زوجية، حالما اجتمع الشغيلة تحت راية المقاتلين، وحالما تم الاعتراف بمساهمة النساء في النسل، فإن الرجال والنساء أخذوا يشعرون بروابط حميمة في علاقاتهم «الزوجية». في نفس الوقت صار الأب يشعر ببعض الواجب والمسؤولية تجاه قرينته. بهذا ثقل مسؤولية النساء في تربية الأطفال خفّت في بعض الأحوال، وأدى هذا نفسه إلى تراجع وضعهن الاجتماعي.

تدريجياً، الرجال الذين يكسبون الخبز اليومي بدأوا يسيطرون على العائلة، ومع مرور الزمن تخلى الخط الأموي عن مكان للخط الأبوي، لأن رئيس القبيلة رجل والذي نسله يحمل اسمه. ليس من السهل تحديد الزمن الذي خلاله هيمنت أمهات الجماعة على المجتمع، لكن يبدو أن الخط الأبوي ظهر قبل نهاية الزمن النيوليتي وبقدر ما تدنى نفوذ النساء أخذ الرجال يستحوذون ـ كل منهم ـ على عدة نساء وذلك في نهاية العصر الأول للمقاتلين تقريباً.

الفن القتالي يعكس أيضاً أشكالاً معينة من الروح، المقاتل بالطبيعة شجاع وجريء، هذه العقلية تعبر عن نفسها من خلال تقديس الأسد والفيل وهي الحيوانات التي تسود الغابة وتجسد الجرأة والقوة. رؤوس الأسود والفيلة التي نجدها على أجسام بشرية من الحجر في مصر القديمة وفي الهند هي تعبير عن مظاهر الرجولة. وعبادة ذكر الرجل الموجودة في عدة مجتمعات المقاتلين في الماضي تعبر عن ضرورة النمو السكاني، وهي الضرورة الناتجة عن الحروب القبلية المتواصلة.

في مجتمعات المقاتلين مساهمات الشغيلة لم تكن غير ذات أهمية، لقد كان الشغيلة غير قادرين على السيطرة على الطبيعة وحدهم، ولكن عندما استلهموا المقاتلين فإنهم أخذوا أيضاً يحاولون السيطرة على المحيط الطبيعي، في المقابل يقدم لهم المقاتلون المساعدة والحماية، مجتمعات المقاتلين البدئية استفادت من تسامح الحكام.

في الواقع سوف نكتشف فيما سيأتي، إنه في كل الحضارات وفي مرحلة التسامح من عصر المقاتلين ـ النمور، يبلغ المجتمع الذروة ويتجاوز بفضل منجزات إيجابية ما أنجزه خلال عصر الثعالب وعصر الفئران الذين سبقاها. معظم العصور الذهبية، إن لم يكن كلها، أنجزت في الماضي خلال مراحل المقاتلين.

في المرحلة الباليوليتية حدثت معارك متكررة بين الشغيلة لكنها

ناتجة فقط بدافع حفظ الذات. مع ذلك في عصر المقاتلين وكذلك جنودهم، المجندين من بين الشغيلة، يقاتلون من أجل بقائهم وفي نفس الوقت من أجل الآخرين. وإذا كان الشغيلة لا يقاتلون إلا من أجل الغذاء والسكن فإن المقاتلين يقاتلون أيضاً من أجل الكرامة ومن أجل المكانة.

المقاتلون صاروا مع ذلك أكثر سلطوية، وفقدوا الكثير من تسامحهم السابق، ونتج عن هذا استغلال بدون رحمة للجنود وللعمال ـ جاموس ـ. أراضي وممتلكات المقاتلين اتسعت بشكل كبير، عدة قبائل توحدت ـ عقب حروب طويلة ـ وكونت ممالك واسعة محكومة من ملوك وأباطرة. وفي الكوارث التي يحدثها المقاتلون واحدة تلو الأخرى كان الشغيلة عاجزين. لماذا؟ من أجل الرضى عن الذات عند مقاتلين عطشى للسيطرة على العالم كله. في معظم مجتمعات المقاتلين، الحروب الدامية، المستهدفة التوسع، أعلنت نهاية هيمنة المقاتلين، وولادة نفوذ المثقفين. في نهاية عصر المقاتلين، كما سنرى، يرتقي المثقفون إلى السلطة في كل المجتمعات عن طريق القساوسة أو الوزير الأول[1].

(1) المقاتلون المهزومين من قبل مقاتلين آخرين خلال الصراع على السلطان أخذوا يبحثون عن وسائل تعوض فقدانهم قوتهم، عقلياً قلقين أخذوا يعملون فكرهم مما طور فيهم العقلية الثقافية، والتي من أورثها نسله. وهكذا تطورت العقلية القتالية لتصير عقلية ثقافية أكثر دهاء وأشد ذكاء ومهارة.

عصر الثعالب :

حكومات طغيان المقاتلين كانت غير مستقرة، ذلك لأن ما يعتمد على النار والسيف لا يمكن أن يحصل على طاعة الناس إلى ما لا نهاية، قادة الحكم المطلق شعروا بالحاجة إلى نظريات قادرة على شخذ المشاعر أكثر سمواً في رعاياهم. لقد شعروا بالحاجة إلى دوقما لتأطير الانفعالات واستعدادات شعوبهم. من أجل هذا ساعدهم رجال يتحلون بذكاء فائق: المثقفون. من أجل أهدافهم الخاصة قدم المثقفون نظريات تبرر السلطة المطلقة التي يمارسها الطغاة على شعوبهم. هكذا ولدت مفاهيم مثل عصمة الملوك والحق المقدس للملوك. الشعراء والمسرحيون تقدموا ليتغنوا بمدح الحكام، ويحتفوا بإنجازاتهم في المعارك والحروب وحتى في الحب.

لهذا السبب، في ذروة عصر المقاتلين، تمتع المثقفون بوضع اجتماعي أقل قليلاً فقط من وضع المقاتلين. وبالنتيجة عندما بدأ نفوذ المقاتلين يتلاشى، بسبب حروبهم المتعددة، فإن فراغ السلطان وغياب القيادة لم يكن ممكناً ملأها إلا من قبل المثقفين، هؤلاء وحدهم، آنذاك، يتمتعون بالتقدير وبسلطة كافية.

في كل مكان نرى أن المثقفين يعبرون إلى السلطة عقب الكوراث التي تخلفها الحروب للأجيال التالية. في الغرب مثلاً، الكنيسة الكاثوليكية وصلت إلى مركز الصدارة بعد سقوط الأمبراطورية الرومانية ـ مقاتلين.

العقلية الثقافية تتسم بغياب الشجاعة التي هي سمة أساسية في عقلية المقاتلين، لكن العقلية الثقافية ذات وضوح رؤيا وشفافية روحية. عموماً المثقف حذر وعملي، إنه يتذوق الرفاهية لكنه لا العمل الفيزيقي الذي تتطلبه. في الواقع تكوين المثقف لا يؤهله لهذا.

ويترتب على هذا أن المثقفين لا يحصلون على القوة إلا من خلال السيطرة على المقاتلين في المجال الروحي. المثقفون يحكمون بشكل غير مباشر، بممارسة نفوذهم على القيادي المقاتل الذي يظهر على أنه وحده يملك القدرة الفيزيقية والعقلية الضرورية للحفاظ على النظام الاجتماعي.

في كل مرة يشعر المثقفون بأن لحظة استيلائهم على السلطة قد حانت فإنهم يعدون عبادات جديدة وعقائد جديدة مبررة نفوذهم على الناس. فهم يعملون، قبل كل شيء، على إقناع المقاتلين بإمكانية ضياعهم بعد الموت ـ بث الخوف من ما بعد الموت ـ ثم عينيا يقيمون طقوساً معقدة جداً تجعل المقاتل وقد تملكه الرعب يلجأ إليهم إرادياً طلباً لمعارفهم الدينية، وهذا يسعد المثقفين القيام به في مقابل ـ بالطبع ـ السلطان السياسي وكل متع الحياة.

بعد تأطير المقاتلين يعمد المثقفون إلى إشاعة المخاوف والأفكار المسبقة بين الأنماط الاجتماعية الأخرى. وحالما تتم السيطرة على القيادي المقاتل الظاهر فإن إخضاع بقية المجتمع

لعقائدهم الأنانية تكون مجرد مسألة وقت. نرى إذن أنه في كل الحضارات، كل الجماعات الأخرى، غير المثقفين، تقع عاجلاً أو آجلاً في شبكة العقائد والممارسات الدينية.

إحدى السمات الأكثر ملاحظة في عصر المثقفين هي - كما سبقت الإشارة - الهيمنة غير المباشرة للقيادي المثقف. القيادي الظاهر أو المباشر لم يعد إلا مجرد لعبة في يد المثقفين الذين يمسكون بكل الخيوط. لهذا فإن جماعات المثقفين تربح في كل الظروف: في حالة النصر المجد يرجع إليهم إما في حالة الهزيمة فاللوم يقع على المقاتلين. بنية الحكومة والجهاز الإداري في عصر المثقفين لا يتغيرا كثيراً عما كانا عليه في عصر المقاتلين. إلا أنه منذئذ، وبالنظر إلى ضعف القيادي الظاهر فإن السلطان الحقيقي يمارسه شخص من وراء الستار. مع ذلك المثقفون في حاجة للمقاتلين للحفاظ على سلطانهم على الناس. وبالنتيجة فإن نظام المثقفين يكون أكثر لا مركزية من نظام المقاتلين: القيادي الظاهر ليس مطلق السلطان، لكن القيادي بحكم الواقع لم يعدكذلك.

بالغوص أعمق في التاريخ كشفت أنه في حقب معينة يقود المثقفون باعتبارهم قساوسة - رجال دين - وفي حقب أخرى باعتبارهم ممثلين - نواب - انتخبهم الشعب. في كل الأحوال سلطانهم غير مباشر يمارسونه من خلال طرطور - الملك مثلا - تفوق المثقفين يرجع أحياناً إلى سيطرتهم على الكنيسة، وأحياناً أخرى يرجع إلى مواهبهم الخطابية وإلى سعة اطلاعهم، في العصر

الوسيط مثلاً، عدد من الملوك والأمراء بقوا في ظل البابا الذي يقود الكنيسة الكاثوليكية. ونفس الأمر في انجلترا عقب «الثورة المجيدة» عام 1688 فقد صار الملك في مرتبة ثانية بالنسبة لوزيره الأول. التاريخ مليء بهذه الأمثلة. هكذا وفق ساركار عندما القدرات الثقافية لجماعة ما تسمح لهم بالسيطرة على المجتمع فإن هذا عادة ما يتم باسم قيادي ظاهر. عندئذ يكون عصر المثقفين سائداً.

بفضل دقة إحساسهم يقدم المثقفون عادة مساهمات مهمة في كل مظاهر الحياة ومتعها. حقبة المثقفين، عندما يحكمها الوزير الأول وليس القسيس، تتميز بإنجازاتها غير الاعتيادية في مجالات الموسيقى والأدب والفن، وفي كل ما يتطلب ذكاء ماهراً وليس قوة فظة. إن ظاهرة إخضاع طغيان القادة والملوك والأباطرة المقاتلين من قبل قلة مقدسة ومصونة هي ظاهرة خاصة بعصر المثقفين. في الأيام الأخيرة من عصر المقاتلين، المقاتلون الذين كانوا متسامحين يتحولون إلى قيادات فظة بدون رحمة، يكبلون رعاياهم التعساء وفقاً لمزاج عابر، عندئذ يبدو المثقف أنه هو الذي قضى على طغيانهم ووضع حداً لأهوائهم.

ولكي يوطدوا سيطرتهم على السلطان، توجب على المثقفين ابتداع نظريات تؤسس قواعد سيطرتهم غير المباشرة. فاعلين هكذا فإنهم يساهمون بدون وعي في بزوغ سيادة القانون والأشكال الدستورية للحكومة. الجهاز السياسي لم يعد شمولي كما كان، إنه صار يتسم ببعض اللامركزية. بالطبع الملوك المقاتلون يشعرون

بالمهانة لفقدانهم سلطانهم الفعلي، لذلك لا يستسلمون بسهولة لهذا السبب، خلال عصر المثقفين، كذلك خلال العصر التالي أي عصر الجمّاعين، والذي خلاله يقود المثقفون الحكومة لحساب الجمّاعين، تقابلن فترات متكررة يطبعها التعارض بين الملوك والقساوسة.

تاريخ أوروبا العصر الوسيط يعج بالأمثلة والأحداث التي جعلت البابا المثقف في مواجهة الملك المقاتل، أي تعارض السلطة الدينية مع السلطة الدنيوية، حتى وصل الأمر إن الملوك، لكي يتخلصوا من هيمنة المثقفين، دعموا أحداثاً ضد التطور، لكن هذه اللحظات لا تستمر طويلاً، إنها رعشة احتضار المقاتلين الراغبين في التخلص من الشبكة التي نسجها حولهم المثقفون.

وإذا كان التراث الذي خلفه المثقفون ـ الثعالب ـ للإنسانية مما يشكرون عليه بغض النظر عن أهدافهم ودوافعهم، فإن المساهمة الحقة والخالدة تكمن في مجال آخر: لقد كانوا ويكونون إشعاعاً لأفكار عالمية سامية. بالاختلاف مع الأنماط الأخرى فإن المثقفين وجدوا من أجل التأمل المجرد.

ظمأ الإنسانية إلى السعادة لا يمكن أن يشبع، نحن نطلب دائماً من الحياة أكثر، ومن النادر أننا نرضى بما نحصل عليه. السبب أن جوعنا وطلبنا اللذة والسعادة، لا يعرف حدوداً، إنه لا متناهى. إلا أن هذا الظمأ اللامحدود للسعادة لا يمكن إشباعه بأشياء مادية والتي

في ذاتها محدودة، الشيء المحدود لا يمكن أن يكون مصدر سعادة لا محدودة. يوجد إذن تناقض أساسي بين ما نرغبه حقاً وما نلهث خلفه: نحن نطلب السعادة اللامتناهية، ولكن تستحوذ علينا أشياء هذا العالم والتي جميعها متناهية ولا ينتج عنها إلا لذة مؤقتة.

لا يمكن إدراك قيمة هذا التناقض الأساسي إلا من خلال ذكاء سامي والذي المثقفون وحدهم ـ من حسن حظهم ـ يملكونه. ملكة التعمق هذه والتي تسمح بإدراك الواقع خلف برقع الوجود المحدود لا تتوفر إلاّ في عقلية المثقف. لهذا بعض المثقفين، بعد انتظار قاسٍ وبحث مكثف عن الحقيقة، يتوصلون إلى إدراك النور في قلوبهم. في الحقيقة قلة جداً من الناس أمكنها التوصل إلى قمة هذه النشوى. ولكن مثل هؤلاء الحكماء وجدوا في الماضي، وسيظهرون في المستقبل بكل تأكيد. مفاهيم الكونية والعالمية والحب الأخوي لم يكن ظهورها ممكناً بدونهم.

إن أعظم هبات عصر المثقفين للإنسانية تتمثل إذن في نشر الأفكار الكونية لهؤلاء الحكماء الذين يعلنون مبادىء روحية متجاوزين الحدود الضيقة والتعصب. مع ذلك بعض من أقرانهم انسحب بعد ذلك من الطقوس غير المفيدة من أجل استمرارية سيطرتهم على المجتمع. الحكماء قدموا جواهر لا تقدر بثمن، الزائفون حولوا هذه إلى دين تعصبي، الحكماء دعوا إلى الحب المقدس والتراحم، المخادعون يعملون على نشره بإطلاق العنان لقوى الخراب ضد غير المؤمنين هذا لم يحدث في مكان واحد ولا

في بلد واحد فقط، لقد ظهر في كل الحضارات: تاريخ المقاتلين النمور كُتب بالدم، فيه نجد الفروسية والشجاعة ولكن لا نجد لا الحكمة ولا الرحمة. من ناحية أخرى عصر المثقفين الثعالب وسمة الخداع وحروب سوداء والتي ـ عكس مرحلة المقاتلين حيث تسند الحرب طموحات شخصية ـ تتجذر عموماً في تعصب ديني وحشي.

«بتقليب صفحات التاريخ نرى أن كل الحملات والحروب الصليبية في العصر الوسيط خلقها شياطين المثقفين، أما الشغيلة سجناء دسائس المثقفين فقد تكبدوا كل الكوارث والمآسي كضحايا عاجزين، والمقاتلون يقاتلون كأبطال الحروب الصليبية» هكذا كتب ساركار.

سيادة المثقفين لم ينتج عنها سوى النفاق، مدركين أن التفكير المنطقي لا يفتح أبواب الرفاهية، فإنهم أعدوا قواعد اجتماعية جامدة ليس لأحد التخلص منها. بالطبع كل هذا يجري باسم بعض الحكماء المتنورين الذين حتى بعد موتهم الفيزيقي، يلهمون عامة الناس الاحترام والتقدير. على الورق إذن أو في الاجتماعات يعلن المثقفون مثلاً عليا، ولكن في الواقع يفوح الفسق والفساد من حياتهم.

معترفين بأن القسيس هو رسول حكيم ما فإنه يحضى بينهم بمكانة عالية، فيقدم إليه عامة الناس طوعاً ثمار عملهم، وبناتهم وثروتهم، هذا المشعوذ الديني الذي يبدو أنه «يكسب رغماً عنه».

وفي حالة أن أحد الهراطقة البخلاء يتجرأ على وقف هباته أو يسأل عن وجهتها فإن القساوسة دائماً مستعدون لأن يقذفوه بتهمة الإلحاد. ولكي يخفون أهدافهم فإنهم يدعون أن كتاباتهم ذات مصدر مقدس. وما يثير السخرية في كل هذا أن الناس تثق فيهم وأنه لا زال حتى الآن يوجد في بعض الأماكن من يثق فيهم.

بداية مرحلة المقاتلين كانت كما ذكرنا: تتصف بالخط الأموي كنظام اجتماعي، والذي فيه أمهات الجماعة تسيطر هذه المرحلة تلتها مرحلة الخط الأبوي، والتي فيها الرئيس الذكر للقبيلة وصل إلى الهيمنة على القبيلة. وفي النهاية صار ملكاً أو امبراطوراً مطلق السلطان. نظراً للنخوة النظرية عند المقاتلين استمرت المرأة تحضى بوضع اجتماعي محترم، وعلى امتداد مرحلة المقاتلين البدئية اعتبرت المرأة مساعد الرجل، واستحقت مكانة اجتماعية كافية إن لم تكن مساوية للرجل.

خلال عصر المثقفين، مع ذلك، نظر إلى المرأة على أنها أدنى من الرجل. خلال عصر المقاتلين، على الأقل في نصفه الأول، رجولة المقاتل جعلته يعامل المرأة إلى حد ما على قدم المساواة مع الرجل رغم ضعفها الفيزيقي. المثقف يفتقر بالعكس الشجاعة التي يتحلى بها المقاتل، وبالتالي فهو قلق دائماً من ناحية إمكانية عدم ضمان طاعة المجموعات الأخرى. ويتوجب عليه أن يكون قلقاً خوفاً من أن المقاتلين والشغيلة الأقواء عضلياً يكتشفون زيف عقائده المهتزة ويتخلصون منها. هكذا لكي يحكم فإن المثقف يعمل دائماً

على إخضاع المجموعات الأخرى ولا يعترف لها إلا بحقوق أدنى. إنه إذن ساخر، قاسي، بفضل ذكائه الخارق يستطيع المثقف الارتقاء إلى القمم المضيئة أو السقوط إلى الحضيض ليحافظ على حكم لأناس تخنقهم العبودية والخرافات.

بعد السيطرة على المقاتلين يعمل الرجال المثقفون على السيطرة على النساء بإيقاهن في شبكة من النظريات. في حالة النساء الشبكة أشد قسوة من تلك التي يُحصر فيها الرجال من المجموعات الأخرى من غير المثقفين هكذا تمنع المرأة من التعليم ومن اكتساب القدرة على الكتابة والتعلم. في كثير من البلدان وفي بعض الأماكن صار خضوع المرأة للرجل أقرب إلى العبودية، وفي أماكن أخرى قُصر دورها على إدارة المنزل. الزوج بالنسبة للنساء في بعض البلدان هو إله مطلق القوة. اليوم يصعب علينا التصديق إنه في الغرب أيضاً، حيث من المفترض أن تخلص من اللاعقلانية الدينية العصور الوسطية، لا زالت المرأة محرومة من حق الإدلاء بالصوت حتى فترة متأخرة هي النصف الأول من القرن العشرين.

لقد قطعت النساء شوطاً طويلاً على طريق تحررهن، لكن فكرة أن المرأة بالطبيعة أدنى من الرجل وإنها ملكاً له، وأنها دمية في يده لا زالت حية في كل مكان من العالم تقريباً. احتقار المرأة، مع ذلك، لم يظهر إلا في عصر المثقفين، وإذا كان قد استمر فترة طويلة ففي هذا مسؤولية رجال الدين: في لغة المثقفين مزدوجة المعاني نظرياً المرأة ذات وضع مساوي للرجل، وتدعى «النصف

الجميل» لكن في الممارسة روح هذه الصفة يجري خيانتها بدون حدود.

الدعارة باعتبارها مهنة ظهرت للمرة الأولى خلال عصر المثقفين. خلال حقب الشغيلة كما خلال حقب المقاتلين، وخاصة خلال نهاية عصر المقاتلين، حيث الرجال يملكون ـ كل منهم ـ عدة نساء لا شك أن بعض الفسق وجد فعلاً في المجتمع، كما أن المقاتلين يخوضون الحرب أحياناً من أجل النساء، لكن الدعارة كمؤسسة لم تكن قد ولدت بعد، مسؤولية ظهورها كذلك تقع فقط على عاتق المثقفين والقساوسة الذين جعلوا المرأة تعتمد في حياتها تماماً على الرجل، بدون زوج تصير المرأة عاجزة اقتصادياً من المحتمل أن الدعارة بدأت عندما الأرامل أو غيرهن ممن لم يحصلن على زوج لم يجدن أمامهن مخرج آخر غير الدعارة، وأهم من ذلك ضغوط القساوسة على العذارى ليضعن أنفسهن في خدمة آلهة المعبد. هكذا ظهر ما عرف بدعارة المعبد في المجتمعات القديمة في مصر واليونان والهند وغيرها كما يورد دولاكروا:

«حالما ولدت الأديان من الخوف الذي يثيره في نفوس الناس رؤية تقلبات الطبيعة، حالما البركان والعاصفة والصاعقة والزلزال وهيجان البحر قاد إلى خلق آلهة، فإن الدعارة تقدم (ترضية) لهذه الآلهة المرعبة، لكن القسيس استولى لنفسه على الهبة التي لا تستيطع التمتع بها الآلهة الموجهة إليها. بداية من هذا اليوم صارت الدعارة جوهر عبادات الآلهة والآلهات التي تأمر بها تتسامح معها

وتشجع عليها، من هنا بزغت غوامض لامبساك وبابليون وبابوس وممفيس. من هنا المساومات التي تجري على أبواب المعابد، من هنا الآلهة المرعبة التي تمارس الدعارة معها عذارى الهند ومن هنا الدكتاتورية القذرة التي يسمح بها القساوسة لأنفسهم تحت ستار ادعاء القدسية».

عصر الفئران:

إن ما ليس منطقياً ولا عقلانياً لا يمكن أن يستمر طويلاً أو إلى الأبد. قضبان السجن الذي وضع فيه المثقفون بقية المجتمع بدأت تتراخى بقدر ما تكشف الأنماط الأخرى الاجتماعية ما وراء الواجهة التي تعرض نظريات المثقفين. وبشكل محدد، وربما من سخريات القدر، أن بعض العناصر، في قلب الطبقة المثقفة، بدأت تضع موضع سؤال نوايا القساوسة، مستهدفين ليس فقط الطقوس المعدة من قبل القساوسة وإنما أيضاً رفاهيتهم ونمط حياتهم.

بين المثقفين أنفسهم نشأت عدة خصومات ومعارك عقائدية. أولئك الذين هزموا تحولوا إلى جمع الثروات لتعويض ضعفهم الثقافي. وفي نفس الوقت سلك بعض المقاتلين نفس الطريق. هكذا تطورت عقلية أخرى عند الكائن البشري، ثقافة أخرى استحوذت عليها النقود: إنه العقل الجمّاع.

خلال هذا الزمن، كل أشكال الشمولية، ملكية أو كنسية، وضعت موضع سؤال بواسطة بعض المصلحين من المثقفين، بعض

الفلسفات الفردية الجديدة، بالتعارض مع جماعية الدولة، بدأت تتسرب تدريجياً في الوعي العام، الأسس الفلسفية لنظريات الحق المقدس للملوك والكنيسة تصدعت بشكل قاتل. كل هذه التطورات أدت إلى تحويل قاعدة السلطان ببطء إلى الطبقة الغنية: الجمّاعين أو الفئران. هكذا بدأ عصر الجمّاعين.

في كل الحضارات، طبقة الجماعين تأسست خلال هذه المرحلة من أغنياء تكونوا في مختلف لحظات الزمن من أنماط مختلفة مثل: ملاك الأراضي، الرأسماليين، السماسرة، منذئذ فصاعداً لم يعد يكفي ملكية ذكاء لامع للحصول على الراحة والقوة السياسية، حينئذ الهيمنة الاجتماعية انتقلت إلى أيدي الأغنياء

الجمّاع يختلف أساساً عن المثقف من حيث الطريق التي يستخدم فيها ذكاءه أو عقله، الروح أو العقل الثقافي إذا اهتم بالحياة المريحة وببعض المكتسبات المادية فإن له مع ذلك توجه عقلي مجاني. إنه يحب التنظير في موضوع أو ظاهرة، العقل الجماع لا يهتم بشيء كهذا، العقل الجماع تستحوذ عليه رغبة تكديس الثروات ليس فقط بسبب اللذة التي يمكن أن يحصل عليها من استخدامها وإنما أيضاً لمجرد الاستحواذ. عصر الجماعين هو هيمنة عقلية التملك، الجماع الفأر يريد الحصول دائماً على المزيد. مع ذلك ذكاء المثقفين لا يذهب هباء. هؤلاء يساعدون منذئذ الجماعين في الاحتفاظ بالسلطان بأن يقوموا من أجلهم بما يجيدون عمله: إعداد النظريات التي، في مقابل بعض التعويضات، تمثل أسس هيمنة

الجماعين، وكما هو الحال دائماً فإنهم يعملون عن طريق خداع البسطاء، مغلفين دعمهم لسيطرة الجماعين على المجتمع بغطاء غير قابل للاشتباه فيه مثل حقوق الإنسان في الحرية والعدالة. مع ذلك في الواقع هذه المبادىء السامية تنتهك صراحة، إذ لا تؤخذ عادة في الاعتبار إلا إذا كانت تخدم مصالح الجماعين الفئران.

حالما يضمن الجمّاعون تعاون المثقفين فإنهم يحصلون أيضاً على خدمات المقاتلين والشغيلة. هكذا منذ ولادة عصر الجماعين تصبح كل الأنماط الأخرى خاضعة إرادياً للجماعين الذين يسيطرون أنذاك على وسائل الإنتاج، سواء كانت هذه الأرض أو المصنع أو الرأسمال المالي، الإقطاع والرأسمالية مثلاً هما مثالين نموذجيين لعصر الجماعين في الحضارة الغربية.

من بين كل أشكال الحكومة يأخذ الجماعون بالشكل الذي فيه السلطة المركزية ضعيفة أو أكثر ضعفاً. هذا الشكل مستحيل الوجود في عصر المقاتلين، أما خلال عصر المثقفين فإن السلطان المركزي ليس قوياً حقاً، لكن القوانين الاجتماعية الصلبة التي يضعها المثقفون لضمان هيمنتهم على المجتمع تفرض حدوداً ضيقة على النفوس ذات الجرأة. إننا نلاحظ أن مرحلة الجماعين واكبت في كل الحضارات سلطة سياسية لا مركزية جداً. النظام المركزي يمكنه إجبار الأغنياء على تقاسم الثروة مع الفقراء إذاكان ذلك يتناسب مع القضية التي يخدمها، وليس هناك طبقة أكثر من طبقة الجماعين وعياً بهذا الخطر. لهذا السبب حالما يستولي الأغنياء على مقاليد السلطة

فإن نظام الحكم ونظام الإدارة يصيران لا مركزيين إلى الحد الأقصى[1].

من سمات عصر الجماعين الصارخة إن جرثومة العقلية الاستحواذية تنتهي بأن تعدي كل الأنماط الاجتماعية. سلوك الطبقة الحاكمة لا ينتشر بهذا القدر ولا يتسرب بهذه الدرجة في كل المجتمع خلال العصور الأخرى. أما في عصر الجماعين ـ هيمنة الأغنياء ـ فإن السمات المميزة للجماعات الأخرى غير الجماعين تنتهي بالاختفاء أمام جاذبية الثروة، ينتج عن هذا أن كل شيء يصير تجارياً: الموسيقى.. الفن.. الأدب... الجريمة تزداد جذرياً، سنرى فيما بعد أن فقدان عام لاحترام القانون قد تطور خلال حقب الجماعين تحت ضغط عقلية استحواذية أنانية جداً. كل أشكال الجريمة: قتل سرقة خطف اغتصاب شاعت في كل الحضارات، الروابط العائلية تتفكك في بعض الأماكن ترجم هذا ظاهرة حريم النبلاء المقيتة، وفي أماكن أخرى ظاهرة انتشار الطلاق في المجتمع.

حروب المقاتلين والمثقفين، تستقي مصادرها إما من الطموح أو من الدين، إلا أنها في عصر الجماعين تجد مصدرها في طلب

(1) فيما يتعلق بالبنية السياسية من الممكن أن دولة الجمّاعين تشبه عصر المقاتلين البدئي والذي خلاله مجموعات صغيرة من الشغيلة تنظم تحت قيادة فرد مقاتل وحيث لا توجد حكومة مركزية. يبدو هنا بالمقارنة مع عصر المقاتلين البدئي أن نظام الجمّاعين مركزي. لكنه تماثل خاطىء. وفق ساركار كل عصر يجب مقارنته بالعصر الذي سبقه مباشرة. لتفاصيل أكثر أنظر الفصل الخاص بحضارة الهند.

الرفاهية والأرض أو الأسواق التجارية. هنا وأكثر من أي شيء آخر، التنافس الاقتصادي هو المسؤول عن الحروب.

الكفاح من أجل الحصول على الأسواق التجارية لصالح الصناعة الوطنية أو الاستحواذ على مصادر المواد الخام في عدة بلدان متخلفة في زمن الاستعمار، ومظاهر أخرى مماثلة. هذا هو الشر الذي ينخر عقل الجماعين. هذا الجنون المرعب من أجل تراكم الثروة وبأي ثمن: بثمن أرواح المواطنين، بثمن حرية بلدان أخرى، بثمن كل فضائل الوجود.

إن استغلال المجتمع من قبل الجمّاعين من الصعب إدراكه، لأنهم في أهدافهم الأنانية مسنودين من قبل المثقفين الذين يستمرون متميزين في الفن والسياسة والإدارة.

بالطبع بعض المثقفين يكتشفون العقائد المتصدعة التي تبرر هيمنة الجماعين على وسائل الإنتاج، لكن احتجاجاتهم الضعيفة تغرق في محيط الشعارات التي يرفعها مجموع المثقفين الآخرين. في المرحلة الأولى من عصر الجماعين بعض المشاعر الإنسانية لا زالت مؤثرة في الأغنياء، وجماهير الناس يتنفسون الصعداء بقدر ما تنحل قبضة المثقفين القاسية، لكن في المراحل التالية تختفي المشاعر الطيبة من نفوس الأغنياء كما تختفي سحابة الندى.

الدعارة التي ولدت خلال عصر المثقفين تعرف خلال عصر الجماعين ازدهاراً ملحوظاً، أولئك الذين يملكون النقود يمكنهم

غواية النساء الغارقات في البؤس، وحالما تتخلى الطبقة الحاكمة عن وازعها الأخلاقي فإن الطبقات الأخرى تتبع خطاها. بالنتيجة تسري عدوى الفساد الأخلاقي في كل المجتمع، هذا ليس بسبب فحش الأغنياء فقط بل أيضاً بسبب ضعف الروابط العائلية وموجة الفردية المبالغ فيها والغياب العام للانضباط الاجتماعي الناتج ضرورة عن بنية سياسية لا مركزية.

لقد أشرت إلى أن عقلية الجماعين تنتهي بأن تعدي عقلية الآخرين وأولهم المثقفين الذين سريعاً ما يتبنون فن الاستحواذ يمكن أن نسمي هؤلاء جماعين زائفين. الجماع الزائف هو في الجوهر مثقف والذي عقليته الاستحواذية اكتسبها من اتصال طويل مع الجماع الحقيقي وهو الذي ولد بثروة ضخمة وغريزة استحواذية.

الجماع الزائف هو إذن مثقف، والذي وإن ولد فقيراً فإنه يصير غنياً بفضل استخدام ذكاءه المتفوق في الحصول على الثروة، بينما الجماع الحقيقي هو الذي يرث ثروة ضخمة وكذلك غريزة الاستحواذ عند آبائه.

هذان النمطان من الجماعين يحصلان على دخول مهمة بفضل هيمنتهما على وسائل الانتاج، لكن الجماع الزائف يحصل أيضاً على النقود مقابل مهنته المعتمدة على ذكاء متفوق، مثلاً: في زمن الاقطاع في أوروبا كان السادة أباً عن جد جماعين حقيقيين، أماالملاك الدينيين فقد كانوا جماعين زائفين. نفس الشيء اليوم:

الرأسماليون هم جماعين حقيقيين بينما أولئك الذين يحصلون على الثروة سواء بفضل أدمغتهم أو بتراكم الثروة هم جماعين زائفين.

بالرغم من أن هذا التمييز يبدو قليل الأهمية إلا أنه مهم في تحديد ما إذا كان عصر الجماعين في مرحلته الصاعدة أم الهابطة. في الواقع عندما يصل نهايته فإن الجهاز السياسي، ولهذا السبب كل المجتمع يصير تحت نفوذ الجماعين الزائفين. حينئذ محرك الاستغلال يدور بأقصى سرعته. الجماعون الزائفون يدمجون نفاقهم الثقافي مع الشراهة المفرطة التي تسم عقلية الجماعين. هكذا تحت سيطرتهم، وأكاذيبهم ينحرف عصر الجماعين تدريجياً نحو وباء عصر الشغيلة. وفي النهاية، كما عرضنا ذلك في الفصل السابق، تزداد الأمور سوءاً حتى أن بعض المقاتلين والمثقفين الساخطين يتمردون ويساهمون بذلك في وضع حد لعصر الجماعين، أو بدقة أكثر نهاية لعصر الجماعين ـ الشغيلة. بعد ذلك بقليل المقاتلون المتمردون يسيطرون وتتقدم الحضارة من جديد في طريق الدورة الاجتماعية.

في كل عصر من المعتاد أن يتراءى شبح العصر القادم، عدد من «الانبياء» يولدون، مثلاً خلال حقب المقاتلين، لكن رسالتهم النبيلة تسقط بالتالي في أيدي المشعوذين، والتي تفسيراتها الجديدة تقود إلى ولادة عصر المثقفين. نفس الحال في عصر الجماعين، فإن طبقة مقاتلين تتكون وقتاً طويلاً قبل الموت الحقيقي لهذا العصر، لكن الجماعين يستمرون متحصنين في قمة الهرم الاجتماعي. خاصة

في نهاية هذا العصر تبدأ النساء في فرض أنفسهن، وهي علامة طيبة وطليعية لتحسن شروط المرأة خلال العصر الذي بدأ يعلن عن نفسه.

مراجع

1 ـ م. بورن ـ ب.ل. رالف: **حضارة العالم** ـ نيويورك ـ نورتون سنة 1974.

2 ـ بول لاكروا : **تاريخ الدعارة** ـ نيويورك جوفيش فريد سنة 1931.

3 ـ ب.ر. ساركار: **المجتمع الإنساني** ج2 ـ ونفير ـ أماندا مرقا سنة 1967.

4 ـ الحضارة الغربية

من بين كل الحضارات الحية الحضارة الغربية هي الأكثر انتشاراً اليوم في العالم. وهي كذلك منذ قرنين من الزمان، لقد اعتاد البعض القول أن الشمس لن تغرب أبداً في الغرب، شمس الإمبراطورية الغربية اليوم واسعة الامتداد وغير الممكن المساس بها فيما سبق لم تعد تسطع، بالرغم من أن هباتها الثقافية اللغوية والمؤسساتية لمستعمراتها السابقة لا زالت حية وفعالة. بعض الدارسين يبدأون دراستهم للغرب ابتداء من العصر الروماني ـ الإغريقي، آخرون يرجعون حتى مرحلة مينوين في جزيرة كريت أو إلى العصر النيوليتي في أوروبا، بالنسبة لي سوف أخذ العصر الأول بعد الميلاد نقطة انطلاق معقولة.

الإمبراطورية الرومانية وعصر المقاتلين النمور:

الحضارة الغربية بالنسبة لي تعني ذلك النظام الاجتماعي الذي ورث قوانينه وثقافته وتقاليده جزئياً من المجتمع الروماني وفي

الغالب من الأخلاق والدين اليهودي والمسيحي، وكذلك من مجموع الفلسفة والمجتمع السياسي الذي تطور أولاً في أوروبا الغربية ثم انتقل إلى القارة الأمريكية الشمالية، ويشمل ذلك الأديولوجيا الرأسمالية، وبالتالي يستبعد الاتحاد السوڤيتي مع أن روسيا كانت ولوقت طويل قوة أوروبية ويستبعد القارات الأخرى أيضاً باستثناء استراليا، مع أن الحضارة الغربية أثرت فيها عدة مئات من السنين.

في فجر الأول لعصرنا كان المجتمع الغربي منظماً في الدولة الرومانية الإمبراطور أغسطس يسيطر بحزم على الفئة العسكرية وعلى الأقاليم الواسعة في أوروبا. في أوروبا إرادته تثقل كاهل الأمم الأوروبية الحديثة: في أسبانيا، فرنسا، إيطاليا، واليونان. بريطانيا لم تكن قد دخلت بعد في مدار الإمبراطورية الرومانية، ولكن لم يمر وقت طويل حتى أجبرتها القوة العسكرية الرومانية على اللحاق بتلك المجموعة الهائلة من الأمم الواقعة تحت الهيمنة الرومانية. ألمانيا وحدها وبعض أقطار شمال شرق أوروبا تملصت من هذه الهيمنة، الله يعلم كيف حدث هذا. الهيمنة الرومانية، والتي لم تشمل، في بعض الحقب، أوروبا الغربية فقط، وإنما أيضاً عدة أقاليم من آسيا الغربية وشمال أفريقيا وبالتالي فإن قبائل الغزاة جاءت من نفس المناطق الأوروبية غير المحتلة لتنقض كأسماك القرش على الدولة الرومانية المنهارة وانتهت بأن قضت عليها.

يمكن أن نلاحظ بسهولة أن عصر المقاتلين قد بدأ يظهر في

الحضارة الغربية، أنه عصر الحكم المطلق، الطغيان تحت قناع دستوري، وتقاليد الفتح التي تأسست في روما منذ وقت طويل استمرت وبقسوة.

لكن الفتح والغزو شيء والحكم شيء آخر. ما قيل ذلك الحكومة الجمهورية في الدولة ـ مدنية الرومانية انتهت بالفشل وأدت إلى الغوغائية والحرب الأهلية والخراب الاقتصادي والفساد الأخلاقي عند الأفراد. أنها شروط تذكر بثورة الشغيلة التي تلي عصر الجماعين، في هذا الإطار يجب النظر إلى استيلاء أغسطس على السلطان عام 31 ق.م. المواطنون الرومان وكذلك المواطنون غير الرومان أنهكتهم سنوات الغوغائية قبلوا بأغسطس على أنه منقذ للدولة. أغسطس يقيم سلطانه على جيش منتصر ويحرص على تفادي كل مواجهة لا جدوى منها مع المشاعر الجمهورية، فلم يلغ لا المؤسسات القديمة ولا القوانين. باعتبار أغسطس قائد الجيش والبحرية فإنه يمارس سيطرة مطلقة على كل الشؤون سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو مالية.

أغسطس كان قائداً ذكياً ومتسامحاً. عهده يقدم مثل آخر عن الطريقة التي بها ـ في بداية عصر المقاتلين وتحت قيادة زعيم مقاتل ـ يتقدم المجتمع إلى الأمام بروح جديدة ويبلغ ذرى حتى ذلك الحين لم يكن ممكناً بلوغها. إحدى هبات أغسطس إلى المجتمع الغربي تتمثل في القانون الروماني والذي كثير من مبادئة لا زالت حية حتى اليوم. القانون الروماني يؤكد ـ من بين أمور

أخرى ـ أن كل الناس متساوون بالطبيعة، وأن لهم الحق في حريات أساسية معينة والتي لا يجوز لأي حكومة انتهاكها، وأن المتهم بريء إلى أن يثبت العكس. بالتأكيد حكم أغسطس لم يكن وحده وراء هذا المفهوم القانوني والذي تطور خلال أكثر من 400 عام ولكن في عهده الإنسانية والمزيد من العدالة حققتا انتشاراً.

مات أغسطس عام 14 بعد الميلاد. قليل من خلفائه وصل مستوى حذقه واهتمامه بالمؤسسات الجمهورية. عهود الخلفاء اتصفت بالطغيان والعنف. ومنذ النصف الثاني من القرن الأول حصل الجيش على سلطات واسعة وصار يتدخل في مسألة تعيين الحكام اللاحقين. بالنتيجة عدد من الحكام كانوا دكتاتوريين عسكريين. رغم هذا فإن السلام والازدهار الذين لا سابق لهما سادا الإمبراطورية الرومانية خلال أكثر من 200 عام. أبداً في تاريخ أوروبا وربما في تاريخ البلدان الأخرى لم يعرف الناس عهداً من الهدوء، وهذا لا بد وإن تنتج عنه إيجابيات.

الدولة والأقاليم التي تمثل أجزاء الدولة لم تعرف أبداً مثل هذا الازدهار مما يؤكد، أن في المرحلة الأولى من عصر المقاتلين، إنجازات الحضارة تكون أرقى مما تم تحقيقه فيما سبق. إن الفضل يرجع جزئياً في هذه الانجازات إلى التسامح الفطري لأول قائد أوقادة مقاتلين.

هذا لا يعني، خلال هذه الفترة، أن المجتمع الروماني كان

بدون عيوب، ألعاب السيرك الدامية، التي تمارس في روما لم تكن نموذجاً حسناً للإنسانية. استعراضات المصارعين كانت إرثاً رومانياً من ماضيها الجمهوري، لكن وحشيتها في ظل الإمبراطورية تجاوزت كل الحدود. العدوانية الفطرية وروح المغامرة عند المقاتل ـ النمر ـ تستوجب أن يعبر عنها بواسطة أنشطة اصطناعية، وبما أن الأنشطة الحربية تدنت خلال القرنين الأولين، فإن العقلية القتالية استوجبت البحث عن مخرج آخر، أو متنفس آخر غير الحرب.

ما هو وضع المرأة في المجتمع الروماني؟

معظم الباحثين الذين اهتموا بدراسة شروط المرأة في المجتمع الروماني يرون أن المرأة ما قبل الإمبراطورية كانت خاضعة تماماً للرجل. الرومان أدركوا مدى الهيمنة الواقعة على المرأة، مما أدى وبشكل تدريجي في بضعة مئات من السنين، إلى أن معظم المحرمات المفروضة على النساء وعلى حقوقهن وحريتهن، إن لم يكن كلها، قد ألغيت. وفقاً لرأي دونالدسون «في الفترة التي فيها فجر المسيحية بدأ يطل على العالم فإن النساء حصلن على الكثير من حقوقهن وحريتهن ونفوذهن في الإمبراطورية الرومانية. التقاليد كانت في صالح تحديد الحريات، لكن لعدة ظروف تحررت النساء من قيود العبودية التي كانت تفرضها مؤسسات قانونية عتيقة، وتمتعن بعلاقات حرة جهاراً في المجتمع، إنهن يمشين ويقدن على الطرق العامة مرتديات حجاب لا يخفي وجوههن، ويتناولن الطعام مع

الرجال ويدرسن الأدب والفلسفة، ويشاركن في تظاهرات سياسية وصرح لهن بالدفاع عن قضيتهن أمام العدالة إذا رغبن في ذلك، كما يساعدن أزواجهن في حكم الأقاليم وفي تأليف الكتب.

يبدو في عهد الإمبراطورية الرومانية المقاتلة أن وضع المرأة كان مساوياً إن لم يتجاوز ـ في بعض النواحي ـ وضع المرأة الحديثة في بلدان أوروبا وأمريكا المهم أن النساء في الإمبراطورية الرومانية المقاتلة حصلن على قدر كبير من حرياتهم القانونية والاجتماعية التي حرمن منها قبل ذلك، أو التي ـ كما سنرى ـ يحرمن منها مجدداً فيما بعد.

بعد موت أغسطس عام 14م، شكل الحكومة الجمهورية عرف تدنياً تدريجياً وبشكل منتظم، فعند مجيء ديوكليتيان عام 284م لم يعد هناك مواطنون رومان وإنما مجرد رعايا خاضعين لسلطة ديوكليتيان المقدسة.

مجيء ديوكليتيان يرسم خطاً فاصلاً في تاريخ الإمبراطورية، ويمثل حداً، في مثل أهمية الانتقال من الجمهورية إلى الإمبراطورية تقريباً. السبب الرئيسي في هذا التغيير يكمن في تدني طويل الأمد في المجال الاقتصادي والذي بدأ منذ القرن الثالث. فاقدين الثقة في أنفسهم فإن الأفراد كانوا مستعدين للتخلي عن كل حرياتهم وحقوقهم مقابل أمل وهمي في السلام والأمن. إن الفترة التي شهدت عهد ديوكليتيان وخلفائه تسمى اتفاقاً: الإمبراطورية الدنيا.

أعراض الانهيار الأولى ظهرت في القرن الثالث، رجال الطبقات الخاضعة التحقوا بالجيش وصاروا يشاركون مباشرة في تقرير مصير البلاد ـ إن كان أمامها مصير ـ الجيش ينهب المدن ويخرب الأقاليم، وينشر وراءه الخراب وأمامه الذعر في قلب المجتمع. قانون القوة الغاشمة يخرب العالم الروماني.

في هذه الحالة الغوغائية جاء ديوكليتيان إلى السلطان. الإجراء الذي قام به من أجل تأكيد الدولة تمثل في الاستحواذ على كامل السلطان لصالحه، والإجراء الثاني كان إدخال المركزية في الجهاز الإداري وجعله تحت رقابته المباشرة. ولكي يمكن تطبيق مثل هذا النظام في إمبراطورية بهذا الاتساع سلم إدارة النصف الغربي من الدولة لجنرال اسمه ماكسيميان والذي كان موضع ثقته. هذا التقسيم الذي جرى لأسباب إدارية عابرة كانت له نتائج هامة في التطور المقبل للإمبراطورية، لقد زاد اتساع الهوة التي تفصل، منذ بعض الوقت، أفكار الغرب اللاتيني عن الشرق الإغريقي، ماكسميان تقاسم مع ديوكليتيان لقب إمبراطور. هكذا زرعت الجرثومة التي أدت بعد ذلك إلى عدة حروب بسبب الاستخلاف على الحكم خلفاء ديوكليتيان استمروا في الحكم كطغاة.

نظام الحكومة الذي أقامه ديوكليتيان استمر ـ مع تعديلات طفيفة ـ حتى سقوط الجزء الغربي من الإمبراطورية. وفي عام 476، رومولوس أوغستالوس، آخر أباطرة الغرب، أطاح به زعيم بربري والذي استولى على الحكم. إلى هذا الحدث يعزوا بعض الباحثين

نهاية هيمنة روما، في الحقيقة لم يكن إلا حلقة في سلسلة انهيار روماني طويل الأمد.

إذا كان يجب تحديد المسؤول عن انهيار الإمبراطورية الرومانية فإن الروح العسكرية هي المسؤولة. ضمنياً كل هذه الأزمات إفراز اتجاهات مقاتلة مفرطة العدوانية. منذ عام 68 م صار الجيش مسيطراً على المجتمع. وبعد القرن الثاني فإن كل ما نتج عن هذه السيطرة تمثل في اللانظام. هذه الروح العسكرية هي التي كانت وراء قيام مثل هذه الإمبراطورية الشاسعة، والتي صارت في النهاية أثقل وأصعب من أن تدار

الكنيسة المسيحية وعصر المثقفين ـ الثعالب :

المرحلة المقدرة بألف سنة والتي تغطي الفترة ما بين سقوط روما في القرن الخامس الميلادي وبداية الزمن الحديث المرتبط بالاكتشافات الكبرى في القرن الخامس عشر، هي ما تسمى عادة العصور الوسطى، هذه العصور تشير إلى عصور مظلمة وإلى عصور هيمنة الخرافات والعماء الثقافي، عصور فيها الكائنات البشرية تعيش في القذارة والبؤس وفي الخوف المستمر من الهلاك بعد الموت.

بعض المؤرخين يعتقدون أن حكماً بهذه العمومية على هذه العصور غير صحيح بقدر ما هو مغلوط. مع ذلك يظل صحيحاً أن العصور الوسطى خاصة نصفها الأول كان غوغائياً ومتخلفاً بمقارنته ـ على الأقل ـ سواء بالعصر الذي سبقه أو مع العصر الذي تلاه.

خلال كل العصور الوسطى كان نفوذ الدين سائداً: الكنيسة الكاثوليكية كانت الرباط الوحيد الذي يجمع ما بين الأمم الأوروبية المشتتة. إننا اليوم، وقد شكلت أفكارنا البيئة الحديثة، يصعب علينا إدراك الدور الذي لعبته الكنيسة في مسائل الحياة اليومية، سواء كانت سياسية أو دينية، أو اجتماعية أو اقتصادية. من وجهة نطر تومبسون كنيسة العصور الوسطى تختلف كثيراً عن كنائس العصر الحديث سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية، إن كنائس العصور الوسطى تمارس في كل مكان ليس فقط سلطة روحية وإنما أيضاً نفوذاً سياسياً وإدارياً واقتصاديا واجتماعياً. وتشريعاتها تمتد لتشمل كل الممالك المسيحية، لم تكن دولة داخل دولة بل كانت دولة عليا.

لماذا كان تأثير الكنيسة في العصور الوسطى طاغياً وقوياً إلى هذا الحد؟

لمعرفة الجواب يتوجب علينا الرجوع إلى زمن سابق لندرس تطور الدين في عهد الإمبراطورية الرومانية.

المجتمع الروماني لم يكن مشهوراً بشكل خاص بمساهمات دينية، كانت له آلهته الوثنية، وكان له معبده وإمبراطوره الذي كان أيضاً موضع عبادة، لكن لم يكن عنده أي عمق روحي، لا شيء مما يمكن أن يروي ظمأ القلب، لا شيء مما يمكن أن يجيب على الغاز الحياة فيما وراء ـ الآخرة ـ. خاصة خلال المرحلة الغوغائية في

العصر الثالث، الرجال والنساء، وقد عانوا الكوارث وعرفوا اللاأمان الدائم في الحياة الأرضية، صاروا يهتمون أكثر فأكثر بإمكانية الحياة ما بعد الموت، وبمسائل الجنة والجحيم.

عندئذ أديان جديدة قادمة من الشرق، من بينها المسيحية، أخذت آنذاك في الانتشار، العبادات الجديدة تشترك جميعها في أنها تقدم الغفران عن الخطيئة وخلود الروح.

لكن المسيحية تختلف عن الأديان الوثنية الجديدة من نواحي عدة: الاختلاف الأول، وليس أقل الاختلافات، كان يتمثل في أن العبادات الأخرى تتمحور حول أشخاص خياليين وحول أساطير، المسيحية تجد إلهامها في شخص تاريخي: عيسى الناصري. والذي مارس عملياً ما يعظ به والذي فضل الصلب على التخلي عن مبادئه(*) والاختلاف الثاني أن المسيحية تدعو إلى الوحدانية في مقابل التعددية التي تدعو لها الأديان الأخرى، وأخيراً في بداية الإمبراطورية لم يكن في المسيحية إلا القليل من الطقوس تطلبها من أتباعها، بينما الأديان المنافسة الأخرى تتطلب كثرة من الطقوس والمراسم.

بالنسبة للمواطنين الرومان الطقوس التي تقدمها الوثنيات الجديدة كانت أكثر جاذبية من دين المسيح المتقشف، لهذا السبب، ولأن المسيحية بدأت بمعارضة الدولة، فإن الديانات الوثنية الشرقية

(*) حسب رأي المسيحيين. المعرب.

وجدت قبولاً إرادياً من الرومان منذ نشأتها تقريباً كانت المسيحية مضطهدة من قبل الحكومة التي تزعجها التعاليم الإنفصالية لهذه الديانة والتي تعيق عبادة الإمبراطور. أنصار المسيحية يخاطرون بمواجهة أقسى العقوبات: الموت.

لذلك انتشار المسيحية تباطأ لكنه لم يتوقف، واجهتها عقبات لكنها لم تقض عليها، صعودها كان خصوصاً بفضل التفكك العام للروابط الاجتماعية في نهاية القرن الثاني تقريباً.

ديوكليتيان كان أحد آخر الأباطرة الذين حاولوا تحطيم العقيدة المسيحية، لكن جهوده وجهود من سبقه تبينت فاشلة. في نهاية القرن الرابع كان المسيحيون لا يزالون قلة لكن دينهم وصل إلى أعتاب السلطان.

هذا هو التاريخ المثير للمسيحية حسب تعبير ساركار. حركتها كانت بفضل الحياة السامية للمسيح الذي أعطاها إلهاماً قوياً، والصلب منحها دفعة أخرى.

تعاليم المسيح المنطلقة بقوة لم يكن لها إلا الانتشار، وخلال عدة سنوات أخذت المسيحية تنتشر ببطء ولكن بشكل أكيد، حتى عام 111 حيث منعت من قبل حكومة روما. هكذا ولدت حركة المسيحية عندما بدأ المسيح يذيع تعاليمه، أي أنها دخلت مرحلة الانقباض والتي استمرت ـ مع بعض التأرجحات ـ حتى اعتناقها من قبل الإمبراطور الروماني. عندئذ بدأ الاضطهاد وفي نفس الوقت

دخلت مرحلة التحدد والتي استمرت مع بعض التأرجحات أيضاً مدة تزيد عن 200 عام. إن أي ديانة أخرى كان يمكن أن يقضي عليها القمع الرسمي، أي ديانة أخرى كان يمكن أن يحطمها ثقل الضغط الروماني لكن ليس المسيحية، والتي استمرت شعلتها تضيء وسط العواصف. وفق ساركار إذا حركة نسبية لم يقض عليها خلال مرحلتها التقلصية، وإذا استمرت في الحياة، فإن هذه الحركة تستعيد قوتها وأحياناً بحركية أكبر، وحينئذ من الممكن أنها تدرك القمة. وهذا ما حصل للمسيحية التي عاشت بعد قرنين من الاضطهاد الحكومي، وعندما استعادت أنفاسها فعلت ذلك بقوة وتوصلت إلى أن تكون ديناً رسمياً للدولة الرومانية.

إن تغلب دين ما لا يعني بالضرورة أن أعضائه المثقفين قد بدأوا يحكمون، أنه يعني فقط أنه في مجال السياسة الدينية عقيدة معينة انتهت بأن تفوقت على غيرها. وهذا لا يتضمن أبداً بداية عصر المثقفين والذي فيه هؤلاء بفضل العقل المتفوق يسيطرون على القادة المحاربين.

عندما اعترف تيودوس بالمسيحية ديناً للدولة كان انتصارها على الأديان الأخرى كاملاً. لكن كانت بعيدة عن تحقيق السيطرة على الإمبراطور. مع ذلك الزمن يلعب لصالح المثقفين الثعالب، لأن عصر المقاتلين النمور الذي يسم الدولة الرومانية آنذاك، قد بدأ الانهيار منذ وقت طويل.

نهاية القرن الخامس تشهد التفكك التام للامبراطورية موجات متتالية من برابرة الشمال بدأوا الاستقرار على أطراف الإمبراطورية، وينتهي القرن الخامس بانهيارها التام. مكانها قامت ممالك بربرية: الغوط في إيطاليا، الوندال في أفريقيا الشمالية، الانقلوساكسون في بريطانيا، الويزقوط في أسبانيا البورقوند والفرانك في فرنسا.

هذه الفترة شهدت اضطرابات عظيمة، القرن الخامس كان عصر هيمنة البرابرة مع ما رافقهم من دماء وسلب ومجاعات. مع ذلك خرجت الكنيسة من هذا الدمار وقد اكتسبت تأثيراً ونصراً متعاظماً: في هذا الزمن المضطرب ترسخ الدين المسيحي بقوة في الأمم الأوروبية: الكنيسة نجحت لأنها تقدم دعماً وراحة الناس في أمس الحاجة إليهما.

وفقاً لقانون الدورة الاجتماعية، الكنيسة التي يسيطر عليها المثقفون ورثت بكل الطرق سلطان إمبراطورية المقاتلين المنهارة. بدون الكنيسة الكاثوليكية كان مصير المجتمع الغربي آنذاك الموت أمام هجمات القبائل الغازية. هكذا ولد عصر المثقفين في الغرب.

القوة المحركة التي أتاحت الحياة والانتصار النهائي للمسيحية ربما جاءت من تنظيمها الفعال والمنسجم والذي كان في البداية بسيطاً: كان هناك كنائس في عدة مجتمعات، كل منها يضم عدد من القدماء ومن القساوسة والذين مهمتهم الأساسية رئاسة التجمعات والخدمات الدينية. مع الزمن شعرت الكنيسة بالحاجة إلى وضع

طقوسها الخاصة. هذه الطقوس تطورت بشكل استلزم قساوسة متفرغين لا يمكن للاتباع الاستغناء عنهم.

هكذا تأسس النظام الكنسي الذي غذاه بعد ذلك الاضطهاد الرسمي. في نهاية القرن الثالث، جماعات مسيحية على رأس كل منها قسيس تأسست في كل مدن الإمبراطورية تقريباً.

لكن الهرمية الكنسية لم تظهر إلا بعد أن صارت المسيحية الدين الرسمي لروما. القساوسة في المدن الكبرى سيطروا على أولئك الذين في المجتمعات الصغيرة، وكنائس العواصم صار لها تقدير وامتياز ليس له نظير.

كل هذه التطورات قادت إلى هيمنة قسيس روما الذي مع الوقت حصل وانفرد بلقب البابا، مع أن هذا اللقب كان في البداية يطلق عل كل القساوسة. الكنيسة الرومانية الكاثوليكية صارت الكنيسة الأم، لأن المسيحيين يقدسون مدينة روما باعتبارها مكان مقدس زاره الحواريان بيير وبول، كما اعتبر قسيس روما أيضاً وريثاً لسلطة أوغوست الإمبراطورية

في إمبراطورية الشرق ظلت الكنيسة تحت سيطرة الإمبراطور، على العكس في الغرب غزوات البرابرة المتتالية دمرت سلطان الإمبراطور والذي ظهرت الكنيسة الرومانية على أنها وريثه الطبيعي. القساوسة تحت سلطة البابا صاروا يتولون وظائف وسلطات مهمة، سلطات كانت ترجع فيما مضى إلى الإمبراطور وإدارته.

هكذا ولد عصر المثقفين في الغرب في منتصف القرن الخامس، في هذا الزمن المضطرب، لم تكن الكنيسة ديناً رسمياً فقط ولكن رؤساءها أيضاً اكتسبوا سلطاناً سياسياً وهيمنة على الإدارة. هذه الهيمنة كانت لها نتائج مهمة بضعة سنوات بعد ذلك، إذ إن البرابرة أنفسهم انتهوا باعتناق المسيحية خلال القرون الثلاث التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية جرى توحيد الممالك البربرية بالقوة من قبل بعض ملوك الفرانك، بينما الإمبراطورية «المحمدية»(*) تبتلع جزءاً كبيراً من اسبانيا.

في هذا الجزء من تاريخ أوروبا الغربية، والذي يشمل أربعة قرون، من القرن الخامس إلى القرن الثامن، ثلاث وقائع واضحة:

أولاً: بالنسبة للإمبراطورية الرومانية صارت السلطة السياسية لا مركزية، بعض الملوك كانوا قادة أقوياء، وآخرون كانوا ضعافاً، البعض يتمتع بسلطة مطلقة والبعض الآخر مجرد صورة، ولكن في أغلب الأحوال النبلاء الذين يتكونون من رجال الدين والكونتات والدوقات هم الذين يصرفون الأمور الإدارية اليومية. في القرن السادس والسابع صارت الحكومة بين أيدي مدراء القصر الذين يحكمون باسم الملك. هذه أمثلة عن سلطة لا مركزية وحكومة غير مباشرة تمارسها الكنيسة والطبقة الارستقراطية.

ثانياً: كان الملك نظرياً الحاكم المطلق، سلطته على رعاياه لا

(*) يقصد الكاتب الفتوحات الإسلامية. المترجم.

تناقش. من نواحي معينة يتجاوز سلطان الملك السياسي حتى قوة الأمبراطور الروماني، لقد كانت المملكة ملكية له وفق الحق الوراثي وليس لأن الشعب فوضه بسلطة سيادية. شكل الحكومة كان عندئذ مشابهاً لعصر المقاتلين، ولكن الواقع كان شيئاً آخر. طغيان الملك كان نظرياً وليس عملياً. وهذه سمة عصر المثقفين حيث القائد الظاهر يخضع لموظفيه الكبار.

ثالثاً وأخيراً: تأثير ونفوذ المثقفين الممثلين في الباب والهرمية البابوية وقساوسة ورجال الكنيسة صار عندئذ أمراً واقعاً، الدين كان العامل الوحيد المشترك الذي يوحد الثقافات المختلفة والمتنوعة التي توجد في الأراضي الواسعة لأوروبا الغربية.

أيضاً السلطة ذات الأهمية التي يمارسها رجال الدين تتمتع باحترام الناس وتستفيد من ثرواتهم. إذا كان الملوك الفرانك أنفسهم هم المانحين الرئيسيين فإن هبات الأغنياء المدنيين تؤخذ أيضاً في الاعتبار. كل هذا كانت الكنيسة تشجعه بأسلوب في أساسه ثقافي وبواسطة الاستخدام الواعي للثقافي وفقاً للتعبير الصريح الذي يقدمه تومبسون «أعط سوف تأخذ» كان تعبيراً في مرتبة الشرف، رجال الدين الفرانك يستثمرون جيداً التقديس المفرط الذي يحظى به القديسون عند العامة. ظاهرة ملحوظة في القرن السادس والسابع والتي كان هدفها مضاعفة ثروة الكنيسة. إنه القديس الذي في بعض الأحيان لا يحظى إلا باحترام محلي والذي صار المالك الحقيقي. ذلك لأن أفكار الحقبة كانت شخصانية وتملكية تقتضي أن الكنيسة

غير القابلة للرؤية يكون لها تعبيراً وتجسيد شخصاني حتى لو كان رئيسها شخصاً لا مرئياً، النظر إلى القديسين باعتبارهم آباء وأمهات روحيين صار عاماً، ذلك لأن القديسين يتدخلون في السماء لصالح أتباعهم».

بمعنى آخر تستخدم الكنيسة تأثيرها الروحي الواسع للحصول على النفوذ والثروة. لو لم يعتنق الملوك المسيحية ما كان للكنيسة التمتع بهذا النفوذ وهذه الهيمنة على المجتمع. هذا أيضاً مثال آخر عن التأثير غير المباشر الذي مارسه المثقفون على المجتمع بواسطة هيمنتهم على القادة الظاهرين.

لقد تحولت الكنيسة شيئاً فشيئاً إلى تنظيم معقد والتي سريعاً ما صارت تجسيداً للفساد الأخلاقي كما التنظيم، تجسيداً للكسل والشعوذة، للرفاهية والشظف.

خلال الثلاث قرون الأولى، كانت تعاليم المسيح تشكل حقاً جزءاً من المسيحية، المسيحية التي استمرت تستلهم القديسين الأوائل في الكنيسة، مع ذلك وبمرور الزمن، وخاصة عندما اعترف بالمسيحية ديناً للإمبراطورية، سقطت الكنيسة أمام إغراءات الرفاهية والكماليات، لم تعد منذئذ ملجأ للفقراء وللطبقة الوسطى والعبيد والعمال البسطاء. لكي تحصل على الثروات والمكانة الاجتماعية فإنها أفسدت الأخلاق وأناطت مبادئها بالمسائل السياسية والدنيوية: رجال الكنيسة وقديسيها صاروا أكثر انشغالاً بامتيازاتهم من انشغالهم بالأفكار السامية. وبدلاً

من أن المجتمع يستند إلى الكنيسة ليحصل منها على الراحة المعنوية فإن الكنيسة تحولت إلى طفيلي على المجتمع.

هكذا الفساد الأخلاقي في الكنيسة وميلها إلى الرفاهية كان ظاهراً منذ فجر العصر الميرفينجي. المسيحيون المخلصون روحياً أدركوا هذه الأورام التي تتطور في جسد الكنيسة. لكن لم يفعل شيء، الأورام صارت سرطانية عندما تم تعميد الملوك الفرانك، وعندما اعتنق الشعب الجرماني المسيحية، وعندما انغمس الملوك الفرانك في الفسق والرفاهية وعندما مدراء القصر هيمنوا على القصر. في هذه الحقبة بواسطة البابا ورجال الدين حكم المثقفون المجتمع مباشرة في شؤونه الدينية والاجتماعية وبشكل غير مباشر شؤونه السياسية، إلا أنهم في المستوى الإداري كان عليهم تقاسم الغنيمة مع مدراء القصر.

البابا ورجال الدين هل يحكمون بفضل منجزاتهم الفيزيقية؟ هل يهيمنون على النظام الاجتماعي بفضل رجولتهم؟ بفضل تسامحهم أو روحهم المغامرة؟

لا شيء من هذا. إنهم يحكمون بسبب تفوقهم الثقافي على الملك المقاتل، يحكمون لأنهم يعرفون القراءة والكتابة ويفسرون الكتاب بينما لا يستطيع غيرهم ذلك. يحكمون بواسطة تغذية المخاوف والأفكار المسبقة عند الناس الأميين. سلطانهم يقوم على قدراتهم الثقافية أكثر مما يقوم على تسامحهم أو قوتهم العضلية.

أفضل دليل على هيمنة الكنيسة يقدمه الاحتكار شبه التام للتعليم الذي يقدم آنذاك. في الإمبراطورية الرومانية كانت المدارس تحت رقابة الدولة، وعندما انهارت الإمبراطورية فإن هذا النظام التعليمي تلاشى باطراد فتدخلت الكنيسة لملأ الفراغ. في بداية العصر الوسيط كانت الأديرة هي مراكز التعليم، وهذه كانت مغلقة الأبواب في وجه جماهير الناس، لهذا كان معظم أعضاء الجماعات الأخرى من غير المثقفين أميين. وحتى في الأديرة كان التعليم يتجه إلى الحط من أهمية العالم والتاريخ وخصوصاً الحط من أهمية روح البحث، التركيز والاهتمام كان ينصب على اللاهوت. وإن كان يدرس فيها المنطق إلا أن اللاهوت كان يحكم عليه بدون هوادة. لم يقدم أي تأهيل تقني جدير بهذا الاسم، ليس من المستغرب إذن أن بداية العصر الوسيط عانت من إفلاس ثقافي وانكماش اقتصادي وقليل جداً من المنافسة من قبل مؤسسات التعليم الأخرى التي تعمل وفق منهج وضعته الكنيسة بحذر شديد ولهدف محدد: إحباط التفكير المستقل والبحث العلمي. مجموع الانجازات الثقافية ما كان لها عندئذ إلا أن تكون متواضعة جداً.

نهاية العصر الوسيط شهدت قطيعة في احتكار الكنيسة للتعليم وبرهنت على أن مخاوف الكنيسة كانت ذات أساس. وبقدر ما تظهر مراكز تعليمية أخرى فإن عدة انقسامات تتطور في المسيحية. هذه الانقسامات ساعدت على إضعاف سلطان البابوية على المجتمع دون إضعاف الدين.

القرون الثلاث التي تبعت سقوط الامبراطورية الرومانية تنتمي إلى عصر المثقفين وإلى الكنيسة الكاثوليكية. ثمة لا مركزية سياسية، شكل، إن لم يكن جوهر الحكومة المطلقة في الحقبة الرومانية، لا زال قائماً. لكن هذا الحكم المطلق كان يمارس بشكل غير مباشر من قبل آخرين: البابا، رجال الدين، مدراء القصر.

وفق ساركار، في عصر المثقفين يكون وضع المرأة أدنى مما كانت تتمتع به سابقاً في عصر المقاتلين. في فجر المسيحية كانت المرأة محترمة ذات حقوق مساوية وتشارك في الشؤون المدنية. أما النظرة الرومانية للمرأة فقد كانت قريبة من النظرة الغربية الحديثة إليها. لكن ما بين العالم الغربي اليوم والإمبراطورية الرومانية يفصل أكثر من أربعة عشر قرناً، والتي خلالها لم تعامل المرأة، في مراحل معينة، أفضل مما يعامل الأرقاء. لا ينظر إليها فقط على أنها أدنى من الرجل والذي عليها طاعته في كل الأحوال، بل أيضاً مسألة أن للمرأة روحاً كانت أحياناً محل شك(*) من ناحية يرفض حقها في المشاركة في الشؤون الدينية، ومن ناحية أخرى ينتظر منها أن تخضع لزوجها كما تخضع لله، وأن تهتم بأطفالها وأن تقوم بكل المهام المنزلية دون أدنى شكوى.

(*) لحل مشكلة ثواب المرأة وعقابها في الآخرة، ذهب بعض اللاهوتيين وتبعهم بعض الفلاسفة، تزلفاً إلى الكنيسة، إلى أن المرأة جسد بدون روح، وحيث أن الروح هي التي تبعث فتثاب أو تعاقب وحيث أن المرأة بدون روح، إذن لا تعاقب ولا تثاب. المعرب.

حالاً بعد ظهور المسيحية لم يحتفظ القديسون للمرأة إلا بدور قليل القيمة.

وقت الازدهار الأول للمسيحية عملت المرأة الكثير من أجل انتشارها مساهمتها لم تمر دون أن تلاحظ، القديس بول أثنى عليها بسبب ذلك. لكن حالما يتعلق الأمر بالعلاقة بين رجل وامرأة، زوج وزوجة فإن صوته يصير قاسياً: إنه يحث النساء على طاعة أزواجهن كطاعتهم لله، وإن يلتزمن الصمت التام في الكنيسة وأن يمتنعن عن حمل المجوهرات وارتداء الملابس الغالية.

آباء الكنيسة، القديسون، الذين قادوا المسيحية خلال عواصف القرون الأربعة الأولى كانوا متحدين في أقوالهم ضد المرأة.

لماذا قديسون، في ظروف أخرى وأمور أخرى متعاطفين، متواضعين متبحرين، يتبنون مواقف ضد المرأة ومناقضة للروح العقلانية؟ السبب في هذا الرهبنة والتي كانت وبالاً على المرأة في معظم الأديان. في الأديان التي تدعوا إلى الاتحاد مع الله بواسطة طهارة الروح، هناك من يتخلى عن كل شيء لكي يتذوق هذه اللذة. الرهبنة هي الإسم الذي يطلق على هذا التخلي وعلى هذه التضحية، الراهب يعتقد أنه للوصول إلى الاتحاد مع الله يجب عليه كبح غرائزه الطبيعية وحواسه. ومن بين كل الغرائز يكون الجنس الغريزة التي كبحها الأشد صعوبة. وأيضاً عندما يفشل الراهب في هذه المهمة الصعبة، وهذا ما يحدث عادة، فإنه يلقي بالمسؤولية على الإغراءات

التي تقدمها المرأة: جمال حواء اعتبر مسؤولاً عن سقوط آدم.

ببطء ولكن بشكل أكيد، شق موقف آباء الكنيسة طريقه إلى القانون العرفي وإلى العائلة والحياة الخاصة في المجتمع الغربي في العصر الوسيط خضوع المرأة للرجل كان شاملاً لدرجة أن بقايا هذه العادات والأعراف عاشت حتى أيامنا هذه، ففي بعض النواحي لا زالت تحدد السلوك الاجتماعي نحو المرأة في البلدان الغربية.

الفكرة الأولى التي حصلت على المصداقية في المجتمع كانت تقوم في أن العزوبية أفضل من الزواج، الزواج حرم على القساوسة وهذا يعكس الميل الرهباني عند آباء الكنيسة لكن هذا أوجد تمييزاً بين رجال الدين وعامة الناس الذين يتزوجون. ومنح آلياً شهادة بالرهبنة للقساوسة العزاب، هذه الشهادة، في تلك الحقبة، تفتح الأبواب لرفاهية نسبية.

الأفكار التي وفقاً لها الحاجة الجنسية بطبيعتها شر، وأن المرأة ليست إلا إغراء، وسمت المفهوم العام للحياة العائلية، وللزنى الذي كانت المرأة تعتبر المسؤولة الوحيدة عنه. وحيث أن الرجل لا يحمل فإن الرجل الزاني يمكن أن يخدع الناس، وعندما يضبط متورطاً يمكنه الحصول على الغفران عن نزوته وليس المرأة الزانية أو العاهر. والتي ينتهي الأمر حتماً إلى نبذها وقتاً طويلاً خارج المجتمع. هذا المعيار المزدوج أثر على عدة قوانين حول الاغتصاب والدعارة.

آباء الكنيسة لا يبيحون الجنس في الزواج إلا لهدف النسل فقط، الشغيل، المقاتل، الجمَّاع، الذين ينتظرون من الكنيسة قيادتهم في كل الأمور يتوجب عليهم عقلياً تبرير هذه الأفعال الجسدية ـ النكاح ـ وهذا ما يقومون به بإنجابهم أكبر عدد ممكن من الأطفال من هنا جاءت العائلة كبيرة العدد وكراهية تحديد النسل. مع ذلك، بالرغم من أن العلماني يستطيع التكفير عن ذنوبه الجسدية، فإن المرأة يتوجب عليها أن تتحمل في شخصها كل المحرمات التي فرضتها الكنيسة على الرجل والتي لم تخطر حتى على خيال المرأة في أي حال.

هكذا في عصر المثقفين لا تعتبر المرأة وسيلة إغراء فقط ليس فقد مندد بها باعتبارها أساساً لا أخلاقية، وإنما فوق كل هذا يفترض فيها مساعدة الرجل في التغلب على ضعفه المحتم على المستوى البيولوجي. هذا هو وضع المرأة في بداية العصر الوسيط قرين عصرالمثقفين.

عندما، بموافقة البابا بيبان لوبريف أطاح بالملك عام 751 تعمق التعاون أكثر بين الدولة والباباوية، وتحت ضغط من بيبان جرى إعداد عدة اصلاحات من أجل القضاء على فساد رجال الدين، لكنه ساعد رغماً عنه الباباوية في دعم سيطرتها على رجال الدين.

ابنه ووريثه شارلمان أسس سريعاً إمبراطورية واسعة كما صار في نفس الوقت على رأس الكنيسة.

في نفس الوقت، نجم الباب ليون الثالث كان يأفل منذ زمن، لقد اتهم ليون بالفساد الأخلاقي وبالطغيان، وفي عام 799 طرد من مدينة روما. لكن شارلمان سارع لنجدة ليون الثالث وأعاده إلى عرش البابوية. في المقابل يوم عيد الميلاد عام 800 وشعوراً من ليون الثالث بفضل شارلمان عليه توجه إمبراطوراً رومانياً.

رغم هذا لم يعترف شارلمان بسلطة البابا عليه، مع أن ليون الثالث اعتبر حفل التتويج سابقة والتي فيها يصدر تنصيب الملك مباشرة من الله والذي البابا ممثله الوحيد على الأرض. بالتأكيد صار شارلمان إمبراطوراً، وكان هذا بفضل الفعل البابوي الذي نصبه إمبراطوراً، والبابا يستطيع إلغاء ما قام به، في بداية القرن التاسع مثل هذا التفكير كان بدون معنى، لأنه واقعياً سلطة شارلمان على الحكومة وعلى الكنيسة كانت قد تحققت. أليس البابا نفسه مديوناً ببقائه للأمبراطور؟ غير أنه خلال الأربع قرون التي تلت هذه السابقة صارت مصدر نزاع لا ينتهي بين السلطة المدنية والسلطة الدينية.

انتقال السلطان من البابا إلى الملك المقاتل، هذا العبور من حكومة لا مباشرة ومن لا مركزية إلى حكومة مباشرة تمارسها سلطة مركزية، هو مثل صارخ لما يدعوه ساركار ضد ـ تطور. لأن هذه الفترة بكاملها تترجم حركة ارتدادية للدورة الاجتماعية من عصر المثقفين إلى عصر المقاتلين. هذا العبور إلى الأتوقراطية واضمحلال البابوية لم يستمر طويلاً بمعنى أن الأحداث الارتدادية الضد ـ تطورية ذات عمر قصير.

في مجرى التاريخ الطويل نلاحظ أن الضد ـ تطورية تحدث عادة عندما مرحلة معينة من الدورة الاجتماعية تكون على وشك إنهاء مسارها. هذا ليس قانوناً محتماً، لكنه ينطبق عموماً على معظم المجتمعات. سيطرة شارلمان على الكنيسة كانت علامة دالة عما سوف يتبع. لأن القرن التاسع بدأ بحكومة مركزية قدر الإمكان، لكنه انتهى بتفتت السلطان السياسي كما لم يشهده الغرب أبداً. لقد بدأ بالأوتوقراطية لكنه انتهى بلا مركزية لا مثيل لها.

الإقطاع وعصر الجمّاعين ـ الفئران :

موت شارلمان عام 814 تبعه قرن من الاضطرابات والغوغائية وفقدان النظام. لا أحد ممن جاؤوا بعده ورث عنه قوة شخصيته. الإمبراطورية تفككت، الحكومة المركزية كانت ضعيفة، أكثر من أي وقت مضى. الكومتات، رجال الدين كبار الملاك يستولون على حقوق الدولة إن كان ثمة دولة.

في كل هذا نلاحظ عناصر لا مركزية مفرطة والتي تبلورت في الإقطاع الذي عم كل أوروبا خلال العصور التي تلت. الكنيسة أيضاً شهدت في تلك المرحلة تغييرات مهمة في تكوينها وفي طبيعتها، لقد استعادت نفوذها ما قبل شارلمان. الكومتات، رجال الدين، كبار الملاك يحكمون من خلال هيمنتهم على وسائل الإنتاج: الأرض والقلاع، مستعدون دائماً لمضاعفة ثرواتهم بواسطة الزواج أو المعارك التافهة. خلال القرن التاسع تم إعداد الأرضية لظهور عصر الجمّاعين.

كما قلنا في الفصلين الأولين، الجماع - فأر هو ذلك الشخص الذي تفكيره ينحصر أساساً في الحصول على الثروة، وعندما يصل بعض الجماعين إلى الهيمنة الاجتماعية بشراء خدمات الطبقات الثلاث الأخرى، فإن هذا يعني بداية عصر الجماعين. عندئذ المثقفون يخدمون بلهفة مصالح الجماعين، ويعدون النظريات التي تبرر سيطرة هؤلاء بجعل هذه السيطرة متضمنة في النظام الطبيعي. عدة مثقفين يسلكون هم أنفسهم سلوك الجماعين، لأن جرثومة الاستحواذ حالما تزرع في المجتمع تنتقل العدوى سريعاً إلى المثقفين. بالنسبة للطبقات المحظوظة عبادة المأمون(*) تصير الهدف الوحيد. هذا هو المناخ الذي كان سائداً في أوروبا الاقطاعية في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر تقريباً.

شارلمان خلفه ابنه لوي الصالح - لوي لوبون - 814 - 840 والذي المجد الوحيد الذي تركه للخلف أنه كان ملكاً ضعيفاً، كان يمكن أن يكون قوياً قوة أباه لو لم يكن يخشى الكنيسة ويخاف زوجته.

حالما تم دفن شارلمان تفجرت المؤامرات والصراعات بين أحفاده والتي أمكن تهدئتها لصعوبة بالغة.

فأل سيء للأجيال القادمة، من عام 841، وحالاً بعد موت لوي لوبون اشتعلت النزاعات الداخلية، فكانت الحرب المفتوحة بين

(*) المأمون قطعة ذهبية ترجع إلى المأمون شهيرة في ذلك الوقت - المعرب.

الثلاث الذين يطالبون بالعرش. هذه الحرب انتهت باتفاقية فيردان عام 843 وتقسيم الإمبراطورية إلى ثلاث: ألمانيا وفرنسا ومملكة الوسط. كل هذا يُعد لظاهرة تفكك السلطة المركزية التي صارت تسم أوروبا في مستقبلها القريب.

كما أن هجمات البرابرة الجرمان أتاحت صعود رجال الدين إلى السلطة على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، كذلك الغزاة الذين يطلق عليهم نورمانديين ساعدوا الملاك العقاريين الجمَّاعين في نهاية القرن التاسع. منطلقين من قواعدهم الأصلية في البلاد الاسكندنافية كان النورماند الذين يسمون أيضاً فيكنج يتنقلون في قبائل ويدمرون في طريقهم كل حياة حضرية. وبما أن موطنهم الأصلي مفصولاً عن بقية أوروبا لبحر البلطيق، فإن التأثير الروماني والمسيحي لم يمسهم. غزوهم أوروبا المسيحية بدأ منذ 787 وانتهى في القرن التاسع. وعندما تمكن النبلاء من ردهم، وكان النبلاء قد أقاموا قلاعاً حصينة لا يمكن الاستيلاء عليها، عندئذ بدأ الفيكنج يستقرون في إنجلترا وفي أطراف ما كان يعرف بالإمبراطورية الكارولیجیانية.

لقد دمر الفيكنج العديد من الأديرة ومعها عدة مراكز دراسة التي كانت محتكرة من قبل الكنيسة. ولكن في نهاية المطاف استوعبتهم ثقافة ضحاياهم الأكثر منهم حضارة. بالطبع غزواتهم ساهمت في تحديد مصير تطور المجتمع الغربي لخمسة قرون تالية. في كل مكان انتقل السلطان إلى أيدي النبلاء: دوقات، كومتات، رجال دين، ملاك كبار. الإمبراطورية تمزقت من جديد إلى عدة ممالك.

أوروبا نهاية العصر الوسيط، والمسماة عادة أوروبا الإقطاعية، كانت نتاج غزوات النورماند إلى حد كبير.

ابتداء من القرن العاشر، مجتمع العصور الوسطى الأوروبي كان مجتمعاً إقطاعياً مختلفاً جذرياً عن ذلك الذي سبقه، المختصون في الإقطاع الأوروبي يعرفونه على أنه: نظام اجتماعي فيه السلطة السياسية والاقتصادية يمارسها ملاك الأراضي بينما بقية المجتمع في خدمتهم طبقاً لالتزامات تعاقدية محددة بدقة. نسيج المجتمع الإقطاعي منسوجاً بما لا يحصى من العقود التي تقضي بأن كل شخص ـ رقيق، نبلاء، رجال دين ـ ملزماً بالخضوع للأعلى منه مباشرة، كل شخص مستخدم عند الآخر بما في ذلك الوالي الذي هو مستخدم عند الملك.

بكلمات أخرى، في النظام الإقطاعي الارستقراطية ليس لها امتيازات الحكومة وواجبها إلا لأن رعاياها يعتمدون عليها اقتصادياً وهذا بالضبط ما يميز عصر الجماعين: الجمَّاعون يحكمون ليس بفضل تفوق عقلي ولا بفضل قوة عضلية متفوقة، وإنما لأنهم يسيطرون على مصادر الإنتاج والتي، في أوروبا القرن العاشر، تتكون أساساً من الأرض.

هكذا المجتمع الغربي في أدنى العصر الوسيط، أو الفترة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، ينتمي إلى عصر الجماعين. ذلك لا يعني أن النظام الإقطاعي متماثلاً في كل مكان في أوروبا

آنذاك. فهنا البارونات الإقطاعيون يخضعون لسلطة مركزية، بينما في نفس الوقت نجد لا مركزية مفرطة في أماكن أخرى من أوروبا. ملك مقاتل يمكنه أن يحكم نظرياً وعملياً حتى ربع الأراضي الأوروبية، كما أن ولاة جماعين يمكنهم السيطرة باسم ملك ضعيف. ويحدث أحياناً أن البابا نفسه يتولى الأمور الدنيوية، كما أنه في المدن الكبرى يكون التجار الأغنياء أقوياء جداً.

لكن في تصورنا الاختلافات كانت أساساً ثانوية، عندما نلاحظ أوروبا أو المجتمع الغربي في مجموعه، وباستثناء بعض الأقاليم، فإننا ندرك أن الأربعمائة أو الخمسمائة سنة التي استغرقها أدنى العصر الوسيط كانت متصفة بهيمنة أرستقراطية الجماعين، الذين يحكمون عموماً باسم الملك وفي الواقع بفضل ثرواتها. على كل حال وصولها إلى السلطان يرجع أولاً إلى ثرواتها وأملاكها الواسعة، أو في حالات المدن يرجع إلى سيطرتها على الرأسمال التجاري. وعندما ولفترات قصيرة يكون الملك قوياً فإنه لا يستطيعي تجاهل البارونات الساخطين المستعدين للانقلاب عليه في أول فرصة تحين. في كل مرة يحكم فيها الملوك فعلياً فإنهم يستطيعون ذلك بتهدئة الارستقراطية أو باستثمار الصراعات بين البارونات أنفسهم على العموم، الإقطاع الذي زُرع خلال القرن الثامن والتاسع وصل مرحلة النضج خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر، وبدأ في الانهيار خلال القرن الرابع عشر ليفسح المجال أمام نظام ملكي مركزي يذكرنا بمرحلة المقاتلين التي بدأت في القرن الخامس عشر. في

انجلترا كانت نهاية الإقطاع مبكرة، أما في بقية مناطق عديدة من أوروبا فإن بقاياه ظلت حية حتى القرن التاسع عشر.

لكي نعثر على جذور الإقطاع فإننا نرجع إلى أدنى الإمبراطورية الرومانية. في تلك الفترة، لتعويض الانهيار السكاني والانتاج الزراعي، فرضت مراسيم إمبراطورية القنانة على عدد من العمال الزراعيين والعمال المشاركين بالحصة وذلك خلال القرن الثالث والقرن الرابع. مع الوقت هؤلاء الأقنان صاروا خاضعين تماماً للملاك العقاريين المستولين على كل السلطان والمهيمنين على أراضيهم وأقنانهم.

جاءت بعد ذلك مرحلة الملوك الميروفنجيان والكارولنجيان الذين ساهموا كثيراً في نشوء النظام الإقطاعي، عندما منحوا قوادهم وولاتهم أراضي شاسعة مكافأة على إخلاصهم. هؤلاء النبلاء صاروا بعد ذلك أقوياء جداً لدرجة تجاوز سلطة الملك نفسه. مع ذلك دون المساعدة غير المنتظرة من الفيكنج فإن الإقطاع ما كان له أن يصير نظاماً عاماً كما ظهر في بداية القرن العاشر. الحكومة المركزية للفرانك، التي نادراً ما بلغت فعالية وقوة الأباطرة الرومان، إنهارت أمام الهجمات المتكررة التي قام بها الغزاة النورماند، والتي أضعفتها قبل ذلك سنوات النزاع والحرب الأهلية. يائسين من الوضع توجه الناس نحو النبلاء يطلبون حمايتهم في قلاعهم الحصينة. حالما تحمل النبلاء المسؤولية الأساسية في وظيفة الدولة، فإن الواجبات الأخرى وامتيازات الحكومة انتقلت بالطبع إلى أيديهم، وخاصة

وظيفة الدفاع في هذا الزمن حيث المواصلات والاتصالات صعبة فإن ضعف النظام الملكي يعني آلياً زيادة سلطان الأعيان المحليين وهم الأقرب إلى الناس من ملك بعيد. الكومتات، الدوقات حرصوا على جعل وظائفهم وراثية، إنهم يدينون دائماً بالولاء للملك، لكن هذا مجرد إعلان شكلي احتفالي.

على مدى الثماني قرون الأولى كانت للملك سلطة مطلقة على رعاياه بغض النظر عن أن هذه السلطة المطلقة يمكن أن تمارس مباشرة من قبل القائد، كما في الإمبراطورية الرومانية، أولاً مباشرة من قبل الكنيسة ومدراء القصر كما في عهد الفرانك. سيادة الملك نظرياً لم تكن موضع سؤال. مع ذلك طيلة أدنى العصر الوسيط، هذه النظرية جرت عليها تعديلات جذرية من قبل المثقفين الذين صاروا مرتزقة في خدمة الجمّاعين الذين يدعون إلى اقتسام جديد للسلطان الذي فلت منهم ويبحثون عن الانتقام.

بالنسبة لعدد من اللاهوتيين وفلاسفة العصر الوسيط، لا يجب على الإنسان الخضوع لطغيان أي سيد. فكرة متناقضة بشدة مع فكرة آباء الكنيسة الذين يذهبون إلى أن الدولة صنعها الله لمساعدة الإنسان على التكفير عن ذنوبه، بمعنى أن الحاكم مهما كان قاسياً طاعته واجبة.

الفلسفة السياسية لم تعد تعترف بالسلطة المطلقة للحاكم: الوظيفة الأساسية للحاكم هي منذئذ تطبيق القانون وليس تشريع القانون أو تشكيله حسب مزاجه.

العادات والأعراف كانت لها سلطة القانون. النسيج الاجتماعي في العصر الوسيط يتأسس على نظام خدمات والتزامات متبادلة ضمن إطار الملكية.

الوالي يمنح حمايته لأتباعه مقابل خدمات معينة يفترض أن يقدمها له أتباعه. ليس ثمة أبسط من هذا. فلسفة الحكم في العصر الوسيط تبرر لا مركزية مفرطة والتي كانت أمر واقع.

ما هو دور الكنيسة في النظام الإقطاعي؟

الاختلاف الرئيسي بين عصر المثقفين الثعالب وعصر الجماعين الفئران هو، مع أنه في الحالتين المجتمع محكوماً بالثقافي وليس بالعضلي، إن الطبقة الحاكمة تحكم بفضل ثروتها في عصر الجماعين، بينما في عصر المثقفين الثعالب تحكم بفضل تأهيلها. في عصر الجماعين سلطان المثقفين يتدنى بعض الشيء، لأنهم مجرد عملاء للجماعين، لكنهم يستمرون في ممارسة نفوذهم على المجتمع. حتى في نمط نشاطهم وأساليب تفكيرهم فإن المثقفين يتأثرون بعقلية الجماعين، وقد يحدث أن الجماعتين يندمجان.

في زمن أوروبا الإقطاعية، الكنيسة، مثل أي مؤسسة أخرى لا يمكنها الإفلات من عدوى الاستملاك، انتهت الاهتمامات اللاهوتية التي كانت تشغلها، على الأقل نظرياً، في السنوات الأولى للمسيحية وخلال عصر المورفانجيان الذي تطابق مع عصر المثقفين. لقد اتخذت الكنيسة وجهاً جديداً.

حتى بداية المرحلة الوسيطة تعتبر الكنيسة حياة الدنيا أساساً بائسة، الصورة التي تعكسها عن العالم كانت صورة قدرية في ظلال وخراب، لهذا السبب الإنسان والذي طبيعته أساساً شريرة يجب أن وجهه عن العالم الحسي لكي يركز على الماوراء. لكن مع ولادة عصر الجماعين في القرن العاشر فإن عقيدة الكنيسة نفسها انهارت أمام قوى الثروة.

تحولات المسيحية بلغت الذروة نحو عام 1050، قام بها أساساً الثلاثي: سان توماس الأكويني، سان فرانسوا والبابا أنوسانت الثالث. هؤلاء اللاهوتيون ابتعدوا عن النزعة التشاؤمية الموروثة عن آباء الكنيسة ورسموا لوحة مناسبة أكثر للعالم الدنيوي، والتي فيها صارت الحياة في ذاتها مهمة جداً. التعايش مع العالم الدنيوي لم يعد منذئذ شراً ولا شيطانياً.

إعطاء قيمة للحياة وللعالم الدنيوي أتاح أيضاً لرجال الدين التدخل أكثر في الشؤون العائلة، لقد صاروا الوسيط الذي عن طريقه ينجز الله بعض المعجزات: شفاء المرضى وغفران ذنوب المذنبين. ماذا يهم لو كان القسيس غير قادر أو أن روحه شريرة: الطقوس التي يقوم بها يجب اعتبارها في ذاتها ظاهرة ومقدسة. من المناسب التذكير بأن أمراً مشابهاً ظهر لأول مرة في مصر منذ خمسة وثلاثين قرناً، ماضياً. هكذا يبدو القسيس المصري قدأعيد بعثه في صورة القسيس المسيحي.

اللاهوت الجديد توصل إلى تشديد هيمنة الدين على المجتمع في الوقت الذي فيه تيارات مضادة تستهدف وضع حدٍ لنفوذه.

ربما التيار الأقوى تمثل في انهيار احتكار الكنيسة القديم للتعليم. هذا الانهيار أعد عليه شارلمان الذي دعى بعض العلماء إلى بلاطه. ثم أيضاً تدمير النورماند للعديد من الأديرة والتي كانت مراكز التعليم الوحيدة الموجودة في بداية العصر الوسيط.

في القرن الحادي عشر بدأ التعليم ينتقل من الأديرة التي نجت من الدمار إلى مدارس الأساقفة التي تشبه بعض الشيء الثانويات الحديثة، ثم عتم على هذه المدارس ظهور جامعات العصر الوسيط والمؤسسة أصلاً لإعداد وتكوين المعلمين، ولكن مع برامج تعليمية أخرى، خاصة في مجال الآداب الليبرالية التي أضيفت إليها ما بين القرن العاشر والثاني عشر.

ظهور المدارس والجامعات الجديدة ليس فأل خير بالنسبة للكنيسة.

في الجامعات يتم التركيز أكثر، في العموم، على التعليم المدني خاصة القانون والطب من التركيز على اللاهوت. ويحظى المنطق والخطابة باهتمام خاص. وقد ترتب على ذلك في القرن الثاني عشر والثالث عشر نهضة ثقافية والتي قادت بعد ذلك إلى عصر النهضة والإصلاح. المدرسية اسم يطلقه المؤرخون على الأعمال الأدبية في أدنى العصر الوسيط، اسم غير صحيح ذلك لأن مصطلح مدرسة

(سكولاستيك) يعني جهد عقلنة اللاهوت في مفاهيم جدلية وفلسفية، بينما أفكار نهاية العصر الوسيط لا تنحصر بأي حال في المسائل الدينية، على الأقل بعض الفلاسفة لم يهتموا إلا بدراسة المسائل المدنية من علم الاجتماع إلى الفلسفة والاقتصاد والسياسة. في مناهجهم البحتية المنطق والعقلانية يتفوقان على التجريبية أو التجربة الشخصية.

تيار مضاد آخر تمثل في النزعة الإنسانية للعصر الوسيط والتي لم تكن مجندة من قبل الكنيسة. هذه النزعة تظهر في عبادة مريم العذراء والتي تهدف إلى الرفع من مكانة المرأة التي كانت موضع احتقار آباء الكنيسة. ليس من المستغرب أن نلاحظ أن الأهمية المعزاة إلى العذراء تصدر عن مشاعر شعبية غريبة عن الكنيسة «بالنسبة للشعب تعني العذراء السلطان الأخلاقي الإنساني، بالتعارض مع التعاليم القاسية الصادرة عن القانون الإلهي الذي تقول به وتطبقه الكنيسة. باعتباره كذلك مكانة العذراء تضع الكنيسة في مأزق، لكن حتى وإن كان يهدف إلى هذا، فإن البابوية لا يمكنها بسهولة القضاء على انجذاب الناس لعبادة العذراء، حتى وإن استطاعت أن تحقق استبعاد النساء من السلك الديني والخدمات الموسيقية (ماري بيرد)»

عدة عوامل ساهمت في تفخيخ الهيمنة الكنسية على الشعب هذه الهيمنة التي حتى ذلك الوقت لم تكن موضع اعتراض. لماذا؟

لأن ذلك كان عصر الجمّاعين. أي في المجال الاجتماعي

السياسي والاقتصادي القرارات الفعلية تعود للولاة الجماعين، في الواقع الكنيسة نفسها صارت إقطاعية. لقد صارت أكبر ملاك الأراضي وأراضيها كانت تدار من قبل ولاة دينيين، والذين يتصرفون تماماً كالولاة المدنيين. هكذا المثقفون سابقاً صاروا منذئذ يتصفون بصفات الجماعين، لقد صاروا جماعين زائفين. في الواقع صارت الكنيسة تستمد جزءاً من قوتها من أملاكها العقارية الشاسعة. وهذا يؤكد رأي ساركار الذاهب إلى أنه في عصر الجماعين الفئران، هؤلاء والمثقفين الثعالب يسلكون نفس السلوك ويعملون سوية من أجل تأبيد سيطرتهم على الفئات الأخرى.

لقد رأينا كيف أن رجال الكنيسة والفلاسفة المثقفين معاً عملوا على تطوير نظرية سياسية لدولة لا مركزية. هذه النظرية تمثل إعادة نظر جذرية للعقيدة السابقة عن حكومة مطلقة. هذه النظرية تبرر بوضوح هيمنة النبلاء الكبار الذين يشترون ولاء أتباعهم بمنحهم الأراضي. كل نبيل يعتبر أراضيه حقاً وراثياً يستمده من الملك. يقسمها أقساماً ذات مساحات مختلفة ثم يوزعها على ولاة من مستوى أدنى، وهكذا دواليك، يسمى هذا الإجراء إقطاعية فرعية، ويعتبر سيداً كل من يملك قلعة أو حصناً وراثياً. أولئك الذين في قمة الهرمية الإقطاعية للسادة، رؤساء الولاة، كانوا آنذاك جماعين، والذين حسب الأحوال يتخذون ألقاب دوق أو كومت.. في أسفل سلم النبلاء يوجد الفرسان، والذين نمط حياتهم يذكرنا بمصالح وتطلعات ونشاطات المقاتلين.

خلال المرحلة الإقطاعية مصطلح «فارس» يتضمن معنيين: نظرية العصور الوسطى تحمل النبلاء مهمة الدفاع عن الطبقتين الأخريين: رجال الدين والفلاحين. كل النبلاء كانوا إذن فرساناً بمعنى مقاتلين. ومن حيث المكانة الاجتماعية فإنهم في وضع أعلى من فئات غير المقاتلين مثل الفلاحين والعمال اليدويين الآخرين. مصطلح فارس، في نفس الوقت، اختص به السيد الذي يملك أصغر القلاع. هكذا، من حيث الالتزامات العسكرية نحو الطبقات الأخرى كل النبلاء، بما في ذلك الدوقات والكومتات كانوا فرساناً، بينما من حيث مساحة الملكية العقارية فإن الفارس هو الذي يملك الأقل «في هذا المعنى الأخير أخذ المؤرخون عموماً مصطلح فارس، وسوف نستعمل نفس المعنى إلا في حالة إشارة مختلفة» النبيل لا يستطيع الحصول على لقب فارس إلا بعد فترة طويلة من التدريب على أنواع السلاح والفنون العسكرية.

يجب أن نحذر من الصورة الشائعة والتي وفقاً لها كل النبلاء كانوا مقاتلين منذ الولادة وإنهم كانوا مقاتلين نموراً.

وإنهم جميعاً يحبون المشاركة في الحملات العسكرية، وان يعيشوا هكذا حياة المغامرة. الحقيقة هي أن الفرسان المالكين لأراضي صغيرة يحبون الذهاب إلى الحرب خاصة إذا كان ذلك في صالحهم. محمياً في المعركة بواسطة الدروع الثقيلة فإن الفارس لا يموت عادة في المعركة، وإذا انتصر فإنه يستطيع الحصول على نصيب كبير أو مكافأة مجزية من واليه. الولاة الكبار الدوقات

الكومتات والبارونات لا يشاركون مباشرة في المعارك إلا إذا كان يتوجب عليهم القتال من أجل الملك أو دفاعاً عن حياتهم. عندما يقاتل دوق كبير فإن هذا عادة ليس من أجل لذة المغامرة ولكن بهدف الحصول على خيرات وأراضي، لأن مكانته الاجتماعية وقوته السياسية وكذلك دخله ومتطلباته الأخرى تتوقف على أهمية الأراضي التي يحوزها.

مساحة الأراضي يمكن أن تزداد بطريقتين: الزواج والحرب. الوالي الجشع يلجأ إلى هاتين الطريقتين. هكذا في المجتمع الإقطاعي كان الولاة الرئيسيون جماعين فئران، رجال الدين والفلاسفة كانوا مثقفين ثعالب، والفرسان مقاتلين نمور، والفلاحين والاقنان كانوا شغالين جاموس. في بعض الأماكن، كألمانيا، خطوط الفصل بين الطبقات لم تكن واضحة إلى هذا الحد، ولكن في العموم كانت على هذا النحو الجماعات التي تكون المجتمع الإقطاعي.

ما هو حظ النساء في عصر الجمّاعين؟

خلال الثلاث قرون الأولى من الأقطاع 10 ـ 11 ـ 12، كان الموقف الإجتماعي من المرأة لا زال محدداً وفق تعاليم آباء الكنيسة، ووضع المرأة المتدني جداً لم يكن من الممكن أن يتحسن في عصر المثقفين أي في بداية العصر الوسيط. في الحقيقة كان أكثر تدنياً مما كان سابقاً، ذلك لأن طبقة مهمة من الأقنان تكونت،

وبالطبع السادة يستغلون الأقنان. العبودية موجودة قبل الإقطاع، لكنها لم تكن واقعاً اجتماعياً شاملاً. النساء من الأقنان يقاسمن العلم العضلي الشاق مع الأقنان الذكور، لكن أكثر من ذلك مطلوب منهن إشباع رغبات ساداتهن الجنسية بعض السادة يحتفظون بحق معاشرة عروس القن ليلة دخلتهن. بينما في أماكن أخرى يتوجب على الزوج أن يدفع للكنيسة مقابل تخليها عن مطالبته بالعفة خلال ليلة الزواج أو حتى خلال الثلاث ليالي الأولى. هذا بالطبع لصالح رجال الدين، في مقابل غرامة بائسة يحصل الزوح المسكين على الغفران. إنني أعتمد على تومبسون لأدعم نظريتي والتي وفقاً لها وضع المرأة كان أسوأ في بداية عصر الجماعين مما كان عليه خلال مرحلة المثقفين:

«بعيداً عن كونها روابط عاطفية، كما هو موصوف في الروايات فإن العلاقات الزوجية كانت في غالب الأحوال في العصر الوسيط تقوم على زواج المصالح مفروضة بالقوة، شابات صغيرات كن مجبرات على الزواج من رجال أجلاف وأحياناً فاسقين، الزواج كان غالباً يجري بهدف تحالف مفيد لتفادي تقسيم أرض أو للحفاظ على قطعة أرض للعائلة أو للحصول على أراضي جديدة».

هكذا عقلية الجماعين أطلقت لنفسها العنان في عقود الزواج النساء يعاملن كما لو أنهن سلعاً عقارية. عند موت والي معين أملاكه وأرملته تصير تحت رحمة قانون السيد، والذي يحصل من هذا على فوائد تراجيدية. المصلحة الأساسية عند السيد تكمن في الخدمات العسكرية أو غيرها من قبل تابع ذكر، ولهذا فإنه عموماً يرغم الأرملة

على الزواج ثانية من غني (ثور) من اختياره رأى الأرملة في الموضوع لا يؤخذ بالاعتبار. بالطبع الوريث يمكنه الخروج من هذا المأزق بأن يدفع للسيد مبلغاً من المال التهديد بالتزويج الإجباري، بالنسبة للأرملة هو ابتزاز لا تستطيع الإفلات منه إلا بدفعها فدية كبيرة.

احتقار السيد لحقوق المرأة لا يقتصر فقط على الإناث من الأقنان ولكنه يشمل أيضاً النساء من نفس طبقته. الموقف الرهيب من الزنى المبني على التمييز بين الرجال والنساء والذي فرضه آباء الكنيسة على الرأى العام، صار يضغط على النساء بكل عنف، النبيل في أرضه لا يستطيع الاعتداء على شرف أي امرأة بما في ذلك ـ نظرياً ـ الفلاحات، لكن خارج هذه الحدود ليس لسلوكه حدود. الأخلاق الإقطاعية لا تعتبر الاغتصاب جريمة إذا وقع من فارس في ظروف مناسبة. هكذا وحتى القرن الثاني عشر تقريباً، وضع المرأة لم يكن أفضل مما كانت عليه في عصر المثقفين، فيرن بولوق يرسم هذه اللوحة عن هذا العصر:

«الذكر الإقطاعي يكرس نفسه خصوصاً للحرب والصيد، زوجته تعطيه الأطفال، وعشيقاته يشبعن رغباته الوقتية، خارج هذا ليس للنساء مكان خاص في حياته، إنه لا يهتم بهن باعتبارهن أفراد. وعندما يظهرن في الأدب الإقطاعي، على الأقل في الأدب السابق على القرن الثاني عشر، فإنهن يظهرن إما على أنهم أشياء جنسية أو على أنهن فاضلات نبيلات زوجات وأمهات منشغلات برعاية

أطفالهن، باكيات أزواجهن الموتى ومحرضات أولادهن على أفعال الشجاعة أحياناً القاسية. إذا تجرأن باعتناق أي دور آخر في مواجهة الذكر فإنهن يوبخن ويوصفن بالشر».

مع ذلك، في القرن الثاني عشر، ظهر تياران جديدان يميلان إلى تلطيف الموقف الاجتماعي من المرأة، خاصة المرأة المنتمية للنبالة، أحدهما يدور حول الروح الفروسية والتي تمتدح الحب الأفلاطوني الحب المهذب، والآخر، والذي ربما هو امتداد الأول، كان عبادة مريم العذراء. تصور روح الفروسية أو الحب المهذب، يستمد أصوله من الشعر والأدب الرومانسي الفرنسي الذي يجمع أغاني الحب التي تغني في بلاط الإقطاع، جوهر هذه الأشعار البرهاني كان الحب الرومانسي العفيف، المرأة، تلك المخلوقة المغرية الفاتنة التي تعذب آباء الكنيسة، صارت ممجدة باعتبارها تلك التي يجب البحث عن حبها وإعجابها بواسطة أفعال البطولة والأساليب المهذبة. وبغض النظر عن النتائج الاجتماعية الأخرى، فإن روح الفروسية بزغت تدريجياً من الشعر الفرنسي، وحلت، في القرن الثالث عشر والرابع عشر محل المثال الإقطاعي الذي يجسده التفوق في ميدان المعركة.

التيار القوي الآخر، الذي حدد موقف الارستقراطية من المرأة النبيلة هو عبادة العذارء، والتي كانت امتداداً أثيرياً للمثال الأرضي عن الحب المهذب. آباء الكنيسة لم يكونوا رجالاً يمكنهم تمجيد أو

تقديس مريم باعتبارها أم الله(*). لذلك توجب انتظار القرن الثاني عشر لكي تتأصل عبادة مريم في المجتمع المسيحي لقد رفعت مريم إلى مكان الآلهة. وهذا يذكرنا بالعصر الوثني. رجال ونساء من كل الأوساط يأتون طلباً لحمايتها، ويقدمون لها التقديس. عدة كاتدرائيات فخمة وضخمة بنيت تمجيداً لها.

جعل المرأة مثالاً باعتبارها تجسيد للحب العفيف، وباعتبارها أم الله أو إلهة أم هل حسن حقاً من معاملة المجتمع المعادي للمرأة؟ هذا موضع خلاف حاد. مع ذلك، ما لا يمكن الاعتراض عليه أنه وضع بداية نهاية الاحتقار الموجه لمكانة المرأة في الأدب الغربي منذ فجر عصر المثقفين، ويعلن أيضاً أن ثمة تحسن طرأ على وضع المرأة خلال عصر المقاتلين الجديد، والذي كما سوف نرى، بدأ ظهوره في الغرب في القرن الخامس عشر.

بالنسبة للشروط الاقتصادية، عصر الجماعين الفئران، كان عموماً أفضل من عصر المثقفين. إن نظرة خاطفة لأعلى وأدنى العصر الوسيط تؤكد ذلك [1]. تبعاً لأحداث عدة، وصدف معينة

(*) اللاهوت المسيحي يذهب إلى أن المسيح هو الله الذي تجسد في صورة بشر للتكفير عن خطايا البشر. ولما كانت مريم أم المسيح فإنها إذن أم الله. هذه الفكرة مرفوضة نهائياً في الإسلام. المعرب.

(1) بعض المقارنات بين عصر وآخر ليست صالحة إذا كان العصر الجديد قد فرض بالقوة على المجتمع من قوة أجنبية. هذا مثلاً ما حدث عندما فرض البريطانيون على الهند عصر الجماعين والذين أداروا محرك الاستغلال، هذه الحالة جعلت =

وبعض نتائج تشاؤم آباء الكنيسة، اتصف عصر المثقفين بانهيار اقتصادي هام والذي أصاب كل قطاعات الاقتصاد: الصناعة التجارة، الزراعة، السكان، المدن. في فجر عصر الجماعين، نحو نهاية القرن التاسع، كان الأرث: المرض، المجاعة، الركود. في الجزء الأول من القرن العاشر، المالك العقاري صار بحكم الواقع سيد الأقنان الذين يعيشون في الفقر والبؤس لأن عملهم يستفيد منه أساساً مالك الأرض، لهذا السبب إنتاجية اليد العاملة والفعالية الاقتصادية استمرت في التدني.

ولكن خلال القرن الحادي عشر انتشرت تقنية جديدة حالة محل الأسلوب القديم، كان له نتائج مهمة في تطوير الزراعة لا سابق لها في ذلك العصر. «زيادة كبيرة في الإنتاج الزراعي تبعت هذا التغيير البسيط ظاهرياً الذي حدث في التقنية الزراعية. في نفس المساحة من الأرض المروية، نظام المناوبة الثلاثي الزراعي مكن من مضاعفة الكمية المزروعة حتى 50% وفي كل الأوقات».

تغيرات أخرى مهمة، حسب مواصفات ذلك العصر، حدثت في وسائل النقل، الخيول حلت محل الجاموس في الحراثة، هذا التجديد أتاح اقتصاداً في اليد العاملة. في القرن الثالث عشر العربة ذات الأربع

= عصر الجماعين أكثر مأساوية على المستوى الاقتصادي من عصر المثقفين الذي سبقه.

راجع الفصل السادس لمزيد من التفاصيل.

عجلات حلت محل ذات العجلتين، وهذا قلص كثيراً من تكاليف للنقل. من وجهة نظر المواصفات الحديثة مثل هذا الإنجاز التقني يعتبر بسيطاً، لكنه خلال المرحلة الإقطاعية قاد إلى قفزات عظيمة في الاقتصاد. النمو الصافي للإنتاج والفائض الزراعي وضعا أسس الصناعة والمراكز العمرانية والتجارية، وفتح أيضاً الطريق أمام نمو سريع للسكان والذين تضاعفوا تقريباً خلال ثلثمائة عام.

ما بين الأعوام 1000 و1300، في مواجهة هذا الاندفاع السكاني، نمو المدن حفز بدوره الصناعة والتجارة الدولية. كل هذه التطورات كانت تؤثر في بعضها البعض وتزيد في حفز الاقتصاد: زيادة الإنتاج الزراعي تغذي زيادة السكان والعمران وبقدر أقل الصناعة. كل هذا يغذي الطلب على الخيرات الزراعية، ويتطلب بالتالي إنجازات زراعية جديدة. السادة والمزارعون بدورهم يغذون الطلب على الإنتاج الصناعي. هكذا عصر الجماعين ينفتح على أفق اقتصادي مظلم: دمار المدن المهملة والمجاعة العامة. لكن خلال بعض الأجيال عرف عصر الجماعين ربيعاً اقتصادياً جديداً.

ماذا أفاد الأقنان هذا الانبعاث؟

كل هذه القفزات إلى الإمام لا يمكن إلا أن تضعف نظام العبودية الذي يكبل جماهير الفلاحين منذ القرن العاشر. منذ بداية القرن العاشر كان النظام الإقطاعي يضطهد المزارعين الأحرار والأقنان الذين لم يكونوا عبيداً بالمعنى المحدد للكلمة. لكن

معاملتهم لم تكن أفضل من العبيد. نظرياً القن والسيد كانا مرتبطين بالتزامات متبادلة، ولكن في الواقع العملي التزامات السيد كانت محدودة جداً مقارنة بما يجب على القن تقديمه من خدمات للسيد. في مقابل حقق القن الوراثي في زراعة الأرض، فإن على القن دفع عدة عوائد لسيده والذي لا يتنازل عن أي قدر منها. وبدون أي شفقة يحصل السيد عسفياً هذه العوائد ويغير فيها وفق حاجاته الخاصة.

إضافة إلى كل هذه الرسوم على القن أيضاً إن يخدم مجاناً جزءاً من الأسبوع في مزارع سيده. مع ذلك بقدر ما يتطور الاقتصاد الزراعي حدثت تغيرات أدت إلى تغيير مجرى النظام الإقطاعي. اتساع المدن والتي تعتمد على القطاع الريفي في غذائها وفي المواد الخام خلق تبادلاً في الخيرات في الاتجاهين: بين أملاك السادة والمدن. وهذا ما أتاح للمزارع منافذ جديدة حيث يستطيع بيع فائض إنتاجه مقابل نقود. لقد وجد المزارع أكثر عملياً وفائدة إن يقدم للسيد مبلغاً معيناً من النقود كإيجار بدلاً من العمل العضلي. هذا الإجراء عرف باسم إعادة الشراء وساهم كثيراً في تخفيف أعباء القن والذي بدأ يتمتع بثمار إنتاجه بدلاً من أن يرى الجزء الأكبر منه يذهب إلى السيد. عصر الجماعين إذن بدأ بسحق العمال أو الأقنان. ولكن في القرن الثالث عشر عدد منهم استعاد حريته الاقتصادية، كما أن السادة أنفسهم، باحثين عن النقود للحصول على رفاهيات الإنتاج الصناعي، أخذوا يفضلون النقود على العمل العبودي.

بالنتيجة، في القرن الرابع عشر، الإيجارات النقدية تجاوزت في عدة مناطق أوروبية القيمة النقدية للخدمات التي تقدمها اليد العاملة. هكذا كل الفئات الاجتماعية انتهت أن انتهزت الازدهار العام الذي جاء به عصر الجماعين.

هذا لا يعني أن الإقطاع أخذ ينهار، أو أن وضع النبلاء تدنى. ليس بعد، ولكن في المقابل، الازدهار الجديد بمساهمته في تحسين العلاقة بين السيد والقن، قدم قاعدة زراعية صلبة والتي عليها يمكن للبنيان الإقطاعي أن يستمر قائماً بقوة. لكن بعد ذلك هذه الوقائع نفسها أدت إلى دفن الإقطاع.

في البداية معظم المدن كانت تحت سيطرة النبلاء الإقطاع. ولكن مع الزمن حاولت التملص والتحرر من هذه الوصاية. مدينة العصر الوسيط النمطية كانت تحكم من قبل مجلس وبعض الضباط الإداريين الذين في معظمهم منتخبون من بين صفوف البورجوازية. المصلحة الأساسية للرابطة المهنية كانت ضمان شروط الاحتكار للخيرات التي يشتريها أو يبيعها أعضاءها. ولهذا كان الانضمام إليها يرفض للسماسرة الأجانب، ولنفس الأسباب تتكفل الرابطة المهنية بتنظيم أسعار السوق والأجرة وكذلك كمية الخيرات المنتجة تحت رعايتها.

المدن تقدم للنساء حياة أكثر حرية وأكثر نشاطاً، مع أن موقف الذكور هنا أيضاً يشهد على استمرار احتقار المجتمع الإقطاعي

للمرأة، التمييز الاقتصادي، المستهدف منه حماية المهن الذكورية من منافسة نسائية كان عملة رائجة، بالنسبة لنفس العمل كانت النساء أقل أجرة من الرجال.

لقد تطرقنا إلى السمات الأساسية للمجتمع الأقطاعي، وبرهنا على أن هذه السمات تتفق مع الوصف الذي قدمه ساركار عن عصر الجمّاعين، بالإضافة إلى الخلاصات التي سبق البرهنة عليها، فإن هذا يتضمن أن تطور المجتمع الغربي حتى أيامنا هذه قد سار في المسار المحدد في نظرية الدورة الاجتماعية عند ساركار. الدورة تنتهي إذا المرحلة النهائية للفترة الإقطاعية، أو فترة الجماعين الفئران. تكشفت موسومة بانتفاضة العمال أو الشغيلة المضطهدين - المزارعين، الأقنان - وتبعتها مرحلة حكم مطلق متطابقة مع بداية عصر مقاتلين - نمور - جديد. القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر كانا القرنين اللذين شهدا هذه الانتقالية، النمط الغوغائي الذي وسم المرحلة النهائية لعصر الجماعين الفئران.

إرهاصات الممالك القوية، والتي ستظهر في أسبانيا وفرنسا وإنجلترا في القرن الخامس عشر، بدأت خلال العصر الإقطاعي لقد سبق وأن تحدثنا عن مختلف الممالك الإقطاعية والتي وقعت في مجموعها - عاجلاً أو أجلاً - تحت سلطان النبلاء.

خريطة أوروبا في القرن العاشر تبين عدد الممالك في انجلترا، فرنسا وفي الإمبراطورية الرومانية المقدسة (شامل إيطاليا وألمانيا)

والتي كان قادتها الحقيقيون جمهور الدوقات والكومتات والبارونات. في فرنسا أسرة كارولينجيان حكمت حتى 987 وهو التاريخ الذي فيه حل محلها هوق كابيت كومت باريس والذي أحفاده صاروا ملوكاً فرانسيين لمدة ثلثمائة سنة التالية. خلال هذه القرون السلطة تتأرجح بين الملوك الكابتيين ونبلائهم. ولكن بفضل مناروات استمرت عدة أجيال توصل الملوك إلى وضع أسس مملكة وطنية، لقد استولوا على قلاع ولاتهم بالنتيجة في نهاية القرن الثالث عشر صار الملك هو الحاكم الأقوى في فرنسا. على العموم هذه الملكية انتصرت لأنها وسعت قواعدها بحصولها على دعم المدن.

في انجلترا قواعد المملكة الوطنية وضعها غوليوم الفاتح عام 1066، ومع أن غوليوم أدخل في البنية البريطانية بعض سمات الإقطاع الفرنسي إلا أن المملكة التي أقامها كانت أقوى من تلك التي أطاح بها. شخصية غوليوم القوية كبحت بعض الشيء نفوذ السادة النبلاء. لكن الحكام الذين جاؤوا بعده لم يكونوا دائماً على مستواه.

في عام 1135 حرب أهلية دمرت البلاد وقعت بين اثنين من المطالبين بالعرش، وسريعاً ما دخل النبلاء الحلبة منتهزين فرصة ضعف المملكة. هكذا بندول السلطان تأرجح بشكل مستمر بين الملك والسادة حتى منتصف القرن الثالث عشر تقريباً، وهي الفترة التي شهدت حرباً أهلية أخرى أدت إلى هزيمة وأسر الملك. هذا الحدث فتح الطريق أمام البرلمان البريطاني.

بالنسبة لألمانيا وإيطاليا والدوقات الجرمان، الذين لا يوجد ما يجمعهم تحت راية واحدة بعد موت آخر ملوك الكارولينجيان، لجأوا إلى الأسلوب القديم القاضي باختيار ملك مستهدف منه ألا يكون أكثر من والي صوري. في عام 936 انتخب أوتون الكبير، ولكن منذ بداية حكمه ظهرت له طموحات كبيرة، لم يكن يرضيه أن يكون مجرد ملك جرماني. لهذا سريعاً ما صار يتدخل في شؤون إيطاليا ثم في شؤون الباباوية، لقد ساعد البابا جان الثاني عشر ضد أعداء البابوية، وحصل في المقابل على تاج الأمبراطور الروماني. هكذا الأمبراطورية المقدسة رأت النور، أساسها الفلسفي يقوم على المفهوم المعاصر للحكومة والذي يعترف بالأمبراطور حاكماً دنيوياً أعلى وأقوى من الملوك ويستمد سلطته مباشرة من الله.

ترتب عن هذا، بالنسبة لخلفاء أوتون، وضعاً صراعياً، إذ ليس أمراً سهلاً السيطرة على ألمانيا وإيطاليا في المرحلة الإقطاعية، اللقب الأمبراطور يمنح امتيازاً مع أنه كان صدفة فارغة، والجاذبية التي آثارها تكشفت في نهاية المطاف وبائية بالنسبة لخلفاء أوتون، لقد أهملوا ألمانيا وحشروا أنوفهم في إيطاليا ونتائج ذلك كانت واضحة: بينما النبلاء الألمان يقررون غالباً الشؤون السياسية كان الأيطاليون ينتفضون متمردين بين الحين والآخر.

خلال أكثر من 200 عام، شهدنا صراعاً من أجل الهيمنة، بين البابوية والإمبراطور. في نهاية هذا الصراع تحطم الإمبراطور لدرجة أنه حتى في ألمانيا انتقلت الحكومة الفعلية إلى يد عدد لا يكاد

يحصى من الدوقات، بالاختلاف عن الملوك والإنجليز والفرنسيين أهمل الأباطرة البحث عن دعم المدن الآخذة في الاتساع، وأن يرسخوا مكانتهم هكذا في قلوب الشعب. بعد عام 1273، تاريخ وصول رودولف الأول إلى العرش الاحتفالي الإمبراطورية المقدسة لم تعد إلا شبح ماضيها العاصف. ولكن بالنسبة لأسرة هابسبورج، التي ينتسب إليها رودولف الأول، هذا الحدث كان بداية المجد الذي ترك طابعه على الأجيال التالية.

تبقى مسألة أسبانيا التي غزاها المحمديون(*) في بداية القرن الثامن وهذا ما جعلها تسلك طريقاً مختلفاً عن غيرها من بلدان أوروبا. ولكن منذ أدنى العصر الوسيط فإن معظم الأراضي الإسبانية صارت مستقلة والتحقت بصفوف أوروبا الغربية، وتقاسمت معها سماتها الإقطاعية. نضال إسبانيا من أجل تحررها استمر حوالي 200 عام والتي شهدت سواء في الجانب المسيحي كما في الجانب المسلم هزائم وانتصارات. إلا أنه في عام 1248 مملكة غرناطة وحدها ظلت تحت حكم المسلمين، بقية إسبانيا كانت مقسمة إلى أربع أقسام مسيحية كاستليا، أراقون، نافار، والبرتغال. نهاية الحكم الأجنبي لم تعن نهاية الحرب. لقد تفجرت الآن بين الممالك المسيحية إلى الاقتتال بينها كان عادة. كل هذا أضعف الحكومة المركزية حتى أن النبلاء الإقطاعيين احتلوا الصدارة في معظم أجزاء

(*) يقصد المسلمون. المعرب.

إسبانيا خاصة في كاستليا والتي كانت أكبر الممالك حيث تشتمل على 60% من مساحة إسبانيا.

هذه هي الخارطة السياسية لأوروبا في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر. الإقطاع يزدهر، الحروب المحلية الصغيرة استمرت بعض الشيء، التوسع الاقتصادي، وكذلك التحولات المرتبطة به أبطلت مفعول المصدر الأكثر تفجيراً لعدم الاستقرار: القنانة. بضعة سنوات بعد أن وصل النظام الإقطاعي ذروته بدأ في الانهيار، هذا الانهيار تمثل في فترات حرب، وخراب، وغوغائية وثورات الشغيلة، التي لسوء الحظ كل عصر جماعين فئران يقود إليها وتقضي عليه.

القرن الرابع عشر كان شاهداً على اضطرابات كبرى. في هذا القرن وقعت الحرب بين فرنسا وإنجلترا، حرب استمرت أكثر من مئة عام. وفي هذا القرن أيضاً فعل طاعون عام 1348 بالإقطاع ما لم تستطع فعله ثلثمائة عام من التوسع الزراعي والصناعي. لقد شهدت الإقطاعيات نقصاً هائلاً في اليد العاملة، ذلك لأن ثلث السكان داهمهم ما عرف بالموت الأسود، إنه أسوأ وباء في تاريخ أوروبا كله. هذا الحدث الذي وقع صدفة لا يمكن إلا أن يفكك البنية الإقطاعية المؤسسة دائماً على وجود عرض فائض من اليد العاملة.

انتفاضات الفلاحين وعصر الجماعين ـ الشغيلة ـ فئران ـ جامـوس:

المرحلة الأخيرة من القرن الرابع عشر كانت فترة غوغائية

محضة، وغوغائية عسكرية أشد وحشية من أي وقت مضى.

منذ ولادته، النظام الإقطاعي اضطهد الشغيلة ـ فلاحين واقنان ـ حتى إعادة الشراء، التي مورست في القرن الثالث عشر، والتي أتاحت تحرر عدد من الأقنان من الإلتزامات التعاقدية، كانت محدودة الآثار. لقد جاء القرن الرابع عشر بحروبه وطاعونه الذي أنهك السكان، الأجور ارتفعت لكن إيجار الأراضي الخصبة نسبياً تدنى جداً. عمل النبلاء ـ طبعاً ـ على إلغاء حرية الأقنان التي منحوها لهم وفق مبدأ إعادة الشراء، وحاولوا إعادة العمل بالسخرة. لكن قرار النبلاء هذا واجهته مقاومة عنيفة من جانب الفلاحين. بالنسبة للملاحظ اليوم، لا شيء أكثر طبيعية في عصر الجماعين ذاك من الاصطدام بين الفلاحين والنبلاء. لقد بدأ الإقطاع بهيمنة السادة الجماعين وعمل الشغيلة لصالح سادتهم. الغريب أن هذا النظام استمر وقتاً طويلاً، أكثر من أربعة قرون، ولكن أي عصر لا يموت قبل أن يصل ذروته.

هكذا عندما في القرن الرابع عشر سادت غوغائية الشغيلة في شكل انتفاضات الفلاحين التي تفجرت في كل أوروبا، فإن عصر الجماعين سار ـ ببساطة ـ في المسار الذي يحدده قانون الدورة الاجتماعية. هذه الانتفاضات تخللها التهاب العنف والتدمير على مستوى واسع. وفي القسوة والوحشية، تنافس الفلاحون والنبلاء، كل ليتفوق على الآخر.

انتفاضات الفلاحين أجهضت في كل مكان باقتراب القرن السادس عشر، لكنها نجحت في الكشف عن الأمراض الاجتماعية التي تتطلب العلاج والعناية. مع أن انفجار الانتفاضات لم يضع حداً للأقطاع، إلا أن هذا لم يعد ثمة شك في أنه عفى عليه الزمن. القرن الخامس عشر كشف عنه القناع، وضعفه كان لا يمكن علاجه.

الثورات الاجتماعية :

في الغرب، القرن الرابع عشر والخامس عشر ينتميان أساساً لعصر الجماعين ـ الشغيلة، فئران ـ جاموس. لأنه عملياً في كل أنحاء أوروبا الغربية ـ انجلترا، فرنسا، ألمانيا، اسبانيا ـ كانت تسود الغوغائية والتي انتفاضات الفلاحين والإرهاب الذي صاحبها لم تكن إلا أعراضها.

في خضم هذه الاضطرابات، ظهر قادة جدد ليضعوا حداً للغوغائية التي عمت فرنسا وأسبانيا وانجلترا. مسؤولية مواجهة ثورة ـ أو ثورات ـ الشغيلة تكبدها هكذا لوي الحادي عشر في فرنسا وإيزابيلا وفرديناند في أسبانيا وهنري السابع في انجلترا. لقد عملوا على القضاء على القوى الغوغائية من النبالة الإقطاعية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. من المهم ملاحظة أن هذه الأحداث الكبرى جرت في مدة قصيرة مقدارها ربع قرن، والتي بدأت عام 1460. هل صدفة إن مثل هذه الثورات تحدث متقاربة بعضها من بعض؟ ليس كذلك إذا أخذنا بفرضية ساركار وليس كذلك من وجهة نظري.

هكذا حتى اليوم. المجتمع الغربي تطور في مسار الدورة الإجتماعية إذا كان ساركار على حق، فإنه جاء دور أولئك المؤهلين فيزيقيا والشجعان لكي يحكموا من جديد. العصر الجديد يجب أن يعكس مرة أخرى عقلية مغامرة وتبعية الثلاث مجموعات الأخرى للمقاتلين النمور.

الممالك الوطنية والعصر الجديد للمقاتلين ـ النمور:

المملكة الفرنسية بزغت من دمار حرب المائة عام (1337 ـ 1453) بسلطة لا اعتراض عليها. الفضل في إقامة هذه المركزية يعود إلى لوي الحادي عشر، الذي اعتلى العرش عام 1861. بعد اعتلائه العرش بقليل اضطر إلى مواجهة تمرد النبلاء، والذين تمكن من إنهاء نفوذهم بفضل حملة عسكرية وكذلك بفضل رشوة بعض النبلاء. ببطء ولكن بشكل مؤكد تأسس نظام الضرائب الوطني الذي وضعته الملكية. كما تأسست بنية وطنية لمحاكم ملكية، وتكون جيش ضخم دائم من جنود مرتزقة تم تجنيدهم من بين صفوف الفلاحين والنبلاء. ليحل كل هذا محل السيطرة الإقطاعية على الفرسان وعلى فرض الضرائب والإدارة والعدالة. معظم السادة تدنت أوضاعهم ليصيروا مجرد أعضاء في الحاشية، ألقابهم وصلاحياتهم تتوقف أساساً على أهواء الملك والذي الله يعلم كيف كان مزاجه!

هكذا في السنوات 1460 حلت الحكومة المركزية محل الحكومة غير المباشرة السابقة ومحل اللامركزية للنبلاء الفرنسيين.

عملياً في نفس الحقبة (في السنوات 1470) ظهرت المركزية في إسبانيا أيضاً بعد أن اتحدت الأميرة إيزابيلا في كاستليا والأمير فرديناند في أراقون بعقد الزواج. مانحين بهذا المملكة الإسبانية قواعد صلبة. الملكان معاً لم يسحقا النبلاء الإقطاعيين فقط ولكنهما أيضاً ضما غرناطة ونافار إلى أملاكهما. في الجزء الأول من القرن السادس عشر، خليفتهما، شارل الخامس، تم انتخابه امبراطوراً رومانياً مقدساً، بالنتيجة الحكم الأسباني المطلق امتد أيضاً إلى جنوب إيطاليا وجزء كبير من أوروبا الوسطى، بما في ذلك النمسا، والتي ستصير قوة معتبرة في القرن الثامن عشر.

من ناحية أخرى، في انجلترا، الملكية المطلقة لم تقم إلا بعد مجيء أسرة تودور والتي هنري السابع كان أول قادتها. إذا كانت حرب المائة عام قد دمرت تقريباً النبالة الفرنسية فإن النبالة البريطانية، رغم ضعفها، ظلت قائمة. مما استلزم ثلاثين سنة من الصراع الداخلي المسمى «حرب الوردتين» لكي يتم القضاء على الارستقراطية الإنجليزية. بالمقارنة مع ما حدث في فرنسا وفي إسبانيا فإن الحكم المطلق البريطاني كان معتدلاً، وربما أيضاً مدعوماً بواسطة حضور جمعية تشريعية، مما جعل الملوك التودوريين يُسمون ملوكاً برلمانيين مطلقين.

في القرن الخامس عشر ظهر الحكم المطلق في إيطاليا أيضاً، لكن وجهه كان مختلفاً، لم يكن مجسداً في دولة وطنية، وإنما في عدد من الحكومات البلدية، خاصة في ميلان وفلورنسا، والمنظمة في شكل دكتاتوري سمته الأساسية سلطة مركزية.

هكذا في نهاية القرن الخامس عشر تقريباً كان الحكم المطلق يهيمن على مناطق عديدة من أوروبا الغربية، مع أنه في بعض مناطقها، مثل ألمانيا، لا زالت اللامركزية قائمة متمثلة في حكم كثرة من الأمراء. لم يعد ثمة شك أن الدولة الوطنية المركزية هي التي ستشكل مصير الغرب الأوروبي. مع مجيء هذه المركزية ظهرت سمات أخرى تعبر بوضوح عن عصر المقاتلين ـ النمور ـ سمات تدل في بعض النواحي على تفوقه على النظام ذي الأغلبية من الجماعين الذي سبقه. المرحلة الجديدة للمقاتلين ـ النمور ـ استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر حيث أخلت مكانها لعصر آخر هو عصر المثقفين الثعالب.

المؤرخون يقارنون بنية المجتمع الإقطاعي بالغوغائية المنظمة. وهذا كان حقيقة واقعة، إن قبول الناس، من عدة أمم، للحكم المطلق يعلمنا الكثير عن نوعية اللانظام الذي كان سائداً في العصر الإقطاعي، وخصوصاً في أواخره. خلال عصر المقاتلين الجديد أقام الملوك القانون والنظام وضبط الجشع والنهب والحروب الشخصية التي يقوم بها البارونات بقبضة حديدية من هذه الناحية وحدها عصر المقاتلين الجديد يسمو على عصر الجماعين الذي سبقه. لكن هذه الواقعة لا تكفل له السيطرة.

قبل كل شيء مرحلة المقاتلين الجديدة هي تجسيد للعقلية المغامرة، والمغامرة لذات المغامرة وليس رغبة في الغنائم أو النهب كما كان الحال في عصر الجماعين الفئران. عدة نشاطات، في

مرحلة المقاتلين الجديدة، تذكرنا بالنضال المباشر الذي يخوضه المقاتل ضد قوى الطبيعة المعادية: كريستوف كولومبوس، فاسكو داجاما، ماجلان، وعديد من المكتشفين كرسوا حياتهم للكشف عن أراضي جديدة، عن حدود لم تكن معروفة من أوروبا ومن معظم أجزاء العالم. من أجل كل هذه الحملات كانت مساعدة الدولة ضرورية جداً. والدولة تستجيب لحماس بعض الأفراد بتزويدهم بالأموال ومساعدات أخرى. ذلك لأن الغرب يعبر آنذاك المرحلة الفاتحة لعصر مقاتلين جديد. إحساس بالمبادرة والمغامرة يغمر معظم الأمم الأوروبية. في هذه الحقبة تم اكتشاف أمريكا وكذلك الطرق الأطلسية الجديدة نحو الهند والقارة الأمريكية الجنوبية وعدة جزر كانت مجهولة.

في مجال الإنجازات الثقافية والفنية فإن العصر الجديد تجاوز أيضاً العصر السابق. وإذا اعتمدنا على نظرية الدورة الاجتماعية، فإنه ليس صدفة أن الازدهار الكبير لما يسمى أحياناً حضارة النهضة تلازم مع المرحلة الفاتحة لعصر المقاتلين الجديد. النهضة تعني تجديد ثقافي. في إيطاليا ذلك العهد ظهرت العبقرية الفنية ليوناردا فينشي، جيوتو وبوتوسيلي، وكذلك أعمال مكياخيلي الأدبية واكتشافات غاليليو العلمية. إذا نظرنا إلى مراكز ثقافية أوروبية أخرى نجد رجالاً مشهورين مثل شكسبير، بيكون، نيوتن وسبنسر في انجلترا، رابلي ومونتين في فرسنا لوقريكو وسيرفانتس في إسبانيا: إنهم الهبة الدائمة التي منحها عصر المقاتلين ـ النمور ـ للعالم.

النساء أيضاً ما كان لهن ـ في هذا العصر الجديد ـ البقاء في الظل. حقيقة الموقف الاجتماعي من النساء لم يتحسن كثيراً خلال عصر المقاتلين الجديد، لكنه تحسن بما يكفي لملاحظة ذلك. الأصول الثقافية لتبعية المرأة للرجل، الزوجة للزوج، ظلت قائمة ولها الغلبة حتى اليوم. لكن الجمهور صار آنذاك قابلاً لسماع مطالب مثل حق النساء في التعليم وحتى حقهن في دخل سلك القساوسة، يمكن أن تكون هناك حدود بالنسبة لقراءات المرأة لكن لم يعد واجباً منعهن من التعليم الابتدائي أو الأولي.

علامة أخرى على تحسن شروط المرأة في المرحلة الفاتحة لعصر المقاتلين الجديد، تتمثل في ظهور نساء قويات وعبقريات في كل أوروبا في القرن الخامس والسادس عشر. الملكة إيزابيلا في إسبانيا قدمت لكولومبس كل مساعدة ممكنة في مهمته الصعبة، والذي لم يعدها بشيء أكثر من احتمالات أخطار كبيرة، وعلى الأكثر أرباحاً غير مؤكدة. كما كان هناك ملكات فرنسا مثل آن دوبوجو وآن دوبروتن التي خلال عشرات السنين تفوقت على الرجال في السياسة والثقافة. لكن أشهرهن الملكة إليزابيت الأولى 1533 ـ 1603 والتي كان عهدها العصر الذهبي لأنجلترا.

بالطبع نفوذ البابوية والكنسية انحدر تدريجياً.

مع ذلك الضربة القاضية لم توجه بعد للبابوية، مهمة ذلك تركت لعواصف الإصلاح في القرن السادس عشر، والذي بدأ في

ألمانيا بدفع من مارتن لوقر وانتهى بإغراق الكنيسة الكاثوليكية في عدة بلدان. لكن خلال هذه الأحداث سبحت أوروبا في الدم، نفوذ البابوية كان طاغياً خلال الألف سنة السابقة مما استلزم قرناً من حروب دينية دامية ما بين الطغاة الأوروبيين، قبل الوعي بعبثية فرض كلام الله بواسطة بودرة المدافع. أياً كانت الانجازات الأخرى للثروة البروتستانتية، التي تستلهم لوقر، فإن الكنيسة الكاثوليكية خرجت منها محطمة إلى الأبد، لم يعد أبداً في إمكانها أن تلعب في حياة الناس نفس الدور الذي لعبته خلال الألف عام التي عاشها الإقطاع.

عدة تغيرات اقتصادية، والتي حدثت آنذاك، ترجع إلى تطور أوروبا الصناعي الذي انطلق منذ عام 1300. لكن الاقتصاديات الأوروبية لم تتقدم إلا بعد اكتشاف أمريكا في نهاية القرن الخامس عشر تقريباً. وانتهت بالتطور نحو النظام الحديث للبنوك التجارية وللرأسمالية. كل هذا يدل، من عدة نواحي، على أن عصر المقاتلين الجديد يتفوق على عصر الجماعين الذي سبقه.

لقد رأينا الجانب المضيء لعصر المركزية الجديد، لا يجب أن ننسى وجه العملة الآخر، والذي يوجد، لسوء الحظ، في كل عصر. لقد أشرت إلى الإصلاح، والحروب الدينية التي أثارها، كل فترة عصر المقاتلين الجديد تورطت في هذه الصراعات. الحروب المحلية الصغيرة في عصر الإقطاع أخلت مكانها لحروب الطغاة والتي تجري بجيوش ضخمة من جنود محترفين وبأسلحة أشد فتكاً. الأسباب عموماً مبررات دينية، ولكن أحياناً بسبب الصراع حول

العرش في عدة بلدان، من المعجز أنه رغم كل هذا تقدمت الاقتصاديات الأوروبية بشكل مثير.

الوزراء الأول وعصر المثقفين ـ الثعالب :

انجلترا كانت مهد أكثر من مؤسسة تميز المجتمع الغربي الحديث، هنري السابع أسس أسرة تودور عام 1485، وافتتح في انجلترا عصر المركزية الجديد. آخر ملوك التودور كانت إليزابيت الأولى، والتي ماتت عام 1603. حينئذ ابن عمها، جاك الأيكوسي السادس دعاه البرلمان لحمل التاج. الملك الجديد لا يملك شيئاً من حاسة التودوريين العملية، والذين سيروا البرلمان لصالحهم، لقد كان متواضع الكفاءة جداً وبشكل استثنائي، لكن ثرثرته هي التي ضيعته حقاً. واقع السلطان الأوتوقراطي لم يكفه فقط بل يفاخر به أيضاً. وهذا ما أغضب البرلمان، إنه جاك الذي أعلن في انجلترا نظرية الحق المقدس للملوك وهي الفكرة التي استعارها من الأوتوقراطية الفرنسية المجاورة.

هكذا عندما مات جاك عام 1625، وخلفه ابنه شارل الأول، توقع الشعب الإنجليزي أياماً أفضل، لكن كما يقول المثل «أب كهذا ابن كهذا». شارل واصل سياسة الطغيان عند أبيه، وسقطت انجلترا في حرب أهلية عنيفة انتهت بهزيمة الملك، وفي عام 1649 قطع رأسه. القوى البرلمانية حققت نصراً حاسماً، لكن الوقت لا زال مبكراً لقيام ملكية دستورية. انجلترا لم تفلت من براثن الملكية

المطلقة إلا لتسقط في لهيب دكتاتورية الحماية والتي كان كرومويل أول سادتها. مع ذلك في هذا المناخ الثقيل، الأوتوقراطية الجديدة اختفت بعد موت كرومويل بعام. الأمير ستيوارت، شارل الثاني دعاه البرلمان المنتخب حديثاً لحمل التاج.

شارل الثاني لم يكن يرغب الوقوع في حماقات أبيه، لكنه سراً كان يطمح إلى إعادة الملكية إلى سابق قوتها. مثل خليفته، جاك الثاني، كان يعيش على أمل كبير يبعث حكومة أوتوقراطية. مع ذلك عصر المقاتلين في انجلترا أخذ ينهار منذ مجيء أسرة ستيوارت، وظهور عصر المثقفين كان مسألة وقت.

الضربة القاتلة وجهت عام 1658 بانقلاب غير دموي ـ الثورة المجيدة ـ والتي أهم إنجازاتها كانت أولاً خلع جاك، وتقليص سلطان الملك الجديد، غوليوم دورانج، لم تنزع من الملك كل سلطاته حالاً، ولكن ما بعد 1700 بقليل اضطر الملك أن يكتفي بدور ثانوي خلف الوزير الأول الذي يقود البرلمان.

لقد خرج البرلمان من الثورة المجيدة قوياً جداً، لكنه كان كياناً غير متجانس، وبدون خبرة سابقة كافية، وبدون مثال لما يحب أن تكون عليه سلطة دستورية. أي خطيب مفوه يمكنه التغرير به، وبواسطة الدسائس وسخافات أخرى تتغلف بمشاعر ساميّة، وخاصة الوعود بوظائف مريحة، يمكنه أن يصير هكذا الرئيس الأعلى للمجتمع البريطاني. المثقف وحده يملك هذه المواهب. بالنتيجة،

بعد عام 1700، وبسبب تظافر عوامل خاصة مثل، من بين أخرى، عدم قدرة الملك الأخير على فهم اللغة الإنجليزية، صار السلطان الحقيقي في يد رئيس البرلمان أي الوزير الأول المثقف.

هكذا بدأ في أوروبا عصر المثقفين الجديد. بالتأكيد كما هو الحال في كل عصر مثقفين، الوزير الأول لا يستطيع الحكم إلا لا مباشرة، إنه يحكم باسم الملك الذي يحظى دائماً بتقدير رعاياه.

النظام البرلماني البريطاني في عام 1689 كان في بداية القرن السابع عشر أوليقارشية من المصالح العقارية على رأسها الوزير الأول الذي يسيطر على البرلمان الإنجليزي. تقريباً منذ البداية نظمت الجمعية التشريعية في غرفتين ـ مجلسين ـ متمايزتين: مجلس الكومون ومجلس اللوردات. مجلس اللوردات، وهو المجلس الأعلى، كان ضد الديمقراطية، لأنه يتكون من مجموعتين ذات امتيازات كبرى: الأعيان بالوراثة والأساقفة ـ رجال دين ـ في الكنيسة الانجليكانية. الانتخابات كانت مفتوحة بالنسبة لمجلس العموم أو المجلس الأدنى ـ الكومون ـ. لكنها في الواقع كانت تحت سيطرة جماعة من كبار الملاك الأعضاء في المجلس الأعلى. هذا يقود إلى الظن أن الجماعين الفئران، وليس المثقفين ـ الثعالب الذين يحكمون المجتمع البريطاني بعد ثورة عام 1688. لكن البحث المعمق يكشف عن حقيقة أخرى.

لأن هذه الارستقراطية، المكونة من الأعيان، وصغار النبلاء لم

تكن الطبقة الأغنى، ذلك لأن ثروة البلاد كانت في يد الطبقة الصاعدة، من الأغنياء السماسرة والرأسماليين، والتي تملك كل النقود مع أن وضعها الاجتماعي ومكانتها ضعيفة. المكانة بحكم العرف تأتي من امتلاك الأرض، لكن الأرض لم تعد العامل الأساسي في الإنتاج، فقد صار الرأسمال والصناعة. وهذه كانت بالطبع ملكية جماعة مختارة من الرأسماليين والمصرفيين والسماسرة. بكلمة أخرى لم يعد مالك الأرض ولكن مالك الرأسمال هو الذي ينتمي إلى طبقة الجماعين الفئران.

الارستقراطية ظلت غالبة، لأنها تلعب دوراً نشطاً في السياسة آنذاك، بينما البورجوازية تعمل على كسب المال. في تلك الحقبة كما هو اليوم قاعدة اللعبة تتمثل في الحصول على أغلبية لحزب الهويغ أو لحزب تورى في مجلس العموم(*) والذي أعضاءه غالباً منتخبون أو مدعومين من النبالة الصغيرة العقارية التي تسيطر على الريف. تحت سلطة الوزير الأول تؤطر الارستقراطية المجلس الأدنى ـ مجلس العموم.

السير روبرت فالبول الوزير الأول عام1721، أنجز النظام بالتوفيق بين حماية البلاط ـ نفوذ البلاد ـ ومصالح كبرى المؤسسات المالية ونفوذ الأرستقراطية لكي يحصل على برلمان مخلص له.

(*) whig مؤيد للإصلاح عرف فيما بعد بحزب الأحرار.

(*) Tory مؤيد للملكية أي حزب المحافظين الآن. المعرب.

السمة الثقافية للعصر الجديد تقوم في أن إنجلترا القرن الثامن عشر كانت محكومة من وزير أول، والذي لا يملك سلطة مطلقة، ولكنه يتبع جماعة صغيرة أوليقارشية مكونة من سبعين تقريباً من الأعيان.

حالما دخلت إنجلترا عصر المثقفين الثعالب الجديد، فإن البلدان الأوربية المهمة الأخرى لم تبق أو لم تستطع البقاء بعيداً خلفها. ليس لأنه في فجر القرن الثامن عشر أشكال حكومات برلمانية تطورت في أماكن أخرى، وإنما أيضاً ـ وببساطة، في البلدان الأوروبية التي تشكل آنذاك المجتمع الغربي، السلطان الحقيقي انتقل إلى أيدي القادة غير المباشرين: الوزير الأول، المستشار، الدبلوماسيون. هؤلاء جميعاً يحكمون باسم الملك، ملكهم. إنها حالة الحرب شبه الدائمة التي أسست الطغيان، لقد تقاتلوا ضد بعضهم البعض لمدة تزيد عن قرن: الحروب الدينية.. حروب الخلافة.. وغيرها. والتي زادت في اعتمادهم على الوزراء المثقفين، لقد لاحظ الملوك غالباً إنهم يربحون المعارك على الجبهات لكنهم يخسرون الحرب دائماً على طاولة المفاوضات، أو أن اتفاقيات السلام تتناسب مع من ينتظرونه ومع الوقت واليد العاملة الضائعة التي استثمروها في الحروب ومع مقدار هزيمة العدو. هكذا ظهرت حاجتهم إلى الدبلوماسيين؛ رجال ذوو ثقافة كافية وقدرة عقلية تحافظ في المفاوضات على ما أنجزه الجيش في ميدان المعركة.

هذا كان أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت نجم المثقفين يسطع، السبب الآخر كان بعد 1700، عدة ملوك كانوا أضعف من أن يحكموا بلدانهم أمام تزايد الصراعات الدولية. وعندما يكون الحاكم الظاهر ضعيفاً فإن الحاكم غير المباشر هو الذي يتوجب عليه سد ثغرة السلطة.

في فرنسا، بعد ثلاثين سنة من الحروب الدينية، فرض هنري الرابع السلام. وفي عام 1593 أعاد بعث تقاليد الحكم المطلق الذي سبقت ممارسته. ومثل فرنسا بقية أوروبا، في مشروعه إعادة البناء الوطني ساعده وزيراً أول كفؤ هو دوق دوسولي والذي ما كان يستطيع الحياة في فرنسا في فترة أكثر ملاءمة. هنري وسولي كانا مقاتلين شجاعين وقادة استثنائين. لكن سولي كان إدارياً أفضل.

العهد الواعد لهنري الرابع انتهى فجأة عام 1610 بطعنة من راخيلاك. وبعد مرحلة انتقالية عاصفة دامت أربعة عشر سنة، سلم الملك الجديد، لوي الثامن، مقاليد السلطة العليا لرئيس وزرائه الكاردينال ريشيليو. خلال السنوات الثمانية عشر التي تبعت ذلك عاشت فرنسا وازدهرت في ظل هذا الوزير المثقف الكفؤ والشجاع الذي عمل على القضاء على كل معارضة داخلية للملكية. الملك ووزيره ماتا تقريباً في نفس الوقت. وبما أن الملك الجديد، لوي الرابع عشر، كان طفلاً في الرابعة من العمر، فإن الوزير الأول الجديد الكاردينال مازاران، الذي أعده ريشيليو بعناية لهذه المهمة، كان له السلطان الحقيقي في فرنسا حتى موته عام 1661.

ريشيليو ومازاران يغطيان وحدهما أربعين سنة من حكم المثقفين. لكن عند موت مازاران 1661 كان لوي الرابع عشر قد وصل سن البلوغ، وحيئنذ بدأ حكم حديدي طويل ومباشر والذي استمر أكثر من خمسين سنة، خلالها الوزراء وغيرهم من الموظفين لم يلعبوا أي دور، كانوا مجرد أشباح. الحكم المطلق بلغ ذروته في شخص لوي الرابع عشر: فهو القانون وهو الدولة وهو الشمس التي حولها، مثل الكواكب، يدور رعاياه. لكن بعد موته عام 1715 كان خلفاؤه ضعافاً، حكمهم المطلق في الواقع يقوم به آخرون: عشيقاتهم.. الوزراء.. الموظفون. عندئذ بدأت حقاً مرحلة المثقفين، لقد اتضح أن حكومة ريشيليو ومازاران كانت إشارة طليعية لمرحلة المثقفين الجديدة وليس بدايتها. كل عصر يلقي بظلاله على العصر الذي يليه. ريشيليو ومازاران كانا بهذا المعنى ظل نظرائهما الذين يحكمون خلال جزء كبير من القرن الثامن وخلال أوقات معينة من القرن التاسع عشر.

من عام 1715 إلى 1789 عام الثورة الفرنسية، حكمت فرنسا في الواقع بواسطة وزراء المجلس الملكي. غداة الثورة استولى نابليون بونابرت على السلطان، فظهرت حكومة المقاتلين المباشرة. لكن هذا تكشف ظاهرة ضد ـ الثورة (بالمعنى الذي يعنيه ساركار) لأن نجم نابليون انطفأ بنفس سرعة سطوعه. بعد عشرين سنة من حكم نابليون قام عصر المثقفين من جديد.

في بداية عصر المقاتلين الجديد، اسبانيا، فرنسا، انجلترا،

كانت ضمن هذا النظام، القوى الثلاث التي تسيطر على أوروبا. لكن في بداية القرن الثامن عشر منطقة النفوذ الإسباني تقلصت وظهرت مكانها قوتان: أسرة هابسبورغ في النمسا وفي بروسيا. كلاهما كانا مركزيين إلى حد ما خلال معظم القرن السابع عشر، النمسا تحت حكم ليوبارد الأول وبروسيا تحت حكم غوليوم الأول. خلال القرن الثامن عشر، وبينما كانت بروسيا تعيش تحت سيطرة ملكها المباشرة فإن الحكام من أسرة هابسبورغ سقطوا تحت النفوذ المتعاظم لمستشاريهم والذين صار بعضهم مستشار الدولة. كان هذا عصر الدبلوماسية التي حاولت إنقاذ توازن السلطان في أوروبا.

في القرن الثامن عشر، في ثلاث من أربع مراكز الأكثر أهمية في أوروبا الغربية: في إنجلترا وفرنسا والنمسا، لم يعد الملك ـ أو الملكة ـ هوالذي يحكم فعلاً وإنما الوزير أو المستشار المثقف. إنهم المثقفون وليس الحكام الظاهريين الذين كانوا يتحكمون في مصير الغرب.

شروط المرأة حققت تقدماً كبيراً خلال عصر المقاتلين الجديد، وبدون مواجهة صعوبات كبيرة. في حوالي القرن السادس عشر لم يعد التعليم مسألة خاصة بالذكور في أوروبا، لوي الرابع عشر نفسه ساند قضية المرأة بدعوة بعض نساء النبلاء إلى القصر الملكي، وكفل لهن مكافأة مشرفة. مع ذلك بقدر ما يقترب عصر المقاتلين من نهايته وعصر المثقفين يقوم، فإن قوى تقدمية تعمل من أجل حقوق المرأة تكبدت نكسات جدية. هذا صار واضحاً في فرنسا بعد

موت لوي الرابع عندما ظهر رد فعل النبلاء الذكور المتميزين.

عهد لوي الخامس عشر كان عهد فسق والذي الملك نفسه كان محركه: كانت عنده عدة محظيات، وجمع آخر من الرجال اتبعوا خطاه وهذا أدى إلى سخط كثير من المواطنين. مع ذلك حُملت المرأة مسؤولية ذلك، لأن الرجال، وهم واضعوا القانون الاجتماعي، لا يمكن تحميلهم مسؤولية ذلك كما جرت العادة. هذا كان أحد القوى التي أبطأت المسيرة إلى الأمام لقضية المرأة. قوة أخرى مشابهة ظهرت من خلال كتابات الفلاسفة أنفسهم، والذين يتناسون إباحية ملكهم ويتناسون أنهم بفضل صالونات النساء يستطيعون نشر أفكارهم، يلحون على ميل النساء للذة الجنسية، هكذا في أعمالهم الغرامية يتقيؤون نفس السم والذي لأسباب مختلفة أحدودبت ظهور آباء الكنيسة من أجل تقطيره. بالنتيجة الموقف العام من المرأة تأثر بهذا كثيراً في الأدب وفي المجتمع. المجتمع بسبب تقاليده العصور وسطية كان مستعداً لقبول الأفكار الجنسية التي تحط من المرأة. في كل هذا ما كان صحيحاً بالنسبة لفرنسا كان أيضاً كذلك بالنسبة لبقية أوروبا.

حتى أولئك الذين يدافعون عن حرية الإنسان ضد ممارسات الطغيان من قبل الملك ووزرائه يقصرون تقدميتهم على السكان الذكور. جان جاك روسو. أب المفهوم الديمقراطي، يدافع هو نفسه عن خضوع المرأة. من وجهة نظره لم تخلق المرأة على الأرض إلا لهدف واحد: إثارة إعجاب الرجال بحضورها والترفيه عنهم

بعواطفها وصفاتها. باختصار إذاً أفكار الفردية وأفكار التحرر من كل محتوى خرافي وطغياني انتشرت في عدة بلدان من أوروبا، خصوصاً فرنسا وإنجلترا خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، فإن المرأة لم تستفد من ذلك. الرجل يفترض إنه يحتكر الحرية والمرأة تحتكر العبودية.

السبب أنه: بينما عصر المقاتلين النمور في طريقه للانهيار فإن عصر المثقفين الثعالب بدأ يعلن عن نفسه.

الرأسمالية وعصر الجمّاعين الجديد:

عصر المثقفين الجديد استمر في الغرب حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث تنحى لصالح مرحلة جماعين جديدة، والتي خلالها حشد الرأسماليون القوى الجديدة للثروة ووسائل الإنتاج، وتوصلوا إلى الهيمنة على المجتمع.

في بريطانيا، البرلمان البريطاني في نهاية القرن الثامن عشر لم يكن ديمقراطياً تماماً، الارستقراطية والنبالة الصغيرة العقارية تسيطر على مجلس العموم بالتلاعب بالانتخابات (أقل من 4% من السكان يمارسون آنذاك حق التصويت) ليس فقط جماهير الفقراء كانوا محرومين، بل أيضاً الطبقة الوسطى والعليا (من حيث الدخل) كانت محرومة. ليس فقط النظام لم يكن يمثل التغيرات الواضحة التي حدثت في تكوين السكان نتيجة اتساع المدن والمراكز الصناعية، وإنما أيضاً القوانين المصوت عليها كانت لصالح الملاك العقاريين

وتعرقل التطور الاقتصادي والرأسمالية وكذلك التصنيع.

هذا الوضع غير الطبيعي لم يمر دون احتجاج. لكن الارستقراطية كانت متوطدة في السلطة لدرجة أن القليل جداً من محاولات الإصلاح جرت قبل عام 1832 وهو التاريخ الذي فيه جرى التصويت على الإصلاح الشهير المسمى «إصلاح بيل» «قانون إصلاح الانتخابات». في عام 1867 أضيف حوالي مليون اسم إلى قائمة الناخبين. قاعدة السلطان صارت لا مركزية بشكل كافٍ لإعلان بداية عصر جماعين جديد. الانتخابات البرلمانية صارت منذئذ تحت سيطرة الطبقة الصاعدة من الرأسماليين كما أن السيطرة على مجلس العموم فلتت من الوزير الأول أيضاً، والذي لم يعد بإمكانه التلاعب بالانتخابات بنفس السهولة السابقة.

هكذا بعد اعتماد إصلاح بيل الثاني صار السلطان السياسي أكثر لا مركزية لأنه انتقل إلى يد الأغنياء الرأسماليين الذين يتصفون بكل سمات روح الجماعين. إنهم يمثلون قوى الثروة، مؤمنين بتراكمها، ويسيطرون على المصانع والمصارف وهي وسائل الإنتاج الجديدة.

في حوالي السبعينيات من القرن التاسع عشر 1870 ظهر عصر الجماعين الجديد في فرنسا. لقد أشرنا إلى أنه كان يحكم فرنسا بعد موت لوي الرابع عشر «الملك ـ الشمس» في عام 1715 مجلس وزراء. هذه الحكومة غير المباشرة وصلت نهايتها فجأة عام 1789 عندما تخلصت الثورة الفرنسية الشهيرة من النظام القديم كما نتخلص

من بقايا عفنة. خلال الاضطرابات التي تلت وصل نابليون بونابرت إلى السلطان عام 1795. الحكومة المباشرة للمقاتلين وكذلك الحكم المطلق جاءا معه. لكن هذا ـ كما شرحنا ذلك، لم يكن إلا فترة من ضد ـ الثورة، لأنه عام 1815 تكبد نابليون هزيمة واترلو والتي وضعت حداً نهائياً له. عادت فرنسا آنذاك إلى الملكية الدستورية والتي كان أول ملوكها لوي الثامن عشر المنحدر من الأسرة المطاح بها، أسرة آل بوربون. وهكذا ولد التقليد الجمهوري الفرنسي: سلطة تنفيذية واسعة عهد بها للملك الذي يتوجب عليه الحكم بمساعدة رئيس وزراء وبرلمان من مجلسين وضع على النمط الإنجليزي. مع ذلك حق الانتخاب ربط بشروط صعبة خاصة فيما يتعلق بالملكية، وبالتالي أقل من 1% من الذكور البالغين يتمتعون بامتياز حق التصويت. الجمهورية ولدت خلال الهزيمة والغوغائية، وسماتها المضطربة أساساً ظهرت إلى السطح خلال الخمسة عشر سنة التالية. الوزارات تتبادلها غالباً الأيدي حتى عام 1830 حيث حدثت ثورة أخرى. وخلع آخر ملوك البوربون. الملك الجديد كان لوي فيليب الذي وعد بأن يحكم إسمياً وإن يحكم لصالح البورجوازية والعمال.

الملك الجديد كان وفياً لعهوده، حاول قدر إمكانه أن يكون حاكماً اسمياً. وعندما تكون الأهداف متواضعة فإن النجاح يكون لازماً. سياسة ازدهار وسلام داخلي وخارجي هو ما كان يبحث عنه الملك الجديد بالتعاون مع وزرائه الأكثر نفوذاً، من بين هؤلاء قيزو،

وهو الاسم الذي سريعاً ما يخطر على البال. لم تبذل الحكومة جهداً كبيراً لتعديل الدستور وجعله أكثر ديمقراطية بشكل يضمن تمثيلاً أفضل للطبقة البورجوازية في البرلمان، ولكن في نهاية المطاف الحذر المبالغ فيه هو الذين جعل قيزو يمارس كل شيء إلا سياسة خارجية نشطة، وهذا ما أدى إلى سقوطه. في عام 1848 كانت فرنسا على حافة أزمة جديدة لأن أغلبية الشعب تطالب بحكومة أكثر انفتاحاً وديمقراطية أكثر.

مع ذلك حدث آخر ضد ـ الثورة وقع قبل أن تتمكن قوى الديمقراطية اللامركزية من التغلب على قوى حكومة المثقفين المركزية نوعاً ما. لوي نابليون بونابرت (أو نابليون الثالث) انتخب رئيساً بأغلبية ساحقة، الملكية إذن ألغيت، لكن نابليون الجديد أطلق العنان للميل النابليوني نحو السلطان والقوة، مع ذلك احتاج إلى ثلاث سنوات ليعلن نفسه إمبراطوراً. الحكم المطلق، وقانون المقاتلين عاد للظهور غير المنتظر، لكنه لم يتجاوز عام 1870 وهو التاريخ الذي فيه الحرب الفرنسية البروسية وانتفاضة باريس أسقطت نابليون ومعه آخر بقايا الأوتوقراطية.

عام 1875 وضع دستور جديد. هذه المرة الجمهورية الفرنسية صارت ديمقراطية بانتخابات عامة للذكور مع مجلس استعير نموذجه من الإنجليز، ورئيس اسمي منتخب من قبل البرلمان. الانتخابات وقعت بالطبع تحت نفوذ الأغنياء الرأسماليين المنتمين للطبقة البورجوازية. وهكذا ليس قبل أزمة 1870، وثلاث سنوات بعد

الإصلاح الانتخابي البريطاني، ولدت في فرنسا حكومة لا مركزية وعصر جماعين فئران جديد.

في نهاية القرن التاسع عشر، الديمقراطية، وبهذا عصر الجماعين الجديد، قام أيضاً في العديد من بلدان أوروبا الغربية والوسطى ـ إيطاليا، سويسرا، بلجيكا، النرويج، الدانمرك. لكن الديمقراطية كانت أكثر تقدماً في بعض البلدان الصغيرة أكثر منها عند جيرانها الكبار والإنجليز والفرنسيين. نفس الشيء في الولايات المتحدة كانت التقاليد الديمقراطية مترسخة بعمق. ثمة استثناءات واضحة في النمسا وبروسيا. بلدان تتطور نحو دولة ألمانية موحدة.

في القرن الثامن عشر، في النمسا، السلطان الحقيقي كان يمارس أساساً من قبل مستشار الدولة، ومع أنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت ملكية دستورية، إلا أن الديمقراطية لا زالت بعيدة. أسرة هابسبورغ في النمسا وأمبراطوريتها استمرت في الواقع حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918 تاريخ إلغاء الملكية المضادة للديمقراطية لتحل الجمهورية محلها. قوى الديمقراطية لم تلبث أن سحقت من قبل القوى الفاشية، واستلزم ذلك الحرب العالمية الثانية لكي يمكن أن تظهر حكومات جمهورية من جديد. في بروسيا وألمانيا حدث تطور مختلف بعض الشيء، بينما معظم المراكز الأوروبية المهمة، دخلت عصر المثقفين فإن بروسيا لا زالت تحت الحكم المطلق للمقاتلين. بعض مظاهر ديمقراطية بسيطة ظهرت سواء في النمسا كما في بروسيا منذ الثورة

الفرنسية عام 1789. لكن الملوك البروسيين والمستشارين النمساويين عملوا على كبحها. في عام 1849، نتيجة ثورة 1848 التي وقعت في فرنسا، منح ملك بروسيا رعاياه دستوراً رمزياً شاملاً نظام برلماني من مجلسين. ومع أن الحكم المطلق الملكي لم يتراجع في بروسيا آنذاك، إلا أن الدستور الجديد يعلن قدوم عصر المثقفين والذي وجد سريعاً ناطقاً باسمه قوياً في شخص رجل الدولة الشهير: بسمارك.

إذن في نهاية القرن التاسع عشر، بينما المراكز الأوروبية الغربية الكبرى.. فرنسا.. بريطانيا.. الولايات المتحدة، كانت تعيش عصر الجماعين، إقليمان آخران ـ ألمانيا والأراضي الأوروبية الواقعة تحت نفوذ الهابسبورغ النمساوي ـ كانا متأخرين بالنسبة للدورة التطورية التي حددها ساركار، يتلكئان في عصر المثقفين. صراع من أجل الهيمنة لم يكن من الممكن تفاديه بين هذه القوى المتنازعة. صراع انفجر عام 1914، وصار صراعاً عالمياً وحشيته لم يسبق لها مثيل. عندما الحرب العالمية الأولى بلغت نهايتها عام 1918، قوى الاستحواذ، بعد أن دفعت الثمن غالياً، تغلبت على النمسا وألمانيا، وأرغمت هذه على قبول أنظمة ديمقراطية. مع ذلك طاقات الحكم المطلق، سواء كانت ذات طبيعة قتالية أو ثقافية لم تختف بعد. النمسا، ألمانيا وحتى إيطاليا وقعت تحت الحكم الدكتاتوري. المناخ الدولي صار متفجراً، ذروته كانت الحرب الثانية (39 ـ 1945) أكثر مأساوية وأكثر تقنية وأشد وحشية من الأولى. لكن الوقت لا زال إلى جانب قوى الجماعين، أنصار الحكم المطلق انتهوا بالرضوخ.

إلى جانب قوى الجماعين، أنصار الحكم المطلق انتهوا بالرضوخ. عصر الجماعين الفئران تفوق في معظم الأقاليم التي كانت مهد الحضارة الغربية.

في معظم البلدان الديمقراطية الثروة الرأسمالية تصنع القانون، البنية السياسية صارت لا مركزية، السلطان والقانون ليسا دائماً محترمين الهيمنة الاجتماعية والسياسية تخص طبقة الجماعين.

ملخص:

حوليات الغرب تقدم مثال رائع يدعم قانون الدورة الاجتماعية عند ساركار. كما رأينا مرحلة الأمبراطورية الرومانية ترتبط بعصر المقاتلين النمور، ومرحلة العصر الوسيط الأعلى ترتبط بعصر المثقفين الثعالب، ومرحلة العصر الوسيط الأدنى أو الإقطاع ترتبط بعصر الجماعين الفئران. أما ثورات الفلاحين فترتبط بعصر الشغيلة ـ الجاموس، التي بلغت الذروة مع ثورة الشغيلة التي صنعها لوي الحادي عشر في فرنسا وإيزابلا وفرديناند في إسبانيا وهنري السابع في إنجلترا. تطور كل هذه الفترة المقدرة بحوالي ألف وأربعمائة عام بعد ميلاد المسيح يغطي دورة كاملة للدورة الاجتماعية.

دورة أخرى بدأت مع مرحلة المحاربين الجديدة، الممالك الوطنية المركزية، والتي تبعها أولاً عصر المثقفين الثعالب متمثلاً في نفوذ الوزراء الأول. وبعد ذلك عصر الجماعين الفئران الذي يسوده الأغنياء الرأسماليون. في هذه المرحلة يوجد الغرب حالياً.

مراجع

1 ـ د. أ. بوق: **الأرستقراطية: الحكومة.. والمجتمع في القرن الثامن عشر**. نيويورك ـ فرانكلين وات ـ 1975

2 ـ م. ر. يبرد: **المرأة كقوة في التاريخ** ـ نيويورك ماكميلان ـ 1946

3 ـ ف. ل. بولوق: **التبعية الجنسية** ـ مطبعة جامعة الينوا ـ 1973

4 ـ أ. م. بورن، ب. ل. رالف: **حضارة العالم** ـ نيويورك ـ ط5 ـ 1974

5 ـ ج. دونالدسون: **المرأة وضعها ونفوذها في اليونان القديمة وروما وخلال المسيحية الأولى** ـ نيويورك ـ كوردون برس ـ 1973

6 ـ و. ك فيرقوسون، ج بران: **بقاء الحضارة الأوروبية** ـ بوستون ـ 1947.

7 ـ ن س ب قراس: **تاريخ الزراعة في أوروبا وأمريكا** ـ نيويورك ـ 1940.

8 ـ ج هاركنس: **المرأة في الكنيسة والمجتمع** ـ ناشفيل ـ 1972.

9 ـ أ. ك هونت، هـ. ج شيرمان: **اقتصاد: مدخل إلى النظرة الجذرية والتقليدية** ـ نيويورك ـ 1975.

10 ـ بانتير: **الإقطاع والحرية** ـ بالتيمور ـ 1961.

11 ـ أ. بوير: **مكانة المرأة** ـ بلمونت ـ 1973.

12 ـ أ. ج بوتمان: **السيدة** ـ نيويورك ـ 1910.

13 ـ م. روز توفتزيف: **التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للأمبراطورية الرومانية** ـ لندن ـ جامعة اكسفورد ـ 1926

14 ـ م. روز توفتزيف: **تاريخ العالم القديم ج1** ـ لندن ـ جامعة اكسفورد ـ 1928

15 ـ ج و تومبسون: **تاريخ اجتماعي واقتصادي للعصر الوسيط** ـ نيويورك ـ 1928.

16 ـ أ. هـ توما **تاريخ الاقتصاد الأوروبي** ـ نيويورك ـ 1971.

5 ـ تاريخ روسيا وسقوط الشيوعية الشمولية

فجر تاريخ روسيا ـ إذا استعرنا تعبير فلورينسكي ـ متلفعاً في ضباب النسيان، ليس من المبالغ فيه القول إننا نعرف عن تاريخ مصر القديمة، التي بلغت أوج ازدهارها وقتاً طويلاً قبل ميلاد المسيح، أكثر مما نعرف عن روسيا حتى إلى وقت قريب كالقرن السابع الميلادي. لقد توجب الانتظار حتى الفترات المضطربة من القرن الثامن والتاسع لكي تظهر روسيا على مسرح التاريخ. في هذا الخصوص المصادر الرئيسية للمعلومات هي اليومية الروسية، والتي يراها البعض قليلة المصداقية، وشهادات وكتابات مؤرخين أجانب خاصة تلك التي خلفها العلماء البيزانطيون والعرب.

كما هو الحال في أماكن أخرى، ولكن خصوصاً في حالة روسيا، لعبت الجغرافية دوراً رئيسياً في تحديد تطور الروس الاجتماعي، الروس الذين ينحدرون أساساً من أصل سلافي. الاتحاد السوفيتي اليوم، البلد الأكثر اتساعاً، بمساحة تمتد عبر قارتي

أوروبا وآسيا. لكن في بداية تاريخه لا يؤخذ في الاعتبار إلا جغرافيته الأوروبية. ذلك لأنه وحتى القرن السادس عشر لم يضع أي روسي قدميه في سيبيريا.

يمكن أن نسأل: لماذا لم يدرس التاريخ الروسي كجزء من الحضارة الغربية؟ السبب نراه يكمن في الهوة الواسعة: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وحتى الدينية، التي تفصل الدولة الروسية منذ نشأتها عن بقية أوروبا. هوة تُفسر أساساً بسبب الاختلافات الجغرافية الجذرية التي تميزها. حسب رأي توينبي التاريخ الروسي هو ابن المجتمع المسيحي الأرثوذوكسي وليس ابن الغرب.

بدايات التاريخ الروسي يكتنفها الظلام. يعتقد أنه من القرن الثالث وحتى القرن التاسع، بعض مناطق روسيا الأوروبية كانت تقطنها عدة قبائل سلافية: الآلان، الأنت، الهوت، الهانز، الليتوانيين، الفينوا، الكازار. خلال القرن التاسع والقرن العاشر عدد من هذه القبائل سحقها النورماند أو الفيكنج كما هو الحال في الغرب. النورماند امتزجوا تدريجياً بالسكان المحليين.

إذا أخذنا بما تذهب إليه اليومية الروسية، فإن الروس، الذين منحوا اسمهم لروسيا، كانوا قبيلة سكندنافية، وإن أول حاكم للدولة الروسية الموحدة كان ريوريك، وهو مقاتل وقرصان شهير، وقد أسس نظامه عام 862 في نوفقورود، وأقام النظام في روسيا

المضطربة. خليفته أوليق وسع أراضيه باحتلال كييف، وهي مدينة تجارية وحربية تقع في حوض دنيبر. مركز النشاط انتقل إلى كييف من مدينة نوفقورود بسبب الميزات الجغرافية للأولى، باعتبارها مفرق طرق تجارية مؤدية إلى البحر الأسود وإلى بيزنطة، وباعتبارها حصن ضد تهديدات الغزاة البدو من الشرق والجنوب.

البعض مع ذلك يشكل في الأصل الإسكندنافي للروس. فيما يتعلق بفرضية ساركار فإن هذا غير مهم. ما يهم أكثر. وما لا يطرح شكاً، إنه من الفترة الممتدة من القرن التاسع وحتى الحادي عشر، كانت روسيا كما سوف نرى أكثر مركزية منها في الفترة التي تلتها مباشرة. رأى أنه، بقدر ما نستطيع الحكم وفقاً للمعلومات المتوفرة، النصف الأول من فترة كييف يرتبط بعصر المقاتلين النمور.

روسيا كييف وعصر المقاتلين النمور:

تأسيس الدولة «أو الاتحاد» قام على أساس أنشطة عسكرية، على أساس النار والسيف. توسع الدولة استمر بدون توقف حتى عام 1000 شاملة من خليج فنلندا في الشمال حتى البحر الكاريبي في الجنوب، ومن نهر دون في الشرق إلى المجر الحالية في الغرب.

في كل مرة تطرح فيها مشكلة الخلافة على العرش، فإنها تحل باندلاع حرب أخوية. عند موت أروسلاف عام 1054، تقاليد الصراعات الدموية بسبب الخلافة توقفت وقتياً. روسيا انقسمت إلى عدة إمارات يحكمها أبناءه. لقد استلزم الأمر إعداد النظام الشهير

«نظام روث» لتحديد من هو من بين الأقارب له جق الوراثة.

رغم انقسام روسيا عام 1054 لم تختف القواعد العسكرية لدولة كييف مباشرة. الأمراء لم يكونوا حكاماً أوتوقراطاً، إنهم يتقاسمون السلطة مع الارستقراطية. ومع أن الأمير يملك أراض شاسعة، إلا أنه، مع الارستقراطية كان دائماً مستعداً للحرب. وهي ما كانت شائعة الحدوث، لأنهم جميعاً كانوا يطمعون في إمارة كييف. وظيفتهم الأساسية كانت الدفاع وتوسيع ممتلكاتهم. باختصار الأرستقراطية آنذاك كانت ذات عقلية حربية.

بناء على الوقائع المشار إليها أعلاه من الممكن استخلاص وجود مركزية سياسية نسبية وإذن عصر مقاتلين نمور كان يسم روسيا، كييف على الأقل، حتى عام 1054. الأصل الحقيقي لهذا العصر غير واضح لنا، من الممكن أن مرحلة جنينية لعصر المقاتلين قد بدأت مع القرن الثالث، أو حتى قبل ذلك عندما كان الروس منتظمين في عدة قبائل. مع ذلك من الواضح أن هجوم النورماند في القرن التاسع افتتح أو حفز قدوم عصر المقاتلين في روسيا، والذي استمر حتى موت أروسلاف عام 1054.

السيطرة المنغولية وعصر المثقفين الثعالب:

إحدى الأحداث المهمة التي طبعت عهد فلاديمير 978 ـ 1015، هي اعتناق الروس الوثنيون المسيحية. لقد حرم فلاديمير الوثنية، واعتنق عام 988 المسيحية على المذهب الأرثوذكسي الذي كان

مركزه بيزانطة، هذا المذهب صار كنيسة روسيا الرسمية. وصول المسيحية إلى روسيا متأخرة سببه عزلة روسيا الجغرافية بالنسبة لحقل نشاط الأمبراطورية الرومانية، ومن المناسب أن نذكر أن الدين المسيحي رفض أولاً قبل أن يصير محمياً من قبل الحكومة. في الغرب توجب على المسيحية المرور بكل المستويات بينما في روسيا فرضت المسيحية من أعلى كدين دولة. لهذا منذ أول نشأتها تمتعت الكنيسة في روسيا بامتيازات لا يمكن للفئات الاجتماعية الأدنى الوصول إليها، ولم تعترض الكنيسة المسيحية على تعليمات الأمراء حتى عام 1054 على الأقل.

رغم الحماية الرسمية غير المشروطة التي تمتعت بها المسيحية منذ دخولها روسيا فإنها لم تكن مقبولة إرادياً من الشعب. عقائدها وطقوسها خاصة في صيغتها الأرثوذوكسية، كانت معقدة جداً لكي يمكن فهمها من قبل جماهير الشعب الأميين. بالتالي المسيحية والوثنية ظلتا في روسيا معاً. تزاوج تعس لكنه ضروري. وكما هو الحال في معظم البلدان الأخرى، حاولت الدولة فرض حب الله ـ الدين ـ بواسطة النار والسيف، لكن المعتقدات الروسية القديمة لم تندثر.

خلفاء فلاديمير لا يقاسمون حماس للكنيسة، هذه صارت أكثر تبعية لهم. مع ذلك بعد موت أروسلاف عام 1054، الحكومة المركزية نسبياً في يد أمير واحد تخلت لتحل محلها حكومة مكونة من عدة أمراء، عندئذ لعبت الكنيسة دوراً واضحاً في الشؤون السياسية.

إحدى الفترات الشهيرة، الشاهدة على تدخل الكنيسة في

الشؤون الدنيوية هي ما يدعوه كلاركسون «ثورة ديمقراطية» والتي هزت كييف عام 1113 والتي فيها، استجابة لطلب الأعيان المحليين ورجال الدين، خضع الأمير فلاديمير مونومان لرغبة الشعب وقبل العرش، مع إدراكه التام أن ما فعله ينتهك نظام التداول ـ حق ولاية العهد آنذاك.

أحداث مثل هذه، لا تبرهن على أنه في القرن الثاني عشر، الكنيسة وبالتالي عصر المثقفين قد استقر تماماً. لكنها تشير إلى انهيار عام في عصر المقاتلين والمركزية النسبية، وبداية سلطة المثقفين الذين استفادوا من دعم غير منتظر: المغول.

المغول هؤلاء لعبوا دوراً مماثلاً لدور البرابرة الجرمان الذين قضوا على الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس، مما أتاح للكنيسة الإستيلاء أولاً على السلطان الشاغر، وأن تحتل ثانياً مكانة مهمة في المجتمع الغربي.

في بداية القرن الثامن، وبينما كان أمراء كييف منشغلين بحروبهم الأخوية، والبلاد مزقها الصراع. حدث في منغوليا البعيدة حدث هز قواعد الحضارة نحو عام 1206، البدو المغول الذين يقطنون شمال الصين، اجتمعوا تحت قيادة تيمودان، والذي عرف فيما بعد باسم جنكزخان. وبعد أن استولوا سريعاً على الصين الشمالية وتوركستان دخلوا الأراضي الروسية، وكبدوا الأمراء الروس هزيمة ماحقة. ثم انسحب المغول فجأة كما جاؤوا تاركين خلفهم

كارثة لم يسمع بمثلها من خراب، ومجازر ونهب.

من سوء الحظ، لم يكن أمام الروس وقتاً كافياً لاستعادة أنفاسهم، فقد عاد المغول، هذه المرة عادوا باعتبارهم أتباع التتار، هؤلاء التتار شعب كان المغول البدو القساة قد سحقوه. لقد عادوا ومعهم النساء والأطفال لكي يستقروا.

في عام 1241، البلاد كلها، باستثناء نوفقورد سقطت تحت حكم الأجنبي.

من بين كل البلدان الأوروبية، النظام الروسي وحده كان له اتصالاً طويلاً مع المغول، خلال أكثر من 200 عام. بعض الأقاليم الروسية أرغمت على دفع جزية للبدو الأسيويين. مع ذلك جزءها الغربي، المتضمن حوض دينبر سقط، بعد قرن من السيطرة المغولية، تحت سيطرة قوة أخرى غير روسية هي بولندا وليتوانيا.

تاريخ روسيا من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر يرد تحت عنوان «الهيمنة التتارية». أشد قسوة مما كان الغزو المغولي، لكن آثاره المباشرة في السياسة الداخلية الروسية كانت قليلة. من ناحية اقتصادية، كان البلد ولمدة طويلة خراباً، لكن على المستوى السياسي لم تحدث إلا تغيرات طفيفة على نمط الحكومة المحلية، ولم يتخذ أي إجراء جذري متضمناً بتر المؤسسات السياسية. ثمة مع ذلك استثناء، المجلس البلدي، الذي كان يعبر عن سخط الناس، توقف عن العمل.

في الصين كما في فارس أطاح المغول بالأنظمة المحلية، واستولوا على الحكم المباشر، في روسيا العكس، إذ لم يجدوا حكومة مركزية وبدا لهم الأمراء أضعف من أن يشكلوا خطراً أو تهديداً، خاصة أن معظمهم سارع بقبول الخضوع ودفع الجزية. لقد سمح للأمراء الروس بالبقاء في السلطة ما داموا يدفعون الجزية في الوقت المحدد. وأن يقسموا على الولاء لخان القبيلة المسماة قبيلة الذهب. ليس في مقدور أي أمير الحصول على الشرعية قبل الحصول أولاً على رضى الخان، وأن يحصل منه على وثيقة تعيين. وهذه تمنح لأولئك الذين يدفعون أو يعدون بتقديم جزية أكبر.

بينما كان الأمراء خاضعين، فإن الكنيسة خرجت من المحنة قوية وحصينة، وهذا ملاحظ أكثر من حيث أن الكنيسة والمغول لم يكن بينهم شيء مشترك. لكن ساعة عصر المثقفين دقت في روسيا والبدو اكتفوا بلعب دورهم في تحريك عجلة قانون الدورة الاجتماعية كما حددها ساركار.

في البداية تكبدت الكنيسة نفس مصير الناس والأمراء. المغول لا يميزون، وفؤوسهم تنهال بنفس القسوة على الأساقفة كما على الناس العاديين، على أصحاب الميزات كما على الضعاف اقتصادياً، شيء ما، مع ذلك عمل لصالح الكنيسة الروسية: إنه التسامح الديني عند الخان. رغم الوحشية التي يقضي بها المغول على أعدائهم، إلا أنهم شعب ذو حساسية دينية مفرطة، وبغض النظر عن اسم الدين فإنهم يحترمون الرجال الذين يدعون إلى حب الله. حالما انجلى

غبار الحرب، حصلت الكنيسة على سلسلة من التعهدات التي لا تؤكد فقط مهامها القديمة، بل أيضاً توسع فيها: القساوسة والرهبان ومعظم أولئك الذين لهم علاقة بالكنيسة جرى استثناءهم من كل التزام ضريبي ومن دفع الجزية للتتار، وابتداء من عام 1297 أذن للكنيسة بارسال أسقف إلى عاصمة الخان.

في المقابل تعهدت الكنيسة الصلاة العلنية من أجل الخان، كما يجب عليها أيضاً العمل كعميلة للمغول بتهدئة الجماهير المتمردة التي كان عليها تحمل وطأة الجزية التي كان الأمراء يجبونها بقسوة.

الغزوات المغولية، والخراب الذي ترتب عنها تكشف عاملاً مساعداً دائماً بالنسبة للكنيسة. يجب أن نتذكر أن الكنيسة فرضت على الروس من قبل الدولة، ولم تتوصل إلى إغراء الجماهير الأمية والتي رغم القرون من الضغط الرسمي لم تعر الكنيسة اهتماماً. اتساع الدمار الذي سببه المغول أتاح مع ذلك للكنيسة أن تفرض نفسها في شؤون روسيا. القساوسة يتنقلون من مكان لآخر، يقدمون المواعظ والدعم الروحي اللازم لشعب يخيم عليه الحزن والشقاء نتج عن هذا أن الكنيسة ترسخت سريعاً، للمرة الأولى، الكنيسة التي لم تقبل إلا تحت ضغط الخوف، كسبت حقاً قلوب الناس.

في نهاية القرن الثالث عشر نشاهد ازدهار مجد وقوة الكنيسة الروسية. عصر المثقفين، الذين نلاحظ إرهاصاته في القرن الثاني عشر، استقر بقوة في روسيا في القرن الثالث عشر.

مع أن الكنيسة الروسية تعتقد في التفوق الأساسي للدولة في المسائل الدنيوية، إلا أنها مع ذلك عتمت على الأمراء. وذلك لأنه نظراً للظروف فإن السلطة الأميرية تحطمت، لدرجة أن الدولة، إن ظل ثمة دولة، لا تستطيع بأي حال السيطرة على الكنيسة حتى وإن كان القسيس قد أعد ولوقت طويل للخضوع للحاكم.

كل هذا يتوافق تماماً مع نظرية الدورة الاجتماعية عند ساركار، لأن لدينا هنا مثال عن قساوسة مثقفين حُملوا إلى مقدمة المشهد رغم تعودهم الخضوع للسلطات الدنيوية.

الدور الإيجابي، كحاكم، الذي لعبته الكنيسة خلال سنوات الاضطراب التي أثارها الغزو الآسيوي، لم يستمر طويلاً. إننا نطلب الكثير عندما ننتظر التزاماً أخلاقياً أبدياً من قساوسة تعودوا على كل التسهيلات المعيشية التي كان يقدمها لهم أمراء كييف. بعد عودة الوضع إلى طبيعته في روسيا بقليل، شرعت الكنيسة في تكديس الأموال والأراضي.

دائماً على استعداد لإنجاز المهمة الصعبة: الصلاة من أجل الآخرين، فإن رجال الدين حصلوا، من الأمراء ومن الطبقات الغنية الأخرى، على خيرات عقارية مهمة في مقابل خدمتهم. لقد كانت الكنيسة تعظ بدون انقطاع إن الهبات الكريمة المقدمة لها هي الطريق المؤكد للحصول على الأمان الأبدي. في نفس الوقت تحرص على أن الطقوس والعقائد الدينية تظل معقدة لكي لا يمكن لعامة الشعب

فهمها، جاعلة بهذا دورها كوسيط في الصلوات لا يمكن الاستغناء عنه. هكذا نفس المسرحية التي لعبتها الكنيسة الرومانية في العصر الوسيط في أوروبا يعاد لعبها في روسيا.

تفاني الكنيسة في تجميع الأراضي الجديدة، جعل منها أكبر مالك عقاري، وضعية مماثلة لما وصلته الكنيسة الرومانية في أوروبا العصور الوسطى. لكنه في روسيا جاءت متأخرة بعض الشيء، خلال القرن السادس عشر. نهاية المطاف كانت أن رجال الكنيسة صاروا تدريجياً جماعين، الأساقفة وغيرهم من رجال الدين انتهوا باعتناق العقلية الاستحواذية. ومصالحهم صارت مماثلة لمصالح المجموعات الأرستقراطية الأخرى التي تكرس كل جهودها في استقلال عمل الفلاحين والأقنان.

عصر المثقفين استمر في روسيا حتى نهاية القرن الرابع عشر. طالما أن الهيمنة التتارية تبدو قوية وثابتة فإن الكنيسة تجد التقدير وحسد الجميع ـ أمراء، ارستقراط، تجار وفلاحين ـ مع ذلك في منتصف القرن الرابع عشر، المغول، الذين سحقوا حتى ذلك الوقت كل تمرد من الجماهير الروسية، بمساعدة بعض الأمراء والكنيسة، بدأ يظهر عليهم الضعف. أول من استغل هذه الوضعية نجد الليتوانيين، والذين بعد هزيمتهم المغول في حوالي عام 1362، احتلوا كييف وجزءاً مهماً من روسيا الغربية. لو كان الأمراء الروس متحدين تحت راية واحدة لكان بإمكانهم تحرير بلادهم، لكنهم كانوا

كل شيء إلا متحدين. نتج عن هذا أن الهيمنة التي يمارسها المغول على روسيا الشرقية استمرت قرناً آخراً.

قبضة المغول على روسيا تراخت في فجر القرن الخامس عشر، نفوذ المثقفين بالتالي لم يكن أمامه إلا الانهيار. في نفس الوقت المثقفون أنفسهم تطوروا بانتظام ليكونوا في النهاية أرستقراطية عقارية أي جماعين. عصر المثقفين الثعالب الذي بدأ نحو القرن الثاني عشر بلغ نهايته مع وهن السيطرة المغولية في نهاية القرن الرابع عشر.

عصر الجمّاعين الفئران :

بقدر ما ينهار نفوذ المثقفين مع انهيار الهيمنة المغولية في نهاية القرن الرابع عشر، انتقلت السيادة الاجتماعية إلى يد طبقة جديدة، أرستقراطية جديدة، والتي نهضت بفضل قوة ثروتها العقارية. حينئذ هيمنت الروح الاستحواذية على المجتمع الروسي، وهذه الروح بالطبع سمة عصر الجماعين. كيف وصلت روسيا العصر الوسيط إلى هذا؟ كيف الدورة الاجتماعية ـ عند ساركار ـ انتقلت من عصر المثقفين إلى عصر الجماعين؟

إحدى الأحداث السياسية التي ميزت فترة الهيمنة المغولية كانت صعود إمارة موسكو، هذه لم تكن موجودة حتى منتصف القرن الثالث عشر صارت قوة نجحت في نهاية القرن الرابع عشر في توحيد الأجزاء المشتته من روسيا تحت راية واحدة. الفضل يرجع في هذا إلى إيفان الثالث الذي حكم من 1462 ـ 1505، تحت لقب

دوق موسكو الكبير. حاكم براغماتي ذو رؤية مستقبلية.

إيفان لم يكتف بضمان السيطرة على مدن كييف ونوفقورود، ولكن أيضاً بإعلان الاستقلال عام 1480 وضع حداً رسمياً للهيمنة المغولية.

الهيمنة التتارية، مع ذلك، لم تنته بين يوم وليلة، طريق روسيا نحو التحرر كان طويلاً شاقاً وهشاً. لقد أدت إلى إضعاف كبير للكنيسة وإلى صعود سريع للأرستقراطية. الأرستقراطية الجديدة لم تعد تلك الأرستقراطية المقاتلة كما كانت في حقبة كييف، إنها تملك الآن عقلية استحواذية وأراضي وثروات طائلة. سنوات الخضوع لسلطة أجنبية أحبطت قوتهم وذهبت بحيويتهم. بينما الأمراء الذين كانوا في أمس الحاجة إليهم ـ إلى الأرستقراطية ـ أولاً من أجل حروبهم الصغيرة، وثانياً للكفاح ضد المغول، كافؤهم بسخاء بمنحهم الأراضي. لهذا بقدر ما إن صراع الأمراء من أجل الهيمنة يصير حاداً فإن نفوذ الأرستقراطية يزداد بنفس القدر.

مع ذلك، باعتبارهم ملاك أراضي، فإنهم لم يحصلوا على سيادة اجتماعية إلا في القرن الرابع عشر، عندما أخذ نفوذ الكنيسة في الانهيار مع انهيار قوة المغول وعندما استمر الأمراء في طلب دعمهم لمقاتلة أمراء آخرين. هكذا عصر الجماعين، أي المرحلة التي سيطر فيها الملاك العقاريين ـ سواء مدنيين أو دينيين ـ ولد في روسيا في نهاية القرن الرابع عشر. كما في الغرب الإقطاعي، هيمنة

ملاك الأراضي ظهرت بسبب امتلاكهم مساحات شاسعة وبسبب القوة الاقتصادية التي يتيحها ذلك. إنها إذن علامات أكيدة لعصر الجماعين.

الأراضي كانت تزرع، ليس مباشرة من قبل الملاك، وإنما من قبل الفلاحين والعبيد. وكما أن الأرستقراطي حر في اختيار أميره، فإن الفلاحين أحرار ـ في الأصل ـ في الانتقال من مالك إلى آخر. العيوب الاقتصادية لهذا الأمر لم تكن لتخفى عن المالك، والذي يعمل كل جهده للحد من هذ الحراك. مع ذلك حق الفلاحين الشرعي في الانتقال من مالك إلى آخر كان عرفاً لا يمكن انتهاكه تماماً كحق الأرستقراطي. بالنتيجة عمد الأمراء، خاصة أمراء موسكو إلى توقيع اتفاقيات مع الأمراء الآخرين بمقتضاها لا يقبلون الفلاحين الأحرار المنتقلين. فيما يتعلق بالحد من حركة انتقال المزارعين نشير إلى ما قام به ملاك الأراضي من فرض التزامات مالية على المزارعين، كما كان الملاك يطلبون منهم مقابل القروض معدلات فائدة عالية.

هكذا كما في أوروبا الغربية، توليفة من قوى وظروف متعددة أدت إلى قيام عصر الجماعين في روسيا. كان المجتمع آنذاك تحت سيطرة الجماعين: الثروة تصنع القانون في كل مكان. والحكومة كانت لا مركزية، الدولة مشتتة في كيانات صغيرة شبه سيادية. والقانون الخاص ظهر في مكان قانون الدولة.

استمر عصر الجماعين في روسيا عموماً من نهاية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر، ما بين ذلك وقعت أحداث عاصفة وثورات غيرت وجه روسيا. وبينما قضى على الأرستقراطية والأمراء فإن جهاز الحكومة صار مركزياً جداً تحت سلطان أمير موسكو المعروف باسم قيصر.

البلاط الخاص والثورة الاجتماعية:

كما يحدث هذا في كل عصر جماعين فئران، انزلقت روسيا العصور الوسطى ببطء نحو التشتت الاقتصادي واللانظام والغوغائية المتطرفة وهي سمات عصر الشغيلة. نفس الأمر الذي حدث في مصر القديمة قبل ظهور الأمبراطورية الوسيطة، وفي أوروبا الإقطاعية، فإن نهاية عصر الجماعين سبقها تطور نحو المركزية السياسية وعدد من الثورات الاجتماعية وطأة الضرائب الثقيلة، والجزية المستحقة للمغول يقع عبأها على المزارعين بالشراكة وعلى الفلاحين المستقلين وعلى الحرفيين وغيرهم من عامة الناس. بينما الأمراء وملاك الأراضي يرفلون في الرخاء فإن الجماهير كانت تعيش في البؤس. خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر صار الضغط المالي من ملاك الأراضي على الفلاحين شديداً جداً، لدرجة أن الفلاحين الذين كانوا أحراراً تحولوا إلى عبيد. ما بين ذلك نفوذ الأرستقراطية ازداد بقدر ما يزداد طلب أمراء موسكو مساعدتها لإخضاع إمارات أخرى وأمراء آخرين. حكام موسكو حققوا ذلك،

ليس بدون صراع شاق وطويل، ومايتطلبه من خداع ومكر والثروة التي يملكونها. في فجر القرن السادس عشر تم إخضاع كل أمراء روسيا من قبل أمير موسكو الكبير، وبعضهم طرد من أراضيه فلحق بصفوف الأرستقراطية.

هؤلاء الأرستقراط فقدوا أهم مصادر هيمنتهم، وهو التهديد بترك أمير والالتحاق بآخر، ذلك لأن الإدارة السياسية تدعمت تحت سلطة أمير واحد. هذه الأحداث تعلن توتراً من نوع لم تشاهده روسيا من قبل.

كما هو متوقع، الصراع والمواجهة بين الأرستقراطية وحكام موسكو ازدادت حدته في القرن السادس عشر، واستمر بكل سلبياته اللازمة حتى بداية القرن السابع عشر. صعود موسكو إلى القمة السياسية صار أمراً واقعاً عام 1533، وهو تاريخ تولي إيفان الثالث مكان أبيه بازيل الثالث وعمره ثلاث سنوات.

إيفان الثالث، المعروف أكثر باسم إيفان الرهيب، كان ذا طبع غير مستقر وأيضاً مرضي، إنه أحياناً قاسياً ورحيماً في نفس الوقت. لقد كان مقاتلاً، ويؤمن بالانضباط العائلي، حيث هو نفسه يعتبر رئيس العائلة، مع الاختلاف أن عائلته تشمل كل الدولة. لقد كان إيفان بطل الحكم المطلق، هذا المفهوم ورث عن الطغيان المغولي الذي لا زال ـ آنذاك ـ حاضراً في ذاكرة الروس. لقد كان أول أمير يتبنى لقب قيصر والذي كان سابقاً مقصوراً على المغول. مع بعض

الرجوع إلى الخلف يمكننا أن نقول أن الحكم المطلق هو ربما هبة المغول الوحيدة للمجتمع الروسي، والذي لا زال يعاني منه حتى اليوم.

خلال طفولته كان إيفان حاضراً مشاهد عنف بين الجماعات الأرستقراطية المتنازعة على السلطة. لم ينس أبداً الطريقة التي كانت تمزق بها ملابس النساء والاستيلاء على المجوهرات وثروات القصر، وكيف أن أمه نفسها اضطرت دائماً للقتال للحفاظ على حياتها.

عندما بلغ إيفان ستة عشر عاماً عام 1546، وانتزع السلطان من الأرستقراطية، فإنه بمساعدة مجلس من المستشارين الأكفاء تبنى سلسلة من الإصلاحات الهامة والمضادة لنفوذ الأرستقراطية في شؤون الحكومة. كما تم أيضاً وضع حد للسلطة القضائية والضرائبية التي كان يتمتع بها ملاك الأرض الأرستقراط.

طبعه الحذر جعله يشك حتى في مستشاريه، وخلال معارك حرب ليتوانيا كان يعزو كل هزيمة إلى خيانة القادة الأرستقراط عدة من هؤلاء جرى إيقافهم وإعدامهم. هذه السياسة لم تصنع أكثر من صب الزيت على النار، شركاء إيفان أنفسهم صاروا يخشون تقلبات مزاجه.

في ديسمبر عام 1564، إيفان، الذي رتب كل شيء، غادر موسكو سراً إلى مدينة مجاورة، ثم أرسل إلى الشعب رسالة معلناً

فيها نيته التنازل بسبب خداع الأرستقراطية له. إلا أنه، حين استلم طلبات ملحة، والتي كان ينتظرها، من شعبه في موسكو، قبل العودة. لكنه صمم على ممارسة سلطان مطلق لكي يعاقب أولئك الذين خانوه، وأن يصادر أراضيهم، وأن يؤسس إدارة جديدة نظيفة من الأرستقراطية القائمة. الأراضي المصادرة كانت موضوع عقد اجتماعي سمي «أوبريتشنينا» والذي يعني حرفياً «بيت مستقل» أو بلاط خاص.

في البلاط الخاص، كان إيفان سيداً بدون منازع، من بين الجميع كان يثق في النبالة الصغيرة والسماسرة رجال من عامة الشعب. وقد وزع الأراضي التي صادرها من الأرستقراطية على هؤلاء. في المقابل ملاك الأراضي الجدد يلتزمون بالخدمة العسكرية وينخرطون في حرس «البلاط الخاص» وقد وصل عدد هؤلاء إلى ستة آلاف.

في البداية النظام السياسي الجديد كان موجهاً ضد الأرستقراط والذين دفع كثير منهم حياته ثمناً لتطرفهم السابق. إلا أنه فيما بعد نشر حرس البلاط الخاص الرعب حتى صاروا يشكلون تهديداً لحكومة إيفان نفسه. فجرى تسريحهم عام 1571. الأرستقراط آنذاك حصلوا على أراضي جديدة تعويضاً عن أملاكهم التي صودرت منهم قبل ذلك. لكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من الارتقاء في المجتمع.

كيف نفهم الحدث الأساسي الذي يمثله إنشاء البلاط الخاص

حسب مصطلحات نظرية الدورة الاجتماعية؟ وفقاً لمصطلحات ساركار أجد عندي ميلاً، لتفسير هذه الفترة وغيرها التي حدثت في بداية القرن السابع عشر، والتي انتهت بتحطيم الأرستقراطية، على أنها ثورة شغيلة والتي شاركت فيها طبقات اجتماعية دنيا عاشت سنوات طويلة مضطهدة تتكبد جشع وصراعات الأرستقراطية مباشرة أو غير مباشرة.

من المناسب أن نذكر حسب ساركار أن ثورة الشغيلة هي ثورة بواسطتها المقاتلون والمثقفون، وقد تحولوا إلى نمط حياة وتفكير الشغيلة بسبب ممارسات الجماعين، يثورون ضد الجماعين القائمين ويحدثون تغييراً مفاجئاً في الأخلاق والأفكار التقليدية وفيما يتعلق بالنظام السياسي والإجتماعي القائم.

هذا يتضمن شرطين: نجاح تمرد أشخاص لا ينتمون إلى جماعة الجماعين، والظهور المفاجىء لأفكار جديدة. البلاط الخاص يفي بالشرطين: **أولاً** تمرد إيفان وهو مقاتل نمر ضد الأرستقراط، هذا التمرد كان معداً بدقة وعناية. وعندما أعلن تنازله، فإن الأرستقراط وكل المجموعات الأخرى ذات الامتيازات كانت على وعي بالقوة العسكرية، المجندة من جماهير الشعب ـ الشغيلة ـ التي تستعد لدعم إنذاره بواسطة عمل حاسم. لم يكن أمام الأرستقراط من خيار آخر غير الاستسلام.

وثانياً: أكثر من أي إجراء آخر اتخذه إيفان وسابقيه فإن البلاط

الخاص قضى على المكانة الاجتماعية للأرستقراط الجماعين. بالطبع أعيدت لهم بعد ذلك أراضي أخرى، ربما أكثر خصوبة، لكنهم كانوا قد فقدوا حصونهم وبالتالي جرى نفيهم إلى أراضي جديدة في مناطق حيث التقاليد لا تمنحهم وزناً أو على الأقل وزناً قليلاً. التقاليد هي التي تمثل أساس هيمنتهم في المجتمع. من هذا المنظور البلاط الخاص يمكن أن يعبر في روسيا عن ثورة الشغيلة.

من المفيد ربما أن نضيف هنا أنه حسب بعض المؤرخين، الدفع الحقيقي للثورة الاجتماعية ضد الأرستقراطية، جاء ليس من أعلى، من إيفان وإنما من الأدنى: من جماعات أخرى غير الجماعين، حامل لوائها كان بيرسفيتوف المنتمي للطبقة النبيلة الصغيرة. بيرسفيتوف هاجم مراراً بعض مظاهر الهرمية السياسية في موسكو التي كان هو نفسه ضحيتها. بعد تتويج إيفان كتب بيرسفيتوف عدة أبحاث حاثاً القيصر على سحق الأرستقراطية وتكوين حكومة قوية وعادلة تستلهم النظام الإداري التركي، وهو النظام الذي كان بيرسيفيتوف يكن له إعجاباً كبيراً.

الخلاصة هي أن «البلاط الخاص» قد أعدته جماعات أخرى غير الجماعين لمجابهة الامتيازات غير المستحقة والواسعة لأرستقراطية ذات عقلية استحواذية. لقد كانت ثورة شغيلة، صارت عنيفة وتحولت إلى القمع لأن رئيسها، إيفان الرهيب، كان ذا طبيعة عنيفة.

عند موت إيفان عادت المنازعات السياسية والاجتماعية للظهور على السطح، ومرت روسيا بما يعرف عادة بزمن الاضطرابات، والذي يذكر بمرحلة إعادة الترتيبات التي تتلو ثورة الشغيلة. هذه الفترة لم تستغرق إلا خمسة عشر عاماً من 1598 إلى 1613. خلال هذه الفترة من الصراع بين المجموعات الأرستقراطية الذي أخل باستقرار المجتمع سقطت روسيا مرة أخرى في الاضطرابات الثورية والحرب الأهلية. ومع أن المزارعين والعبيد لم يحصلوا على شيء كثير بثورتهم، إلا أن آخر مظاهر قوة الأرستقراطية تم القضاء عليها.

الحكومة القيصرية، الحكم المطلق وعصر المقاتلين النمور:

حتى الآن عرض الوقائع الذي رأيناه يبين أن التجربة التاريخية الروسية تتفق تماماً مع فرضيات ساركار، لقد رأينا أنه طبقاً لقانون الدورة الاجتماعية تطور المجتمع الروسي من عصر المقاتلين النمور إلى عصر المثقفين الثعالب ثم إلى عصر الجماعين الفئران والذي انتهى على يد ثورة اجتماعية ضد الآخيرين. وهذا يتفق مع الدورة الكاملة للدورة الاجتاعية. الآن إذا كانت نظرية ساركار صادقة دائماً فإن دور عصر المقاتلين والمركزية السياسية لا بد وأن يظهرا من جديد.

زمن الاضطرابات وصل نهايته عندما اختير ميشل رومانوف قيصراً عام 1613. وهكذا تأسست أسرة رومانوف التي حكمت روسيا خلال القرون الثلاثة التالية وحتى عام 1918 حيث آخر حكامها، القيصر نيقولا الثاني صرعه البلاشفة الثوار.

في حالة الاضطرابات وعدم الوضوح التام الذي صاحب ثورة الشغيلة يمكن لمجموعة أخرى من غير المقاتلين أن تتوصل إلى السيطرة على النظام، لكنها لا تستطيع البقاء طويلاً في السلطة. وهذا بالضبط ما حدث في روسيا بعد وصول رومانوف الأول إلى منصب القيصر، حيث أن حكومة بيلاريت، أب ميشل وبطريارك الكنيسة لم تستمر إلا أربعة عشر سنة. بعد ذلك محاولة مماثلة من البطريارك نيكون مستهدفاً الاستيلاء على السلطان انتهت بالفشل وأدت إلى سقوطه.

الاتجاه إلى المركزية السياسية، الذي بدأ في القرن الخامس عشر، والذي بعد «البلاط الخاص» بلغ نضجه في عهد إيفان الرهيب، تعرقل مؤقتاً في عهد أوائل أسرة رومانوف. لكن الدولة مع ذلك تتجه نحو شمولية توتاليتارية والتي كان طليعتها أرستقراطية حربية مقاتلة جديدة جاء بعد ذلك عهد سوفي والذي كان قصيراً ولكن حاسماً، جاء بعد سوفي بيير الكبير الذي كانت عنده كل صفات رئيس دولة.

عام 1689 بيير كان شاباً في السابعة عشر من العمر، لكنه كان متحلياً بقوة عضلية كبيرة. بشكل غير اعتيادي وبالنسبة لسنه، كانت ميوله واضحة نحو الانضباط وفنون الحرب. باختصار بيير كان مقاتلاً من الطراز الأول. هذه السمة تفسر لماذا خلال عهده بلغ الحكم المطلق ذرى جديدة. كان يعتقد في مجد الدولة الروسية ويمجدها ولكن ليس الشعب الروسي. القيصر لم يعد رئيساً اسمياً للدولة.

نشاهد آنذاك، إدخال عدة إصلاحات في التجارة وفي الصناعة، ونتج عن هذه الإصلاحات تطور اقتصادي سريع في روسيا.

الجيش أيضاً أعيد تنظيمه حسب المواصفات الغربية، كما أسس بحرية من الطراز الأول.

إحدى نتائج هذه الإصلاحات العسكرية توسع امتيازات النبلاء الجدد. لقد كانوا ملزمين بالخدمات العسكرية أو المدنية، لكن وطأة التكاليف لم تكن دون تعويض: سيطرة النبلاء على الجيش وعلى الأدارة ازدادت بقدر زيادة التكاليف، في نفس الوقت فإنهم يحصلون على حقوق من أراضيهم التي كان يعمل فيها الأقنان. هؤلاء الأقنان كانت عندهم أسباب وجيهة لعدم تقدير الإصلاحات التي في الواقع تقيدهم كعبيد ملاك الأرض. أما ضباط الجيش خصوصاً فرق الحرس فإنهم يجندون أساساً من بين النبلاء هذه الفرق سوف تلعب دوراً حاسماً في التوالي على عرش روسيا.

عصر المقاتلين المرتبط بحكم مطلق مباشر استمر، مع قليل من الانقطاعات. فترات معينة تجعلنا نعتقد أن روسيا تقترب من عصر المثقفين أو من عصر الجماعين، لكنها كانت قصيرة.

لننظر مثلاً في الحكومة غير المباشرة التي مارستها فرق الحرس عند موت بيير عام 1725. القيصر لم يعين أي خليفة له. فكان هناك بالطبع عدة مطالبين بالعرش. السبعة وثلاثون سنة التي تلت ذلك كانت فترة حيرة وانقلابات متكررة.

من عام 1725 إلى عام 1762 شهدت روسيا بوادر عصر الجماعين، لكن معظم النبلاء كانوا منشغلين بتقوية قبضتهم على المزارعين العاملين في أراضيهم.

وقد نجحوا في هدفهم هذا نجاحاً كبيراً، إذ حرم الأقنان من كل الحقوق التي بقيت لهم. في عام 1727 ألغي حتى حق القن في الانخراط في الجيش، وبهذا حرم القن من الفرصة الوحيدة التي تتيح له الهروب من شروط حياته البائسة.

فترة ثورات القصر كانت قصيرة، وصلت نهايتها بوصول كاثرين الثانية إلى الحكم عام 1762 ـ 1796. إن فرق الحرس هي التي حملت كاثرين إلى السلطة، ولكن حالما ضمنت العرش عملت على إحياء الأرستقراطية الملكية. لقد قامت بهذا ممارسة في نفس الوقت سياسة خارجية صلبة واستخدمت نفوذها الملكي في حل صراعات الجماعات السياسية القوية.

لقد كان لديها، بدون شك، عدة أفكار نائرة، لكن القليل منها ترجم في إجراءات مناسبة. لقد كانت أكثر حذراً أو أكثر واقعية من أن تمس أسس سلطانها، على الأقل طالما هذا الأساس لا يشكل تهديداً لسلطانها.

الفضل في إلغاء العبودية يعود إلى القيصر الكسندر الثاني 1855 ـ 1881 والذي في نفس الوقت، مع غيره من الروس الواعين، فهم أنه إن لم يصدر فعل من أعلى، من الدولة، لتحسين شروط حياة

الأقنان فإن فعل بركاني سوف يأتي من أسفل، من المزارعين المستعبدين أنفسهم. من ناحية أخرى الأبتلجنسيا يرون بحق أن استمرار العبودية يسيء إلى سمعة روسيا عند أوروبا الغربية. ولكن عندما تم إلغاء العبودية عام 1861 توجب الأمر تعويض النبلاء عما فقدوه من فوائد عمل العبيد والأقنان، وعن إهمال الأرض التي كان الأقنان يزرعونها لصالح النبلاء. أراضي النبلاء جرى تقسيمها، جزء منها منح للجماعات القروية المسماة «مير» حيث الأقنان المحررون يمكنهم العمل بحرية لحسابهم الخاص ويقرروا بأنفسهم إنتاجهم.

مع ذلك الإصلاح لم يفعل إلا إثارة الاضطرابات في كل الطبقات المعنية: النبالة البخيلة أحست بأنها مستهدفة مع أنها حصلت على تعويضات أكثر من كافية، بينما المزارعون أساءهم عدم امتلاك الأراضي الموزعة، والتي غالباً جذبة، قبل أن يعوض عنها الملاك. وبدلاً من إمكانية دفع إيجارات أو خدمات عينية لملاك الأرض فإن على المزارعين السداد لصالح الحكومة في شكل ضرائب باهظة، لقد صاروا هكذا أقنان الدولة.

في بداية القرن العشرين، الضرائب الباهظة التي تثقل كاهل المزارعين تمثل إحدى الأورام السرطانية التي تنخر النظام الروسي، والأخرى كانت غياب أي تمثيل شعبي في الحكومة. وهذا ما بدأ الضمير الشعبي يعيه مع اتساع التعليم والتصنيع. عدة جماعات سياسية سرية ذات أهداف متنوعة وفلسفات مختلفة تشكلت آنذاك. مع أن هذه الجماعات كانت مختلفة جداً إلا أنها تلتقي في كراهية

الأوتوقراطية وفي الأمل في حكومة تمثيلية مؤسسة على التصويت السري والانتخابات العامة.

البيروقراطية الحكومية والقسم المحافظ من النبلاء الذين جذورهم تكمن في المصالح العقارية، يعارضون هذه الجماعات. في عام 1905، عقب الهزيمة التي ألحقتها اليابان بروسيا تحولت الاضطرابات إلى عنف ثوري، وقادت إلى سلسلة من الاغتيالات السياسية. إلا أنه وقبل أن يفلت منه زمام الأمور تراجع القيصر، وتنازل للمشاعر الشعبية كما قبل بعض الإجراءات: فألغى دين الدولة على المزارعين، وأسس نظاماً تشريعياً من مجلسين مرتبطاً بانتخابات محدودة.

لقد بدأ آنذاك، في فجر القرن العشرين، إن روسيا كانت ناضجة بالنسبة لقدوم عصر مثقفين جديد. بسبب طغيان القيصر فإن عصر المقاتلية كان ينهار منذ بعض الوقت. مع أنها ليست ديمقراطية تماماً فإن انتخابات عام 1906 بدت وكأنها تفتتح عهد ملكية دستورية.

لكن هذا لم يحدث. دروس ثورة 1905 القاسية جرى تناسيها سريعاً من قبل القيصر تحت تأثير الطبقات ذات الامتيازات، ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى عام 1914 وبدت كل محاولة لإجراء إصلاحات جديدة مؤجلة إلى ما لا نهاية.

هكذا كان الوضع في روسيا فجر عام 1917، عندما في مدى بضعة شهور اندلعت ثورتان ألهبتا البلاد وفرضتا عليها من جديد

توتاليتارية رهيبة صار الشعب الروسي المسكين والعاجز ضحيتها. عصر المقاتلين الذي كان على وشك الانهيار استعاد الحياة بقوة تذكر بإرهاب جنكزخان إلا أنه هذه المرة الرعب يأتي من الداخل.

بدون شك روسيا اليوم أو الاتحاد السوڤيتي، يتخبط في المرحلة المنحطة من عصر المقاتلين، وسوف نرى لماذا. مسألة أن عصر ما يكون في مرحلته المتقدمة أو مرحلته المتراجعة لا تتحدد لا بقوة بنية مؤسساته ولا بواسطة قوته العسكرية المخيفة، وإنما بدرجة الاحترام التي تتمتع بها الحريات الإنسانية وبأهمية قيمه الإنسانية. وقبل التطرق إلى ولادة وسقوط الشيوعية الشمولية، فإني أشير إلى صلاحية نظرية الدورة الإجتماعية عند ساركار مطبقة على تاريخ روسيا.

لقد ذكرت أن دولة كييف، التي تعتبر عادة نقطة انطلاق تاريخ روسيا، قد تطورت تحت سمات عصر المقاتلين. أما بداية فترة الرعب التتاري فتحت سمات عصر المثقفين، نهاية فترة الرعب التتاري وحتى منتصف القرن السادس عشر يسمها عصر الجماعين، هذا العصر انتهى على يد ثورة الشغيلة المتضمنة فترة البلاط الخاص. هكذا أنجزت دورة كاملة للدورة الاجتماعية. دورة جديدة بدأت بفترة إعادة ترتيب تلت فترة البلاط الخاص، والتي استمرت حتى «زمن الاضطرابات». مسألة أن إعادة الترتيب هذه استغرقت هذا الوقت ربما تفسر لماذا عصر المقاتلين الجديد، الذي ظهر بعد ذلك، استمر وقتاً طويلاً: الأربع قرون الأخيرة. الحضارة الغربية من

جهتها تمكنت من اللف على الفترة البربرية والغوغائية التي تلت ثورة الشغيلة الخاصة بها. هذا الانتقال من عصر إقطاع جماعين إلى عصر مقاتلين وممالك مركزية تم بهدوء أكبر مما هو الحال في فترة «البلاط الخاص» ربما هذا هو السبب في أن الدورة الاجتماعية تطورت في الغرب أسرع جداً منها في روسيا.

روسيا لينين.. ستالين وخروتشيف:

بعد أن استولى البلاشفة على مقاليد الحكم، توغلت روسيا، التي أنهكتها الحرب العالمية الأولى، أكثر في حالة الغوغائية. لقد أمل لينين أن شعلة الثورة الروسية سوف تعم سريعاً البلدان الرأسمالية المجاورة مثل ألمانيا. والتي عندئذ سوف تساعد الحركة الروسية. مع أن البنية شبه الإقطاعية الروسية لم تكن ناضجة بعد لنجاح ثورة اجتماعية. إذ وفق ماركس الرأسمالية يجب أن تسبق قيام الاشتراكية. بحيث أن ثورة اجتماعية ناجحة كانت من حيث المبدأ غير ممكنة في بلد أقل تصنيعاً كما هو روسيا.

واقعة أن أتباع ماركس استولوا على السلطة أولاً في بلد قليل التصنيع كانت لها نتائج شديدة الوطأة على التطور المقبل للأديولوجيا الماركسية وللمجتمع الروسي. لقد توقع البلاشفة مساعدة من البلدان المصنعة، لكن بدلاً من هذا توجب عليهم مواجهة أعداء في الداخل وفي الخارج، ومواجهة الحرب الأهلية والكارثة الاقتصادية.

في بداية الثورة تحمس البلاشفة كثيراً لتطبيق نظرتهم الماركسية

عن مجتمع المساواة، مثلاً بإقامة سيطرة عمالية على الصناعة، وحكومة لا مركزية، وبالقضاء على التمايز في توزيع الدخول. لقد سمح للفلاحين بالاستيلاء على أراضي الارستقراط، وسمح للعمال بالإستيلاء على المصانع وإدارتها. رواتب مدراء المشاريع والموظفين الكبار في الدولة والفنيين خفضت لمعادلتها بالأجور الإسمية السائدة في المصانع.

هكذا خلال بضعة شهور بدا ممكناً استخلاص إنسانية ماركس من أعماله وتجسيدها في الواقع. لكن كل هذه الرؤى تبخرت عندما اضطر القادة الشيوعيون للقتال لإنقاذ أرواحهم وإنقاذ الثورة الوليدة. معركة الحياة والموت هذه أرغمت البلاشفة على استبدال رقابة العمال على الصناعة بقرارات حكومية مركزية. المدراء السابقون للمصانع وموظفو الدولة القيصرية أعيدو إلى الصناعة وإلى الإدارة، كما أعيدت أجورهم جزئياً إلى حالها الأول على المستوى الاقتصادي النتائج كانت أيضاً مأساوية. بينما العمال يعمهم السخط ويفقدون حماسهم للعمل فإن الحكومة، التي بدون خبرة سابقة، تصدر تعليمات زائفة. لقد حدث ما لا يمكن تفاديه: عام 1921 كل الاقتصاد كان في حالة انهيار، والفلاحين والعمال كانوا على وشك الثورة.

لمواجهة معارضة متزايدة اضطر لينين إلى التراجع، وأقر السياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P والتي تتضمن إعادة العمل بالرأسمالية جزئياً. تحتفظ الحكومة بالسيطرة على الصناعة الثقيلة

والمصارف والمالية والمواصلات والاتصالات، بينما الصناعة الخفيفة والزراعة والتجارة تركت للمشروعات الخاصة. ذلك ليس لأن لينين تخلى عن مطلب نظام اقتصادي سياسي مركزي، لم يتراجع إلا من أجل كسب الوقت وتجميع قواه المحبطة والاعداد لهجوم منسق ضد أولئك الذين يراهم أعداء قضيته.

السياسة الاقتصادية الجديدة لاقت نجاحاً وقتياً، انبعاث جزئي للقطاع الخاص، كذلك سيطرة الدولة على المجالات المتطلبة تمويلاً، لا تستطيع المشروعات الخاصة تقديمه، أتاح للاقتصاد تحقيق تقدم سريع. في مدى خمس سنوات نهضت البلاد من الخراب الاقتصادي الذي أدت إليه الحروب وتدخل الدولة في الحياة الخاصة. لقد فهم الشيوعيون أن حماسهم الثوري ليس معدياً للبلدان الأخرى، وإنهم لن يستطيعوا الحفاظ على الثورة ونشرها قبل أن يقيموا في روسيا بنية اقتصادية قوية.

وهذا ما شرعوا فيه دون الاهتمام بما إذا كان هذا سيؤثر سلباً على مظاهر الحياة الأخرى. ربما تكون النتائج مختلفة لو لم يمت لينين مبكراً ولو لم يسقط الحزب الشيوعي في قبضة ستالين الذي تكشف غول الحكم المطلق. نبؤة ماركس المتعلقة بدكتاتورية البروليتاريا فسرت على أنها دكتاتورية الحزب الشيوعي، وأخيراً دكتاتورية رئيس الحزب في شخصه.

التصنيع السريع تضمن مرحلتين كبيرتين: **أولاً** اليد العاملة

الزراعية والتي تشكل الجزء الأعظم من السكان النشطين حولت إلى يد عاملة صناعية وانتقلت إلى المدن. **وثانياً**: اليد العاملة الصناعية استخدمت في معظمها لإنتاج وسائل الإنتاج. الدولة تحدد الأسعار، وبذلك انتزعت من المزارعين ومن العمال الصناعيين الحد الأعلى من الرأسمال لتمويل الاستثمارات. بينما المنتجات الزراعية حددت لها أسعاراً منخفضة، فإن المنتجات الاستهلاكية الصناعية، والتي كان إنتاجها تحتكره الدولة، حددت لها أسعاراً عالية. يجري إذن الاستغلال الأقصى للفلاحين ولعمال الصناعة للحصول منهم على أقصى فائض من أجل الاستثمار. هذا الفائض يعاد ضخه سنوياً في الصناعة الثقيلة. النتيجة كانت معدلات تصنيع ونمو هائل صاحبه نقص عام في الإنتاجية وتوتر اجتماعي في كل مكان، وبثمن لا يعد ولا يحصى من حياة ملايين الناس. ستالين يستخدم بالطبع ميزات المفهوم الماركسي عن الأخوة الأممية للعمال عندما احتاج لتبرير الإمبريالية السوڤيتية في أوروبا الشرقية.

عند موت ستالين 1953 خيمت الشيوعية على النمط السوڤيتي على كل مظاهر حياة الروس. وفي مناخ من الإرهاب البوليسي خلف خروتشيف ستالين. الاقتصاد الجمعي بالكامل تظهر عليه علامات التوتر: تحت سيطرة الدولة لكنه أبعد من أن يكون فعالاً.

بعد سقوط خروتشيف عام 1966 تكونت الحكومة السوڤيتية من بريجنيف سكرتير الحزب، والوزير الأول، وكوسيجين كرئيس للحكومة. وبينما كان لينين وستالين أبناء الثورة فإن خروتشيف كان

ابن الحرب الأهلية والفترة الأولى من الشيوعية الستالينية. أما الرؤساء الجدد فقد نشأوا في مناخ أكثر هدوءاً من مناخ الاضطرابات وسفك الدم الذي تلى الثورة. تأثير الأديولوجية بالتالي تدنى بينما نفوذ حكومة التكنوقراط يتزايد. وعند موت بريجنيف، بعد فترة أندروبوف ـ تشيرننكو القصيرة، وصل غورباتشيف إلى السلطة. ومن إصلاح إلى إصلاح، محاولاً علاج السخط والتدمير، والحفاظ على وحدة الإمبراطورية رغم التيارات الدينية والعرقية المتناقضة.

المجتمع السوڤيتي المعاصر:

نتيجة عدة تغيرات اقتصادية سياسية اجتماعية حدثت تحت الحكومات الشيوعية المتعاقبة، النظام السوڤيتي المعاصر مختلف جذرياً عما كان عليه في روسيا القيصرية القديمة، أو في روسيا الفترة الثورية: الرباط الوحيد الذي لا زال قائماً يتمثل في أرث الحكم المطلق. وحتى في هذا فإن التصدعات بدأت في الظهور.

الحزب ليس كياناً متجانساً مكوناً من عقائديين ودعاة، لكنه خليط من المصالح المتناقضة وأحياناً المتصارعة، والتي توجد حتماً في المجتمع الصناعي. بينما ما ترتب عن الثورة دمر البنية الجامدة ـ نسبياً ـ للطبقات في روسيا القيصرية، فإن التصنيع الهائل الذي تطور منذ ذاك الحين أدى إلى نمو في أشخاص الإداريين والفنيين المرتبطين بإدارة الحزب، لتصير الطبقة المديرة الجديدة مكونة من علماء، مهندسين، فنانين، أساتذة وآخرين جاؤوا لتضخيم صفوف

النخبة الجديدة. المجتمع السوفيتي الحالي إذن مختلف جداً عما كان عليه منذ بعض الوقت فقط منذ ثلاثة حقب. ارستقراطيته، كما هو الحال في كل مكان من العالم، مشبعة بالمادية.

انتشار التعليم الذي جرى خلال مرحلة التصنيع سبب أيضاً عدم تجانس الحزب وخلق توترات اجتماعية جديدة. في غياب علماء اجتماع وعلماء طبيعة أكفاء فإن الآلة الصناعية كانت تدور بصعوبة، كما أن الأنتلجنسيا ليس سهلاً على الحزب تأطيرها، وهذا ما يجعلها مشبوهة في عيون الحزب، لكنه لا يستطيع بسهولة الاستغناء عنها ولا يستطيع السماح لها بالوصول إلى القمة. مناضلوا الحزب توجب عليهم قبولها كعضو لكي يلموا بعمل نظام اجتماعي اقتصادي صار أكثر فأكثر تعقيداً. هذه المعضلة وجدت جزئياً حلها فيما يعرف بـ«النومينكلاتورا» وهو تصنيف حسب قوائم لأولئك المؤهلين للقيام بالوظائف المهمة. بواسطة هذا النظام فإن الموظفين الكبار وحتى سكرتير الحزب، يحتفظون بوضع اجتماعي متميز. النومينكلاتورا توجد عملياً في كل مستويات حياة السوفييت من أعلى الوظائف إلى أدناها.

بقصر هذه الوظائف على أولئك الواردين في القائمة السرية يضمن قادة الحزب أن خالقي الاضطرابات المحتملين يجدون أنفسهم في وضع يستحيل عليهم فيه الدخول إلى الدائرة الخاصة، إنهم يملكون إذن سلطة أبعاد الرجال المتحلين بالمبادرة والكفاءة والذكاء عن دائرة السلطان.

لهذه الأسباب توصف الإدارة السوڤيتية أحياناً بأنها أوليقارشية تخلد نفسها، هادفة اجتماعياً إلى خلق «جيل جديد من المفوضين» كما يقول بريزنسكي.

إضافة إلى قادة وموظفي الحزب، تشمل النخبة الجديدة الأعضاء المنضبطين من الانتلجنسيا وأيضاً ضباط الجيش والبحرية، بالطبع النخبة وحدها تحصل على الامتيازات والرفاهية: سيارات تلفزيون شقق ودارات فاخرة، والتعليم في مدارس راقية والسفر إلى الخارج. وهو ما يرفض لبقية السكان.

لقد توقفت طويلاً عند الفساد ومادية النظام السوڤيتي حتى أبرهن على أن المجتمع الروسي الحالي يتخبط في المرحلة المتدنية من عصر المقاتلين. إنه يعرض اليوم مظاهر مجتمع يعبر من عصر إلى عصر آخر. ومع أن المثقفين يحصلون كل يوم على أهمية جديدة إلا أننا يمكن أن نتحدث عن مجتمع مقاتلين، أو بدقة أكبر، عن مجتمع ذي أغلبية من المقاتلين في طريق التحول. لا أحد يستطيع الاعتراض على أن الاتحاد السوڤيتي يمر حالياً بعصر المثقفين، لأنه منذ الثورة القادة السوڤييت يتحلون ببعض الصفات الثقافية واستطاعوا إخضاع المقاتلين: الجيش. . البوليس الكي جي بي. بتأطيرهم وفق أديولوجية الحزب. بالطبع منذ الثورة توجب على الجيش الانصياع لأديولوجية الحزب، خاصة في عهد ستالين عندما كان الضباط يخشون هم أيضاً البوليس السري. مع ذلك لا يمكن القول أن المجتمع الروسي المعاصر مجتمع تحت سيطرة المثقفين لأن تماثله

مع النظام القيصري لا زال قائماً. الأسلوب السوڤيتي لا يختلف عن أسلوب بيير الكبير الذي فرض على روسيا التحديث والثقافة الغربية بثمن باهظ من الحياة الإنسانية وبقمع رهيب. خلال السنوات القليلة الماضية فقط بدأت الحكومة مترددة في السماح ببعض الديمقراطية. روسيا ثم الاتحاد السوڤيتي حكمها فيما مضى بتوالي الأوتوقراط: سواء كان اسمه قيصر أو سكرتير الحزب. من هذا المنظور التغيرات التي حدثت منذ سقوط خروتشيف ثم موت بريجنيف تبدو جاذبة للانتباه، لكنها لم تستطع إتاحة القفز نحو عصر المثقفين. المركزية الحادة في السياسة وفي الإدارة تتواصل وتبدي القليل جداً من مظاهر الضعف.

حتى الجيش الذي أخضعه لينين ثم ستالين صدرت عنه علامات الانبعاث. منذ سقوط خروتشيف نفوذ الجيش وسلطانه على مصادر الثروة الوطنية أخذ يزداد بانتظام. البوليس السري أيضاً قُمع. ومسألة أنه من الصعب أن نطبق على المجتمع السوڤيتي المعاصر مقولة تستجيب لتصورات ساركار تعني نفس السبب الذي يجلعنا نقول الآن أن روسيا تعبر مرحلة منهارة من عصر المقاتلين. إذا كان المثقفون في ازدهار فإنهم ليسوا بعد في القمة. في نفس الوقت القادة السوڤيت يظهرون خليطاً من عقلية المثقفين والمقاتلين. من ناحية سجنوا شعبهم في شبكة من التنظيمات والعقائد الجامدة، ومن ناحية أخرى أضيف إليها سيطرة الجيش ـ والأجهزة المماثلة ـ الدائمة. هذه بوضوح أعراض مجتمع مقاتلين يبحث عن نفخة حياة جديدة.

المجتمع الروسي المقبل ـ عصر المثقفين الجديد :

غداة الثورة البلشفية توقع الماركسيون انتشار حماسهم في كل العالم الرأسمالي. الأحداث التالية خيبت توقعاتهم. لكن الشيوعيين الأرتودوكس والمتطرفين استمروا يعتقدون أن الشيوعية هي موجة المستقبل وأن ثورة عالمية قادمة لا يمكن تفاديها.

إذا كانت تنبؤات الماركسيين قد تبينت خاطئة فإن تنبؤات ضد الماركسيين كانت أشد خطأ.

التجربة السوفيتية مآلها الفشل. هذا ما تنبأ به مرات عدة المراقبون الغربيون، بناء على رأي هؤلاء: مع أن النظام يمكن أن تحدث فيه تغيرات استجابة للتوجهات الحالية، فإن سماته الأساسية مثل نظام الحزب الواحد ورأسمالية الدولة، والشكلية العقائدية. . . الخ سوف تبقى بشكل أو بآخر. إنني أميل جزئياً، وجزئياً فقط إلى هذا الرأي فيما يتعلق بمستقبل الاتحاد السوفيتي حتى لو كان هذا الرأي يجد إجماعاً. بالنسبة لي النظام السوفيتي يعكس ليس فقط الصورة التي تتكون حالياً، وإنما أيضاً سمات جذرياً جديدة، والتي تتكشف حين نطبق نظرية الدورة الاجتماعية. في الوقت الحالي، يعيش الشعب الروسي تحت سيطرة ما يمكن تسميته أشباه المقاتلين. بمعنى أولئك الذين يظهرون عقلية مقاتلين معينة وجزئياً أيضاً عقلية ثقافية. سلطانهم يقوم على الكذب العقائدي وعلى التأطير السياسي المفرط للمواطنين. في نفس الوقت القادة السوفييت هم أبطال

الانضباط الاجتماعي وسيطرة الحزب المطلقة. إنهم يشكلون تنوعاً خليطاً. مسألة أن روسيا حالياً محكومة بواسطة أشباه مقاتلين ليست مثيرة للاستغراب لأنها اليوم تتخبط في المرحلة النهائية لعصر المقاتلين، وهي هكذا منذ عدة أجيال.

وفق مصطلحات توينبي، يشكل قادتها أقلية مهنية والتي لا تهتم إلا ببقائها ومكتسباتها الشخصية على حساب الطبقات الأخرى. إذا أخذنا في الاعتبار قانون الدورة الاجتاعية فإن التغيير منتظر منذ وقت طويل كما أشرنا إلى ذلك. عصر المثقفين الجديد يمكنه الظهور في أية لحظة في المستقبل القريب. هذا يمكن أن يستغرق عدة أجيال، لكن من المحتمل جداً أن المجتمع يرفض قريباً العبودية المفروضة عليه من قبل أشباه المقاتلين، ويتجه نحو مجتمع يقوده المثقفون. إن هذا على كل حال منطق نظرية الدورة الاجتماعية.

الجماعة التي ترد في رأس القائمة لتولي السلطان، طبقة المثقفين كانت ضحية الظلم المتواصل خلال أكثر من ثلثمائة عام، وأكثر تحت النظام السوڤيتي منه تحت النظام القيصري. هذا المؤشر المتوقع على أن مجتمعاً جديداً يمكنه الولادة عندما يحين الوقت. لأنه من المعتاد أن الجماعة التي تناضل ضد الطائفة المسيطرة في عصر معين هي التي ترث السلطان في العصر التالي. قانون الدورة الاجتماعية يجد جذوره في التطور الإنساني. إذا كان التطور لازماً فإن التغير الاجتماعي لازم أيضاً حسب هذا القانون.

في عهد القيصرية، الجماعة التي تعاني أكثر تشمل العمال المستعبدين المنهكين في الأراضي المملوكة لموظفي الدولة والنبالة العسكرية، بمعنى آخر الأقنان أو الشغيلة، الذين يعانون أكثر من الظلم والقمع. هذا لم يكن غير معتاد، لأن العمال اليدويين هم ضحايا الاضطهاد في كل مراحل الدورة الاجتماعية تقريباً. المثقفون، رجال الكنيسة أو غيرهم كانوا أقل اضطهاداً. في القرن السابع عشر كان ثمة اعتقاد شائع بين رجال الدين وفقه أن الكنيسة الروسية لم تقد أبداً الشعب، وإن مآسي البلاد جاءت أساساً من عدم إحساس وجمود رجال الدين، وإنه من الضروري إجراء إصلاحات دينية. نيكون، بطرياركا من عام 1653 إلى 1656 أدخل عدة تغييرات في الطقوس الدينية، لكن هذه الإصلاحات لم يقبلها رجال الدين المحافظون. وقد اتخذ القيصر إجراءات قاسية ضد المعترضين، الذين صار يطلق عليهم «المؤمنون القدماء» زعيمهم أفاكوم أحرق حياً وكذلك عدة آخرين منهم. القسوة ضد «المؤمنين القدماء» استمرت حتى القرن الثامن عشر.

مع ذلك الصدمات الأقوى كانت قادمة. من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر جرى قمع مختلف المنشقين. لكن الدين على الأقل لا زال على قيد الحياة. رغم همهمات الإلحاد ضرورة الدين لم تكن موضع سؤال. من بعض النواحي لا زالت الكنيسة قوية مستعدة لتحمل أعباء القيادة المعنوية للمجتمع. في القرن التاسع عشر استعادت مكانتها بفضل بعض رؤسائها المشهورين الذين

يحظون باحترام الجمهور بسبب حياتهم وفق المبادىء النقية السامية.

بعد ثورة 1917 واجهت الكنيسة خطر انحلالها، ماركس، ملهم الشيوعيين يعتبر الدين أفيون الشعب، استغلال الإنسانية والذي يجب التخلص منه. بعد الثورة، الأديرة والأكاديميات الدينية أُمرت بغلق أبوابها، كما جرى تأميم أملاك الكنيسة. عدة أساقفة جرى توقيفهم أو اغتيالهم، رغم هذا الاضطهاد ورغم الدعاية الحكومية ضد الأديان، فإن الدين استمر على قيد الحياة في روسيا الشيوعية. أقلية مهمة لا زالت تؤمن بالله وتحمي بعض الكنائس النادرة التي بقيت(*).

منذ حوالي قرنين ونصف وضع الأدب الروسي تحت الرقابة الصارمة، سواء تحت النظام القيصري كما في النظام الشيوعي. الكتاب الذين لا يتقيدون بالمواصفات الرسمية يواجهون القمع من قبل لجان الرقابة. سواء بواسطة النقد الأدبي الذي لا نهاية له أو بالتهديد بالعقوبة الجسدية أو بالإثنين معاً. إنه نظام رقابة يتطور في روسيا القيصرية منذ القرن الثامن عشر.

الرقابة استمرت في عهد الحكومة السوڤيتية، مع الاختلاف إنها في روسيا القيصرية كانت معلنة ويختص بها وزير دولة، بينما في

(*) الدعاية ضد الإسلام كانت أشد لأنها تعبر، إلى جاب الموقف الرسمي ضد الدين، عن اختلاف عرقي إذ إن أغلب المسلمين من أعراق ليست روسية ولأن الإسلام كان حاجزاً منع تذويب المسلمين في المجتمع الروسي وحافظ على هويتهم ضد الهيمنة الأمبيريالية الروسية. المترجم.

روسيا الشيوعية مقنعة تختفي تحت شعارات عدة. الدستور السوڤيتي يكفل حرية الصحافة، والرقابة رسمياً لا وجود لها. في مكانها حلت لجنة حكومية باسم «قلافليت». وهي الإدارة الرئيسية في كل ما يتعلق بنشر الأعمال الأدبية. مع كل هذا قادة الاتحاد السوڤيتي مكلفون من أكبرهم إلى أصغرهم شخصياً بالرقابة على كل ما يرونه مناقضاً لرفاهية البروليتاريا.

في الغرب كثيراً ما ظهرت ردود أفعال نحو ما يظهره الاتحاد السوڤيتي من استخفاف بحقوق المواطنين الأساسية.

مع أن السلطات إلى أساليب القوة ضد الكتاب غير المنضبطين، فإن المعارضة الثقافية تبنت يقظة وزهد الدين الروسي. منذ عام 1966 عدد من الكتاب الشباب فضلوا الكتابة والنشر بكل حرية، حوكموا وجرى إقناعهم بأنهم يمارسون أنشطة ضد ـ سوڤيتيه. وحرموا من وظائفهم، أو سجنوا وأحياناً أدخلوا مصحات المجانين. من سولجنتسين إلى الكسندر فينسبورغ، حكاية المنشقين في مواجهة الطغيان الرسمي طويلة.

المثقفون ـ رجال الدين والأنتلجنسيا ـ كانوا ضحايا الاضطهاد خلال الجزء الأعظم من عصر المقاتلين الجديد الجاري في روسيا منذ أربعة قرون. هذه الظاهرة تعرض بعض التشابه مع قمع المسيحية من قبل الرومان خلال الثلاث قرون الأولى التي أعقبت ميلاد المسيح. من كان يتخيل آنذاك أن قادة المسيحية سوف يمارسون

يوماً سلطانهم على الدولة الرومانية الواسعة؟! مع ذلك مثقفوا الغرب ورثوا سلطان المقاتلين بشكل لا يمكن تفاديه بقدر أنه لم يكن ممكناً تفادي انهيار الامبراطورية الرومانية.

الدورة الاجتماعية تطورت في روسيا بسرعة السلحفاة، على الأقل مقارنة بما حدث في الهند وفي العالم الغربي. وهذا هو السبب الذي جعل عصر المقاتلين لا زال قائماً في روسيا. إنه القمع الوحشي للمثقفين من قبل المقاتلين، لكن أيام عصر المقاتلين صارت معدودة. آجلاً أو عاجلاً لا بد وأن يحدث التغيير. ليس من السهل أو ممكناً تصور إجراءات محددة بدقة تحفز المجتمع الروسي لكي يعبر إلى عصر المثقفين. ولكن بما أن حركة كهذه من غير الممكن تفاديها فإن رفع المنشقين على الأكتاف سوف يسارع بموت النظام الحالي.

هل سيأتي العصر الجديد سلمياً أو من خلال العنف؟ أو لكي نستعمل مصطلحات ساركار: هل سيكون هناك تطور أم ثورة مثقفين؟ أعتقد من جانبي أن التغيير في الاتحاد السوڤيتي سيكون سريعاً وعنيفاً، لكنه لن يكون بالضرورة ثورياً، ذلك لأن بعض سمات النظام المقبل في روسيا قد ظهرت على السطح منذ الآن. وهذا ليس نادراً، لأن الغلاف الخارجي للحكومة والإدارة في عصر المقاتلين يبقى كما هو إلى حد ما في عصر المثقفين. لكن إن ظل البناء السياسي قائماً فإن كفة السلطان ستميل نحو المثقفين الذين سيحكمون باسم الحاكم الظاهر.

لنطبق هذا المبدأ على تطور الاتحاد السوڤيتي: منذ الثورة حكمت البلاد من قبل سكرتير الحزب، والذي كما جسده لينين ثم ستالين، هو الأديولوجي العظيم والأداري الكبير. هذه الوظائف أخذت تتميز عن بعضها منذ موت ستالين. اليوم سكرتير الحزب لم يعد الأديولوجي العظيم ولا رئيس الإدارة. لكنه لا زال أكبر شخصيات الدولة، الأول بين نظرائه، إنه رئيس المكتب السياسي وأمانة الحزب، وهما مؤسستان يمثلان السلطان والمراكز الحساسة للحزب وبالتالي المجتمع السوڤيتي. في عصر المثقفين القادم لن يكون الحال على هذا النحو، سكرتير الحزب، القائد الحالي الحقيقي والظاهري سيكون مسؤولاً أمام رئيس الحكومة. ليس لأن الدستور الحالي أو لأن نظام الحكومة تكبد فساداً أساسياً، وإنما ببساطة لأن الحزب الذي حتى الآن مسيطراً سوف يفقد الكثير من نفوذه. الدستور الذي حتى الآن ليس صالحاً إلا نظرياً سيكون له دوراً إيجابياً. كما أن السوڤييت الأعلى سوف يتأكد باعتباره جهازاً قيادياً.

النظام السوڤيتي سوف يهيمن عليه الانتلجنسيا، والرئيس سيكون عبقرياً في فن الخطابة وفن توازن المصالح المختلفة لمختلف الجماعات التي تكونت. في المستوى السياسي مجتمع المستقبل السوڤيتي يذكرنا بالنظام البرلماني البريطاني الذي تطور مباشرة بعد الثورة المجيدة. عصر المثقفين السوڤييت لن يكون ديمقراطياً ـ على الأقل ـ وفق المعايير الغربية الحالية. لكنه سيكون أكثر لا مركزية من

النظام الحالي. رئيس الحكومة سيكون أكثر مسؤولية أمام السوڤييت الأعلى وبالتالي أمام الشعب. الإدارة أيضاً تصير أقل مركزية في كل المجالات. كما أن اتخاذ القرار «الإقليمي» فيما يتعلق بالاقتصاد يتيح استقلالية أكبر من مستوى المبادرات الجماعة الثقافية لن تكون خاضعة للرقابة والمضايقات والاضطهاد. لكن حرية التفكير، حرية الصحافة وحرية التعبير ستظل بعيدة عن المعايير الغربية الحديثة.

أكبر الخاسرين في هذا التغيير سيكونون أشباه المقاتلين الذين يمثلون القوة الحالية للحزب والجماعات العسكرية الحقيقية مثل البوليس السري والجيش. ولن تخصص مصادر هامة للصناعة الثقيلة ولا للمؤسسات العسكرية. المستهلك سيشاهد ارتفاعاً عاماً في مستوى الحياة لكن الانتلجنسيا ستكون الرابح الأكبر. وبالمقارنة ظروف العمال الصناعيين والفلاحين لن تتحسن إلا قليلاً.

سلطة الوزير الأول سوف تبرر بتفسيرات جديدة، وكالعادة تقودها المصالح، مما يعيق روح وجوهر الماركسية إن لم يعق مظاهرها الخارجية في هذا النوع من العمل خاصة يكون المثقفون أكثر كفاءة. لا أحد يجب أن يندهش، إذا في المستقبل وجد المفكرون السوڤييت مخرجاً لتبرير الملكية الخاصة وجاذبية الربح. باختصار الحالة الثقافية الروسية لن تكون شمولية ـ توتاليتارية ـ ولن تحتفظ أيضاً بالتفسير الحالي للشيوعية الماركسية. يعني هذا في الحقيقة سقوط الشيوعية التوتاليتارية والتي سوف تستبدل ببنية لا مركزية حتى وإن لم تصل هذه اللامركزية مستواها اليوم في الغرب.

إنه من الممكن أن سيناريو المستقبل الروسي الذي عرضته لن يتجسد بالكامل. هذا لن يكون أول خطأ. ذلك لأن عدد من التوقعات في هذا المجال، في الماضي، لم يتحقق. من الممكن أن تنبؤاتي لن تتحقق في كل تفاصيلها، لكن شيئاً مع ذلك مؤكد: المجتمع الروسي يتطور حالياً نحو عصر لن يتميز بهيمنة المقاتلين بل بهيمنة المثقفين.

بالنتيجة النظام الحالي لأشباه المقاتلين محكوم عليه بالأفول في مستقبل قريب.

لماذا المجتمع الروسي اليوم أكثر نضجاً لعصر المثقفين مما كان عليه فجر القرن العشرين؟

على كل حال النظام الحالي لا يضطهد الشعب أكثر مما كانت تفعله دولة القيصر. إذن ليس من الممكن، آخذاً في الاعتبار تقاليد الحكم المطلق العريقة في روسيا، إن الشيوعية التوتاليتارية تستطيع البقاء أو الاستمرار قدر ما نستطيع التنبؤ بالمستقبل؟ جوابي لا. صحيح إنه في فجر القرن العشرين تبدي روسيا كل أعراض التمزقات الداخلية، لكن عصر المثقفين ليس في متناول يدها، ببساطة لأن قاعدة واسعة من المثقفين لم تكن معدة. بالطبع ناضل المثقفون الروس وقتاً طويلاً، لكنهم كانوا يمثلون أقلية صغيرة وسط شعب أمي بشكل يثير الاستغراب. لا الكنيسة ولا المثقفين كانوا قادرين على قيادة المجتمع في تخبطه. نتج عن هذا إنه رغم انهيار البناء

القيصري الذي كنسته الموجة الأولى من الهجوم البلشفي فإن أرث الحكم المطلق عاش لينيخ بعد ذلك على المواطنين.

المجتمع السوفيتي اليوم مختلف جذرياً، فكل الشعب تقريباً صار ملمّاً بالقراءة والكتابة، القاعدة التي يمكن أن تستند إليها حكومة المثقفين موجودة. وعندما الطلاق الخفي بين الدولة ورعاياها يصير عينياً، ويتحول فجأة إلى احتجاج مفتوح وبقدر كبير، عندئذ من الممكن أننا لن ننتظر وقتاً طويلاً. التغير الذي ينتج عنه سيجعل روسيا تدخل عصر المثقفين.. فهو بكل بساطة لا يمكن تفاديه.

مراجع

1 - ج. د كلاركسون - **تاريخ روسيا** - نيويورك - 1961.

2 - ج. ب. فيدوتوف - **العقل الديني الروسي** - جامعة هارفارد - 1946.

3 - م. ت. فلورينسكي - **روسيا: تاريخ وتفسيرات** - نيويورك - 1953.

4 - ريتشارد بيب - **روسيا في العهد القديم** - نيويورك - 1974

5 - ن.ف. ريازانوفسكي - **تاريخ روسيا** - لندن - 1969

6 - جورج فيرناوسكي - **تاريخ روسيا** - نيوهافين - 1975

7 - د.م. ولاس - **روسيا** - نيويورك - 1905

8 ـ ز. بريزنسكي ـ **معضلة التغيير في السياسة السوفيتية** ـ نيويورك ـ 1969

9 ـ هيدريك سميث ـ **الروس** ـ نيويورك ـ 1976

6 ـ الحضارة الهندية

المجتمع المسمى هندي، والذي أنتج ما تدعونه حضارة هندية ترجع أصوله إلى عام 2500ق.م. تقريباً. آثار هذه الحضارة تدل على أن المجتمع الهندي بلغ قمة ازدهاره خلال فترة تقع ما بين 2500 و2000ق.م. ومن حيث إنجازاته فإنه قريب من الثقافة المعاصرة له في مصر وفي بلاد الرافدين. والتي له معها فيما يبدو بعض الاتصال وعلاقات تجارية. نحو 1500ق.م. وادي الهندوس غزته قبائل شبه رعوية لشعب يسمى هندو ـ آري. والذين تسربوا عن طريق أفغانستان. ثقافة الهنود المحليين تلاشت تحت وطأة الناهبين الأجانب، والذين أحضروا معهم ديناً وقيماً اجتماعية ومؤسسات مختلفة. إلى هؤلاء الآريين تعزي ولادة ما يسمى اليوم حضارة هندية.

مثل المجتمع المصري، الشعب الهندي القديم ـ إقليم شاسع صار الحديث عنه ما لو أنه شبه قارة ـ مر أيضاً بأوقات عصيبة،

أزمنة مجد وفترات انهيار، غزوات بربرية وصراعات داخلية. مع ذلك بالاختلاف عن الثقافة المصرية القديمة، آلة، تبحث عن الخلود في الحجارة، فإن الثقافة الهندية عاشت رغم الخراب الذي سببه الإنسان والزمن. والفضل في هذا يرجع إلى الظهور المتكرر لحكماء يلهمون الآخرين بفضل زهدهم. فبفضل أفكارهم الكونية ظل المجتمع الهندي دائماً حياً. مع أنه خلال الألف سنة الأخيرة اضطر إلى مواجهة سلسلة من الصراعات.

مع أن تاريخ شبه القارة الهندية، التي تشمل الأمم الحديثة في الهند وباكستان وبنقالادش ونابل وبيرامني وأفغانستان، بحثه يتبدى أقل سهولة من غيره، فإننا نرى أنه أيضاً تنطبق عليه الدورة الاجتماعية. عن مجتمع الهندو نحن لا نعرف ما يكفي لكن نتحقق من فرضية ساركار، ولكن بالنسبة للنظام الذي تلاه في عصر الفيدا وما بعده، فإن الكتابات القديمة تلقي ما يكفي من الضوء يسمح بالصعود حتى عام 1500ق.م.

عصر الفيدا ومرحلة المقاتلين:

الأعمال الأدبية الأولى للهنود الآريين معروفة تحت اسم عام هو الفيدا أو مجموعة من الأناشيد والصلوات والتعازيم. وفقاً للسمات اللغوية يبدو أن الريق فيدا قد جرى تأليفها في وقت ما بين 1500 ـ 1200ق.م. أما الفيدا الأحدث فنحو عام 800ق.م. الإطار الاجتماعي الذي ترتبط به الفيدا يختلف كثيراً عن الفيدا والبراهما

الأحدث. ومن المعتاد الربط بين فترة الريق فيدا وعصر الفيدا.

ماذا نجد في الريق فيدا؟ لا شيء غير الصفات المعتادة لمجتمع مقاتلين شاب، مجتمع طوائف، والتي كل منها منظم حول قيادة ذكر أو مجموعة من الذكور من ذوي الروح القتالية. الريق فيدا تعطينا لمحات عن الطريقة التي بها الآريون نكلوا بسكان وادي الهندو، وعن تكرار الحروب بين القبائل الآرية نفسها، وعن الطريقة التي بها كل هذا أتاح سيطرة عدد صغير من رؤساء القبائل، بعض هؤلاء الرؤساء كانوا يُعينون، بينما البعض الآخر كان يجري انتخابه. لكنهم جميعاً يجب أن يكونوا رجالاً أقوياء جسدياً وشجعاناً. هاتان الصفتان لازمتان للأمن والدفاع.

«المملكة عموماً كانت صغيرة الحجم. لكن بعض فقرات الريق فيدا تشير إلى هيمنة أحد الملوك على ملوك آخرين، وإلى مقدار ثروته.. نجد من الريق فيدا مصطلح «سامرات» والذي يعني امبراطوراً وذلك في فترة أحدث. وكذلك نجد تعبيراً يعني «رئيس العالم كله» أياً كان الأمر لم يكن الملك دائماً رئيس صغير لقبيلة، إنه يحتل أحياناً وضعاً أعلى والذي يميزه جذرياً عن وضع الشعب».

سؤال عندئذ يطرح نفسه: هل يتمتع الملك والمقاتلين بمكانة سامية في المجتمع الآري القديم؟ الجواب ليس أبداً واضحاً. ذلك لأن نظام الطوائف الهندي الشهير، والذي يغزو للبراهما أو القسيس أعلى مكانة اجتماعية هو أيضاً قديم جداً. وإذا صدقنا ما يراه البعض

فإنه قديم قدم الريق فيدا نفسها. إذا كان هذا صحيحاً فإننا لا نستطيع ـ دون مخاطرة ـ اعتبار مرحلة الفيدا مرحلة مقاتلين في الحضارة الهندية.

يعتقد كثيرون أن نظام الطوائف قد تطور أساساً في عصر البراهما، الذي ظهر عدة قرون بعد ذلك. في نظام الطوائف الهندي، والذي هو وهذا لا يثير العجب، اختراع ماكر من الطبقة الكهنوتية. البراهما موقعه في قمة الهرم الاجتماعي، تليه طبقة المقاتلين، ثم طبقة الحرفيين والربويين، وأخيراً طبقة العمال اليدويين. خلال العصور، هذه الطبقات صارت وراثية، مع أنها في الأصل قامت فقط على الكفاءة والحرفة.

يجب أن نميز بين مفهوم ساركار عن الأنماط العقلية الإنسانية الأربع والنظام الرباعي للطوائف الهندية، حتى لا نخلط بين مفهوم ساركار وبين نظام الطوائف.

الاختلاف بين المثقف والبراهما واضح: البراهما هو قسيس هندي مع أن المثقف يمكن أن يكون قسيساً أو غيره ممن يعتمدون على الذكاء لحماية مصالحهم. في الهند المقاتل يدعى تشتريا والذي يجب تمييزه عن المقاتل عند ساركار. عند ساركار يمكن أن يكون مقاتلاً أو أي شخص آخر ذا يقظة مستعد لمواجهة المشاكل في معركة مباشرة أكثر من اعتماده على غيره. نفس الشيء في نظام الطوائف المهنيون والربويون يدعون فيشايا والذين يجب تمييزهم عن

الجماعين عند ساركار. عند ساركار يظهر الأخيرون عقلية موجهة بقوة نحو الاستحواذ على الثروة.

حسب ساركار، المهني أو كل عامل مؤهل، هو مقاتل، بينما في نظام الطوائف يكون فيشايا. أما بالنسبة لتعريف الشغيل فإن ساركار يتفق مع مفهومه القائم في نظام الطوائف لأن الشغيل في الحالتين هو العامل غير المؤهل. لكن بينما نظام الطوائف يحتقر الشغيل معتبراً شقاءه على أنه وراثي، ويتأمر عليه لكي ينزل به كل التعاسة، فإن ساركار ينهض ضد هذا الاضطهاد العتيق الذي يمارس ليس فقط في الهند ولكن أيضاً في كل الحضارات. من وجهة نظره الشغيلة هم العمود الفقري لكل نظام اقتصادي ولكل نظام اجتماعي. مع ذلك هم الذين يجري استغلالهم بلا رحمة من قبل الطبقات الأخرى في العالم كله منذ فجر الحضارات. مهما كان الأمر فإن تصنيفات ساركار تسمح بتغيير العقلية، إذ من الممكن أن الشغيل يصير مقاتلاً أو مثقفاً، كما أن هؤلاء يمكن أن يصيروا شغيلة وفقاً لتصرفاتهم. بالعكس نظام الطوائف جامد، مع أن قبضته الآن تتراخى عن المجتمع الهندي.

هكذا نلاحظ في بداية مرحلة الفيدا تمييزات طبقية وليست طائفية، تمييزات أيضاً مألوفة عند الفرس الأوائل والشعوب الأخرى. نظراً لأن نظام الطوائف لم يكن آنذاك متطوراً فإنه لم يكن من الممكن سيطرة رجال الدين على الملك المقاتل ببساطة لم يوجد قساوسة فهؤلاء كانوا يخضعون للملك. لم يكن الملك أعلى من

وزرائه ومستشاريه الدينيين فقط وإنما أيضاً طبقة المقاتلين في مجموعها كانت تحتل درجة أعلى من طبقة القساوسة. الريق فيدا التي ألفها القساوسة تؤكد بانتظام هذا الانطباع.

لا يمكننا بدقة تحديد إن كانت امبراطورية واسعة أو مملكة كبيرة قد تكونت في ذلك الوقت. بالنسبة للنظام السياسي وصفات الحكام فإن الهند، في تلك الفترة، تتشابه مع الممالك المصرية فترة ما قبل الأُسر. إنها بداية عصر المقاتلين. وسلطة الدارما، أو القانون الأخلاقي، كان لها قوة القانون. بالطبع الملك موقعه أعلى من عامة الناس ومن القساوسة ومن كل مؤسسة أخرى. لكن من المفترض أنه يحكم ليس فقط لضمان الأمن وإنما أيضاً من أجل الازدهار والرفاهية العامة، هذه هي المبادىء السياسية لذلك العصر.

بما أن المجتمع الآري كان مجتمع مقاتلين، فإن المرأة تمتعت فيه بوضع اجتماعي عالي. مع أن الأسرة تقوم على مبادىء بطرياركية قاسية، والتي تعزوا للأب سلطة مطلقة على أطفاله، فإن المرأة لم تتكبد أي تابو ـ محرمات ـ من تلك التي اضطهدتها بعد ذلك. زواج الأطفال كان ممنوعاً، ساتي، وهي العادة التي تجبر المرأة الأرملة على التضحية بنفسها في محرقة زوجها، لم تكن معروفة، والزواج بين أعضاء طبقات مختلفة كان مألوفاً. في بدايته كان المجتمع الآري بدون محرمات، فيه مسموح للمرأة بالاختلاط الحر مع الرجال، ولم يفرض عليهن غطاء وجوههن كما تستطيع المرأة المشاركة بحرية في الطقوس العائلية وفي الاحتفالات الدينية

الأخرى. وحتى تعدد الزوجات، الذي كان وباء كل مجتمعات العصور الوسطى لم يكن عملياً له وجود في الهند آنذاك.

عصر البراهما ومرحلة المثقفين:

يوجد اختلاف واضح بين اللوحة التي ترسمها الريق فيدا للمجتمع وتلك التي تقدمها الفيداس الأكثر حداثة والبراهما. لهذا السبب دراسة الثقافة الآرية قسمت بحق إلى قسمين: مرحلة الريق فيدا وعصر البراهما الذي تلاها. إنه العصر الذي فيه القسيس أو البراهما وصل إلى مقدمة المجتمع. أما المقاتلين - دون الحديث عن الطبقات الأخرى - فقد صاروا في وضع أدنى بالنسبة للبراهما. كما أن النساء بدأن يشعرن بوطأة الحقنات الكهنوتية. ونظام الطوائف بدأ في الظهور عينياً. كل هذا يتفق تماماً مع الوصف الذي يقدمه ساركار لعصر المثقفين.

المؤرخون يجدون صعوبة في تفسير لماذا، وفي بلد مثل الهند، حيث الدين يطبع الوعي الاجتماعي منذ قرون، أي تنظيم كهنوتي مثل رجال الدين المصريين أو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لم ير النور؟! في الواقع لأن ذلك لم يكن ضرورياً ذلك لأن مكانه احتله نظام الطوائف العتيد الذي لم يتمكن من الوجود في الحضارات الأخرى.

نظام الطوائف فعل في الهند ما فعله رجال الدين أو الكنيسة في البلدان الأخرى. بمعنى أنه دعى وعمل لضمان هيمنة الطبقة

الكهنوتية على الطبقات الأخرى. والبراهما يضع كل ذكائه في خدمة مصالحه الخاصة تماماً كما فعل نظرائه في مصر القديمة وفي أوروبا.

خلال المرحلة التالية على الريق فيدا. والتي استمرت عموماً من 1000 إلى 600ق.م. ترك الآريون تدريجياً معاقلهم في البنجاب الغربي ليتجهوا نحو الشرق والجنوب، حتى تم لهم احتلال كل الهند الشمالي. هذا التوسع أدى إلى تكوين ممالك كبرى. القبائل القديمة اندمجت لينتج عن اندماجها ولادة دول جديدة. لهذا صار القتال من أجل أهداف كبيرة، والنصر بدًا أنه لا يتوقف فقط على البطولة، وعلى الشجاعة، ولكن أيضاً لتدخل الآلهة فيه نصيب وكذلك القساوسة. القساوسة وميزتهم إنجاز التضحيات الطقوسية صاروا مطلوبين أكثر من أي وقت مضى. هكذا اتساع الممالك قاد إلى ترفيع البراهما الذين عملوا على سجن المجتمع بكامله في نسيج من الطقوس والعقائد المفسرة لأصل الملَكية ومهن أخرى.

«الحياة الحضرية أتاحت تقسيم شعب الفيدا إلى أربع طوائف البراهما الذين يشكلون في الأصل أحد ستة عشر نمطاً من القساوسة، صاروا مهيمنين، وطالبوا بامتيازات اجتاعية وسياسية في الطقوس التي كانوا يؤلفونها».

بينما قبل المقاتلون البقاء في ظل البراهما، فإن الطبقتين الآخرتين توجب عليهما تحمل النتائج القاسية لنظام الطوائف. مع ذلك يبدو أن المقاتلين لم يقدموا للبراهما المكانة العالية على طبق من ذهب. من المعتقد أن ثمة صراع طويل قد دار حول السيادة بين

الطبقتين العاليتين. أما المهنيون والمزارعون المساكين الذين يشقون من أجل بقية المجتمع فلم يكونوا في مستوى مواجهة البراهما الماكرين. اضطروا إلى التسليم قبل بداية المعركة. لأن القسيس الفطن تغلب على تردد الملوك بأن منح هؤلاء السلطة ومكانة نصف إله.

ولتأبيد سلطتهم والحيلولة دون ثورة الطبقات الدنيا، استخدم البراهما نظرية الكارما ونظرية «تحولات الروح». نظرية الكارما تذهب إلى أن كل فعل يحمل ثماره وردة فعله، وإن وضعنا الحالي هو نتاج أفعالنا الماضية، ومستقبلنا تحدده أفعالنا الحاضرة، أما نظرية تحولات الروح فإنها تفترض أن الروح تنتقل من حياة إلى أخرى حتى تستنفد ثمار كل أفعالها، عندئذ تصل إلى الانعتاق وتعود إلى حالتها الأولى من السعادة الأبدية.

التصور الذي اختار البراهما التركيز عليه، كان ذلك الذي يعزو ولادة شخص ما في طائفة دنيا إلى مساوىء حياته السابقة متجاهلين تماماً أن المستقبل القريب، وليس الحياة المستقبلية يمكن أن يكون أفضل بواسطة أفعال الحاضر. لكن البنية تهدف إلى تحبيط الإصلاح الاجتماعي والذي اعتبر تمرد ضد النظام القائم والمقدس الذي وضعته الآلهة من أجل خير كل أعضاء المجتمع. هكذا البراهما، يستغل من ناحية الطوائف الدنيا، ويغرقها في أحكامه البليغة، ومن ناحية أخرى، يوصيها ألا تبكي، وألا تحتج، وأن ترضى بشروط حياتها الوضيعة، بإقناعها أنها في هذا لا تلوم غير نفسها. في نفس

الوقت يضمن البراهما رفاهيته ومتعته في الحياة الحاضرة وليس المقبلة. القسيس ينصح كل الناس أن يعدوا لولادتهم الجديدة أو حياتهم فيما وراء. . وهل يمكن العبور إلى حياة أخرى سعيدة إلا بخدمة البراهما؟!

هكذا يفعل البراهما ما يفعله كل رجال الدين في كل الحضارات.

هل تصرف القساوسة المثقفون في كل مكان بنفس الطريقة؟ نعم ولا أحد يعترض على ذلك. مع ذلك معظم المؤرخين يشككون اليوم في الوحدة الأساسية للحضارات ويتوقفون عند اختلافاتها السطحية.

في عصر المثقفين وضع المرأة ليس له إلا التدني. المرأة في عصر الريق فيدا كانت حرة، تشارك في الطقوس العائلية. لكن رجال الدين اعتبروا الطقوس العائلية من اختصاصهم وحدهم، ولا يريدون مشاركة أحد. القساوسة يصنفون النساء في طبقة منفصلة مختلفة عن جماعات الرجال، لكنهن مع ذلك مسؤولات عن بعض الأعمال ذات الطبيعة الوضيعة، وحيث أنه قدر ضرورياً تكبيل كل من ليس براهما بقيود عقائدية، توجب بنفس الطريق تكبيل النساء، مع الاختلاف بالنسبة للنساء إن السلاسل من معدن آخر، بينما يقتنع الرجال بأنهم أدنى من البراهما بسبب مهنهم، تقتنع النساء بأنهن أدنى من البراهما، بكل بساطة، لأنهن نساء.

كل هذه المناورات التي أتاحت للبراهما ترسيخ سلطتهم انتهت بأن خلقت سخطاً اجتماعياً. غير قادرين على إزاحة رجال الدين، كثير من الناس لجأوا إلى الزهد وإلى حياة العزلة التامة.

الفترة البودية وعصر الجماعين:

عصر المثقفين استمر طالما لم توضع البراهمية موضع سؤال من قبل المجتمع. وبما أن طبقة المقاتلين لا تعارض القساوسة، فإن موجة رجال الدين انتهت بأن كبتت من قبل فيضان، والذي من العجيب أن الفيداس حطت من قدره زمناً طويلاً. الاقتصاد الآري، في فترة الريق فيدا وفترة البراهما، كان اقتصاداً أساساً زراعياً ورعوياً. النقود لم يجر بعد اختراعها، بمعنى أن مهنة الربوي - تعاطي الربا - لم تكن منتشرة، على الأقل في فترة الريق فيدا. المقايضة كانت الممارسة الجارية. ونحن نعتقد أن البقرة تمثل آنذاك وسيلة التبادل. التجارة توجد في بعض الأحوال. ونلاحظ أن التاجر يظهر في الفيداس تحت اسم «باني» وأنه ورد بطريقة مجازية، كما يلاحظ ماكس ويبر:

«في الفيداس لا يظهر التاجر إلا كرجل منتمياً في العموم لقبائل أجنبية تاجراً في النهار لصاً في الليل، يكدس سراً الثروات في أماكن سرية، يكره الله لأنه يبدو بخيلاً نحو الإله (في تقديم القرابين) ونحو الناس، خاصة نحو المغنون المقدسون والقساوسة. من الواجب عليه أن يعطي ويعطي، وعندما يفعل ذلك تحبه الآلهة والناس لكن التاجر ببساطة لا يفعل».

هكذا في فترة البراهما، وضع التاجر كان أدنى من البراهما والمقاتلين. ومع أنه منذ ذلك الوقت يحتل دائماً ـ نظرياً ـ وضعاً من الدرجة الثالثة إلا أنه في بعض الفترات المعينة كان عضواً محترماً في المجتمع ويعتم على كل الطبقات الأخرى. في حوليات الهند، إحدى هذه الفترات كانت فترة البودية والتي تمتد في العموم من القرن السابع إلى القرن الرابع ق.م. سميت هكذا لأنه في بداية هذه الفترة ولد «النبي» بودا. الاقتصاد لم يتوقف عن التقدم بخطوات كبيرة، منذ استقرار القبائل الآرية خلال فترة الريق فيدا. قوى الازدهار توطدت قبل القرن السابع ق.م.، ولكن في هذه الفترة فقط صارت قوية بما يكفي لتمارس سلطتها على الناس. في القرن السابع ق.م. الاقتصاد الهندي تقدم خطوة مهمة بظهور استخدام النقود. ربما يرجع هذا إلى اتصاله بالفرس المجاورين، النقود سهلت التجارة ونمو الصناعة والربا، وكذلك أدوات القروض ونشوء مراكز حضرية جديدة، وعدة من المنتجات الأصلية التي صار عندئذ بالأمكان بيعها وشراءها في السوق.

مع تقدم التجارة والصناعة، ظهر رجال بوسائل معتبرة وثروة خاصة هائلة. كما تشير إليه نصوص بودا آنذاك لم يكن هناك أي تدخل من الدولة في اللعبة الحرة لقوى السوق، نوع من الرأسمالية كان شائعاً، وأجازف بالقول إنه في فترة ميلاد بودا نحو القرن السابع والسادس ق.م(*) كان المجتمع الآري حقاً في عصر الجماعين.

(*) تاريخ ولادة بودا موضع خلاف بين المؤرخين

نكتشف في الأدب البودي، كما في الأدب البراهمي أن كراهية عصر الفيداس للتاجر والربوي قد اختفت من التقاليد البودية في القرن السادس ق.م. لقد صار ينظر إلى البراهما على أنه أدنى من التاجر المزدهر. وهذا ما يؤكده هوبكنز في تعليقه على الفترة المعنية ملاحظاً أن «العالم الهندي كان عالماً فقدت فيه الطائفة الدينية القديمة سلطتها، فيه النبلاء وأغنياء السماسرة صاروا يحضون باحترام أكبر من قبل البراهما». هذا كان صحيحاً أكثر في القسم الشرقي من شمال الهند. لكن حتى في القسم الغربي، وهو معقل البراهمية العتيق، يبدو أن البراهما قد تخلوا عن وضعهم الممتاز لصالح الأغنياء.

خلال فترة البودية لعبت الصناعة والتجارة دوراً مهماً أكثر من أي وقت مضى. ومع أن اقتصاد القرية لا زال أساساً قائم على الزراعة، إلا أن عدة مدن ظهرت لتصير مراكز مهنية وصناعية متنوعة، فيها معظم القطاعات نظمت في «طوائف مهنية» أو «روابط مهنية»(*)، إننا نلاحظ آنذاك وجود روابط وقرى بأكملها من النساجين، المجوهراتية، صناع الخزف. الصاغة وآخرين. وإذا أخذنا بما يذهب إليه جاتاكا كان هناك ثمانية عشر رابطة من هذا النمط، على رأس كل منها رئيس أو قاضي وبعض هؤلاء الرؤساء

(*) guilde رابطة مهنية تهدف الحصول لأعضائها على شروط تجارية متميزة وحماية المهنة من المنافسة ـ المترجم

يتمتعون بنفوذ كبير عند الأمراء والملك. رئيس كل من هذه الروابط كان مكتبه في مدينة بيناريس. في هذا الخصوص تقدم السيدة راي دافيد هذه الملاحظة المهمة وهي أن مكتب الرئيس الأعلى تعود نشأته إلى الفترة التي كان الملك فيها منتخباً. وحيث يحدث أن يكون ابن تاجر. بمعنى آخر بدأت النقود تتحدث أيضاً في المجال السياسي. وفي عصر الجماعين ليس هذا مستغرباً.

خلال فترة البودية كان مبدأ الملكية الخاصة محترماً، ومسألة الحصول على أرباح من النشاط الصناعي والتجاري لا تثير أية نفور. والدولة لا تكاد تتدخل في اللعبة الحرة للعرض والطلب وهما الثنائي التوأم الذي يحدد السعر في اقتصاد السوق الحر.

«في وقت متأخر جداً صرنا نسمع عن لوائح رسمية محددة مسار السوق.. في القرن السادس ق.م.، يوجد موظف سامي واحد يدعى «المقيم» والذي مهمته تحديد أسعار السلع المطلوبة من القصر، وهذا مختلف تماماً، إذ لدينا عدة أمثلة حيث سعر السلع في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة كان يتحدد بواسطة تأرجحات السوق».

السيدة راي دافيد تؤكد هي أيضاً عدم وجود أي لوائح حكومية تعيق أداء اقتصاد السوق هذا، وتلاحظ أنه «في المرحلة التي وضع فيها كتاب جاتاكا، كما قبلها، عملية التبادل بين المنتج والمستهلك أو بين هؤلاء ووسيط كانت تقوم على مساومة حرة لا تخضع لأي لوائح صادرة عن أي نظام تحديد سلطوي للأسعار، مع استثناء واحد

فقط ومهم، هذا الاستثناء المهم يتم في حالة تحديد أسعار السلع التي يشتريها البيت الملكي. إلى جانب تجارة سلع الاستهلاك يوجد أيضاً سوق الرأسمال والذي يخص مسائل الأقراض ووسائل الأقراض أيضاً، مع أنه لم توجد إلا تسهيلات مصرفية قليلة جداً.

مليونيرات الفترة البودية لم يكونوا أقل ترفاً من الشيوخ المعاصرين ومليارديرات الولايات المتحدة والأمم الأوروبية الأخرى. وإذا كنا واعين بالضغط الرهيب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، الذي يمارسه الأثرياء في عالم اليوم، فإنه ليس من الصعب تخيل نوعية النفوذ الذي كان يتمتع به التجار الأثرياء خلال الفترة البودية.

«تجارة القوافل كانت عادة منظمة من قبل رئيس القافلة والروابط المهنية، تتنافس في القوة مع الفرسان ورجال الدين الملك صار مالياً معتمداً على الروابط المهنية، وليس عنده وسيلة للسيطرة على هذه أكثر من دفع بعضها ضد البعض أو إفسادها، وحتى في الأشعار الحماسية، بعد هزيمة ما. . يظهر على الملك الإنشغال (تستثني أقاربه ورجال الدين). هكذا الثلاث شروط اجتماعية المرغوبة كانت النبالة الدنيوية والدينية والتجار. لقد اعتبروا كأنداد يتزاوجون فيما بينهم ويتعاملون مع الأمراء على قدم المساواة. التجار يمولون حروب الأمراء ويدفعون هؤلاء لمنحهم امتيازات لهم أو للرابطة التي تخصهم، حتى المهنيون الأغنياء، أي أولئك الذين يشاركون في التجارة يتعاملون مع الأمراء. في تلك الفترة، الناس كل الطبقات،

حتى الشغيلة، كانت عندهم إمكانية الحصول على سلطان سياسي.

الأمير الوارث، والذي يتولى الخلافة مع جيشه المنضبط وبيروقراطيته صار شيئاً فشيئاً منزعجاً من قوة الروابط وتبعيته المالية لها. يحكى «أن سمساراً رفض قرضاً حربياً لأحد الملوك متعللاً بأن الأمراء ليسوا للقيام بالحرب وإنما للحفاظ على السلام وازدهار أمن المواطنين».

من الواضح، بعد هذا العرض، إن قوة النقود هي التي كانت تمسك بمقاليد الأمور. الجماعون يحتلون الصدارة، ليس فقط في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، وإنما أيضاً في مجال السياسة والإدارة، بعض الروابط المهنية والقوافل كان لها جيشها الخاص، والذي يهب لنجدة أكثر من ملك في مأزق زمن الحرب. هكذا الفترة البودية، التي تمتد من القرن السابع وحتى القرن الرابع ق.م.، تنتمي إلى عصر الجماعين في الحضارة الهندية. إذا صدقت نظرية ساركار فإنه يتوجب الآن حدوث ثورة، الثورة التي يجب أن تسبق ولادة عصر مقاتلين آخر.

شاندرا قوبتا موريا والثورة الاجتماعية:

في القرن السابع ق.م. كان يوجد العديد من الدول الملكية إلى جانب بعض الجمهوريات أو الأوليقارشيات.

من بين كل الممالك يبدو أن مملكة كوزالا ومملكة مقادها كانتا الأقوى. بعض الملوك كانوا أقارب بسبب التحالف. لكن هذا لا

يستبعد الحروب بين الحين والآخر بينهم. خلال النصف الأول من القرن الخامس (أو السادس) ق.م. مملكة كوزالا ومملكة مقادها دخلتا في صراع مرير لضمان السيطرة على الهند الشمالية، صراع دامي استمر طويلاً بدون مخرج. والذي انتهى أخيراً بانتصار أجاتاشاترو ملك مقادها ومعاصر بودا. هكذا فتح الطريق الذي يقود إلى نشوء أمبراطورية موريا والتي عظمتها ليس لها مثيل في الهند.

كان هذا بالنسبة للنظام السياسي في الهند، مرحلة اضطرابات عظيمة.

أجاتا شاترو نفسه وصل العرش بعد اغتياله أبيه، وإذا كان الأول قد خلفه على العرش ابنه أوداي سلمياً، فإن أوداي وأحفاده على مدى ثلاث أجيال لم يكن لهم هذا الحظ. كل منهم دفع حياته ثمن امتياز أن يكون ملكاً.

وفق التقاليد البودية، كل هذا أثار الشعب الذي انتخب وزيراً ملكاً، الوزير اسمه شيشوناقا، والذي أسس هكذا أسرة جديدة متعهداً بإقامة النظام والسلام. مع ذلك وباء المؤامرات والاغتيالات انتهى بالقضاء على الأسرة الجديدة. لقد وقع خليفة شيشوناقا ضحية مستغل آخر باسم مهابادما ناندا، في وقت كانت فيه الهند مهددة بغزو الاسكندر الأكبر في عام 326 ق.م.

الإسكندر توقف في أطراف إمبراطورية مقادها، لقد رفض جيشه التقدم أكثر. أسرة ناندا، من أصل غامض، لم تستمر إلا جيلين فقط.

حدثت ثورة في تلك الفترة، أعد لها شاندرا قوبتا موريا، شاندرا من أصول متواضعة، مقاتل، ومستشاره البراهمي شاناكيا يبدو أن كلاهما قد تعرض للإهانة من قبل الملك داهنا ناندا. البنجاب والسند كانا آنذاك محتلين من قبل ولاة الإسكندر. مع أن ملك مقادها كان مسنوداً بجيش قوي، إلا أن التوليف بين العبقرية الحربية عند شاندرا قوبتا وذكاء شاناكيا لإسقاط، ليس فقط ملك ناندا، وإنما أيضاً الولاة الإغريق، كان فعالاً. بعد هذا الحدث الهام نشاهد تأسيس امبراطورية واسعة، وكذلك اختفاء عدة دويلات صغيرة، كما اختفى نفوذ المال. عصر مقاتلين جديد ولد آنذاك. ولهذا فإن ثورة 224 ق.م.، التي كان شاناكيا عقلها المدبر، وشاندرا قوبتا ذراعها القوي، يمكن اعتبارها ثورة شغيلة في الحضارة الهندية.

عصر موريا ومرحلة المقاتلين الجديدة:

بعد الإطاحة بالملك ناندا، وبعد الاضطرابات التي مست معظم أنحاء الهند، خلال السنوات الأخيرة من عصر الجماعين، حل السلام. في بضع سنوات وحد شاندرا قوبتا، بفضل عبقريته الحربية، كل شمال الهند، بما في ذلك الأمم التي تشكل اليوم الباكتسان وأفغانستان تحت سلطة حكومة مركزية واحدة. تمتد من خليج البنغال إلى بحر عمان. لكن لا يزمع أحد أن هذه المركزية السياسية والإدارية قد سارعت بإدخال الهند عصر مقاتلين جديد. ذلك لأنه لم يتمكن من البرهنة بوضوح - في نهاية المطاف - على

أن شاندرا قوبتا هو الذي يقبض على مقاليد السلطة أو أن هذا كان وزيره المهم شاناكيا.

شاندرا قوبتا موريا وضع أسس عصر مقاتلين جديد والذي خلاله، كان خلفاؤه يقودون أمبراطورية واسعة بطريقة مطلقة لا تعيقها أي سلطة في الكواليس.

نحو عام 300 ق.م. جرى استبدال شاندرا قوبتا بابنه المسمى بيندوسارا، المعروف في التقاليد الإغريقية باسم «أميتراقاتا» أو قاتل الأعداء. لقب يعكس فتوحاته العديدة. يبدو أنه ضم عدة أقاليم من جنوب الهند إلى الأراضي الواسعة التي ورثها. ابنه وخليفته الملك أسوكا الشهير الذي اعتلى العرش حوالي عام 273، دخل بعد تتويجه بقليل ـ في حرب ضد مملكة كالينقا، لكن الحرب بدت أكثر دموية مما يمكنه احتماله، مئات وآلاف من الجنود قتلوا أو شوهوا، أسوكا لم يعد في إمكانه تجاهل هذه الفضائح ووخز الضمير. لقد تعهد بوأد الحرب إلى الأبد، وأن يعمل من أجل نظام اجتماعي فيه مشاعر العدوان لا مكان لها. من أجل كل الإنجازات الإنسانية التي تلت ومن أجل كل الآثار التي بقيت حية لتكشف عن تسامحه، أعلن هـ ج ويلز أسوكا أعظم ملك وجد.

بعد حرب كالينقا اعتنق أسوكا البودية، والتي بلغت قمة ازدهارها في عهده الطويل. وبما أنه ليس الرجل الذي يضطهد الأديان الأخرى، هذه وخصوصاً البراهمية لم تعان وإن كانت قد

أهملت بعض الشيء. لهذا السبب، الطبقة البراهمية، المسيطرة سابقاً المثقفون الذين قادوا المجتمع خلال العصر البراهمي، والذين لم يلعبوا بعد ذلك إلا دوراً ثانوياً خلف الجماعين، أفل نجمهم خلال الفترة البودية. الملك كان مطلقاً وقوياً جداً، لكن يشهد لصالحه أنه لم يسن استعمال سلطانه. بالعكس حث أسوكا وزراءه على أن يكونوا عادلين نحو الشعب كما كأنه هو نفسه. لقد قدم لهم المثل بأن عاش حياة فاضلة. الهند في تلك الفترة كانت في مرحلة التسامح من عصر المقاتلين. وفي بعض النواحي تفوق المجتمع الآري على ما سبق له إنجازه حتى ذلك الحين. وهذا ما ليس غريباً. قمم جديدة تم بلوغها في مجالات الفن والهندسة المعمارية والتعليم والازدهار الاقتصادي وفعالية العدالة والإدارة.

دولة موريا كانت تضبط الاقتصاد تماماً مثلما تفعل اليوم البلدان الاشتراكية، التجار وغيرهم من الأثرياء فرضت عليهم ضرائب باهظة. وكذلك على الشعب عموماً. عدة صناعات جرى تأميمها وتعمل تحت إشراف احتكار الدولة وأرباحها تعود إلى الخزينة الملكية، وإن كان التجار يحددون الأسعار بأنفسهم إلا أنهم كانوا خاضعين لعقوبات قاسية. لقد انتهى زمن البودية حيث اقتصاد السوق يتعايش مع تحديد التجار والروابط المهنية للأسعار. كما جرى حل جيوش المرتزقة التابعة للتجار.

بينما المثقفون والجماعون يفقدون مواقعهم صار المحاربون أو المقاتلون يحتلون المواقع الرئيسية التي كانوا خسروها بسبب فقرهم

الثقافي منذ المرحلة البراهمية. ملوك موريا يعولون جيشاً ضخماً بأجور زهيدة، وهذا ينهك باستمرار خزانة الدولة، من هنا تأتي ضرورة احتكار الدولة لبعض الصناعات وضرورة العديد من الضرائب. ليس هذا ماليشيا، وإنما جيش حقيقي يتكون من 600 ألف جندي مستعدين للإنطلاق وفق الأوامر الامبراطورية من أجل فتوحات جديدة (كما هو الحال في عهد شاندرا قوبتا) و(بيندا سارا) أو قمع خلايا تمرد. في الواقع طبقة المقاتلين وبحث مواقع عدة منذ أسرة ناندا. لكن حتى مجيء شاندرا قوبتا هيمنتها الاجتماعية كانت محل اعتراض. لأنه، من أجل تمويل الحروب، كان الملوك يعتمدون، بشكل جاد على التجار الأثرياء. مع انحطاط البراهمية وموجة الانتشار المنتظم للبودية تغير وضع المرأة إيجابياً. لأنه، بينما البراهما ركزوا على عجزها الطبيعي واستبعدوها من الطقوس الدينية، فإن البودية تبنت موقفاً معاكساً. النظام الديني البودي يقبل أن النساء يصرن راهبات، ويركز على تعليمهن، بل إن بعضهن قبل حتى في التدريبات الحربية.

عصر المقاتلين الجديد بدأ في الانحطاط بعد موت أسوكا بقليل، والذي حدث نحو 232 ق.م. لأن خلفاءه لم يكن لديهم لا المكانة ولا الشخصية القوية التي سمحت له بتجميع أنظمة مشتته في دولة واحدة. رغم إقراره بالتخلي عن استخدام القوة والعنف، فإن الإمبراطورية وأسرة موريا استمرت بشكل أو بآخر حتى عام 185 ق.م. حيث جرى إسقاط آخر ملوك موريا وأعدم من قبل قائده

بوشيامترا. أسرة سونقا التي أسسها بوشيامترا استولت على السلطة. ومع أن الملك الجديد كان براهمياً بالولادة إلا أن طباعه تجعل منه مقاتلاً استطاع النهوض بأعباء امبراطورية موريا. أياً كان الأمر فإن البراهمية قد اعتلت السدة وعصر مثقفين جديد خرج إلى النور.

السونقاس والكانغاس والاندراس وعصر المثقفين الجديد:

لا نعرف شيئاً كثيراً عن خلفاء بوشيامترا، الذين بعضهم سقط تحت سيوف مغتاليه. إنه من الممكن، بل من المحتمل أنهم كانوا ضعافاً ومجرد أدوات في يد وزرائهم البراهما، ديفابوتي الفاسق وآخر ملوك السونقا جرى اغتياله بأمر من فازوديفا وزيره البراهمي والذي وضع على العرش دمية.

يبدو آنذاك مؤكداً، أنه بعد موت بوشيامترا نحو عام 149 ق.م. إن عصر مثقفين جديد قد خرج إلى النور، لأن الملوك السونقاس كانوا ضعافاً جداً وفاسقين لم يكن بإمكانهم ممارسة السلطان بأنفسهم، فعتم عليهم وزراؤهم البراهما. وكما هو معتاد في عصر المثقفين وجد آنذاك تشتتاً معيناً في سلطة الحكومة. لأن الهند منذئذ لم تعد مركزية كما لم تعده دولة موريا سواء على المستوى السياسي كما على المستوى الإداري.

إذا قصرنا تحليلنا على الشمال الشرقي والجنوب، يبدو أن عصر المثقفين الذي ظهر عند موت بوشيامترا استمر حتى عام 27 ق.م. حيث تحدى الأندراس والكانغاس آخر السونقاس.

عصر المثقفين الجديد الذي بدأ حوالي عام 149 ق.م. حين موت بوشيامترا، استمر حتى القرن الثاني الميلادي. في تلك الفترة وجود نظام إداري وسياسي لا مركزي نسبياً في كل أنحاء شبه القارة، وأمبراطوريات مؤلفة من ممالك إقطاعية يؤكد هذه النظرة.

الهند من القرن الثالث إلى عصر الجماعين الجديد:

الأندراس يسيطرون ليس فقط على الداكان وعلى شبه جزيرة جنوب الهند وإنما أيضاً على مقاداها ووسط الهند، الملك الشهير اندراقوتا ميبوترا ساتكارني، الذي اعتلى العرش نحو عام 100 يعتبر نفسه من نسل براهمي، لكن من حيث أفعاله وموقفه كان مقاتلاً من الطراز الأول، ويذكر أنه بفضل حملات ضم متواصلة استطاع مد أراضيه من بحر إلى آخر. إنه يعتبر نفسه المدافع عن العقائد الهندية، بودية وبراهمية ضد غزوات الأجانب.

الصراع المتواصل مع القوى الأجنبية تكشف قاضياً على إمبراطورية أندرا الشاسعة، والتي في نهاية القرن الثاني الميلادي تمزقت إلى كثرة من الإمارات. مثل هذه اللامركزية لا يمكن إلا أن تذكر بعصر جماعين. وبقدر ما يتقدم القرن الثالث صارت الهند سياسياً أكثر فأكثر انقساماً، وحجم الممالك يختزل أكثر فأكثر. كل مملكة في صراع مع جاراتها مستعدة لتمزيقها، لكنها غير قادرة بسبب الصراعات الداخلية. بمعنى آخر، خلال القرن الثالث عصر الجماعين الجديد يتجه نحو الغوغائية، وبذلك يعد الأرضية لثورة جديدة.

ساMودرا قوبتا وثورة اجتماعية أخرى:

فجر القرن الرابع، أحد الأشخاص باسم شاندرا قوبتا، الذي كان لا أهمية له في مكان ما من البيهار، تزوج بنت عائلة ليشكافي، وتحصل في نفس الوقت على إمارة ماقادها.

بعد تتويجه عام 320 وسع مملكته حتى أنها شملت كل البيهار وجزء من البنغال، وأعلن عهداً جديداً أسماه عهد قوبتا. هكذا مع وصول شاندرا قوبتا إلى السلطان بدأت مسيرة دورية معاكسة: من نظام لا مركزي تجري العودة نحو الوحدة السياسية. مع ذلك لم يتمكن شاندار قوبتا من إنجاز ما شرع فيه حيث مات عام 330م. ومهمة التوحيد الصعبة صارت على أكتاف سامودرا قوبتا ابنه. والذي بفضل عبقريته العسكرية قام بفتوحات بعيدة وواسعة واضعاً بهذا حداً لعصر الجمّاعين، إنه إذن ملهم ثورة الشغيلة الجديدة.

القوبتا وعصر مقاتلين جديد:

الحملات والفتوحات العسكرية المختلفة التي قام بها سامودرا قوبتا جعلت فنسان سميث يلقبه «نابليون الهند» وعندما نحو 380م لفظ آخر أنفاسه كان نصف شبه القارة يشكل جزءاً من مملكة سامودرا قوبتا أو يدفع له الجزية. في نفس الوقت في الديكان نشأت دولة أخرى كبيرة وقوية إنها دولة فاكاتاكاس. والتي كان لقوبتا علاقات ودية معها، هكذا خلال فترة قوبتا ثلاثة أرباع الهند تقريباً كانت موحدة تحت حكومة مركزية للأسرتين. لكن أسرة الفاكاتاكاس كانت أقل لمعاناً من أسرة القوبتا.

مثل أقرانهم ملوك موريا وصف ملوك القوبتا أحياناً بالطغيان لكنهم أيضاً كانوا أبطال البراهمية، والتي كما أشرنا إليه سابقاً، عرفت بعثاً جديداً، ميلهم الطغياني، عندما يوجد لديهم، يخفف منه وزراؤهم البراهما. والذين وظيفتهم تبدو وراثية خلال عدة أجيال.

مرحلة القوبتا تنتمي ـ بدون شك ـ إلى عصر المقاتلين المتسامح الحاكم الظاهر صار منذئذ هو الحاكم الفعلي. هل صدفة إن المؤرخين من أصل غربي ما من أصل هندي صنفوا هذه المرحلة على أنها العصر الذهبي الهندي؟! هل محض صدفة أن هذا العصر الذهبي ـ والذي يذكر بالعصر الذهبي المصري وانجلترا ـ قد ازدهر هو أيضاً خلال عصر مقاتلين؟

لا. . إذا أخذنا بنظرية ساركار عن الدورة الاجتماعية في كل المجالات تقريباً ـ فنون آداب مسرح شعر علوم ازدهار اقتصادي وقاية من الجريمة ـ مرحلة قوبتا تفوقت على العصور السابقة وحتى على فترة أسوكا، المبادرة الفردية كانت طليقة العنان. نتيجة كل هذا حضارة لم تبلغ الهند مثلها لا من قبل ولا من بعد.

لجذب الكفاءات الفردية نحو الحكومة، خاصة نحو الإدارة المحلية، فإن ملوك قوبتا زرعوا بلا وعي بذرة الإقطاع، الذي أخذ يتطور بعد ذلك. مثل شارلمان الذي حكم في أوروبا ثلثمائة سنة بعد ذلك، منح الحكام القوبتا الأراضي للعلماء وللأطر الإدارية بدلاً من مرتبات نقدية، ومع الزمن السادة المحليون صاروا ملاكاً وراثيين.

امبراطورية قوبتا والسلام استمرا من بداية القرن الرابع وحتى نهاية القرن الخامس حيث تمزقت أمام غزوات الهانس. الست قرون التالية كانت من جديد مجهولة وغامضة. والحجج التي نوردها تقوم جزئياً على وقائع معروضة وجزئياً على أساس استنتاجات. تاريخ الهند يلعب مع المؤرخ لعبة «الاستغماية»(*). لهذا لست متأكداً من المرحلة التي انتهى فيها عصر المقاتلين الثالث للمجتمع الآري. من الممكن أن نهايته كانت حوالي نهاية القرن السابع حيث صعدت أسرة جديدة ذات أصل براهمي.

الهند في القرن التاسع والعاشر وعصر مثقفين جديد:

في نهاية القرن الثامن تقريباً مدت كاشمير سلطانها على أراضي واسعة في الشمال الغربي ووسط الهند. خلال القرن التاسع والعاشر، السلطة الحقيقية كانت تمارس إما من قبل الوزراء وإما من قبل جمعية براهمية، مع أن الملوك كانوا مجرد دمى يحرك آخرون خيوطها. تاريخ كاشمير ونفوذها الكبير على أراضي شاسعة يقدم حجة تسمح لنا اعتبار هذين القرنين من الحضارة الهندية منتميين لعصر المثقفين.

في الجنوب، القرن الثامن والتاسع والعاشر شهدت صعود راشتراكوتا، الذين سيطروا على ممالك الشمال في بعض الفترات مع

(*) لعبة أطفال، حيث يختفي الأطفال وعلى أحدهم العثور عليهم ـ المترجم.

أنها تملك بعض المقاتلين الأقوياء، إلا أن هذه الأسرة شجعت بكرم الدين. تحت حكمهم البراهمية، اقتلعت البودية من جذورها وتطورت بسرعة أكبر مما فعلت منذ ولادة بودا. مما يبرهن على وجود عصر مقاتلين. المعابد الفخمة التي شيدت آنذاك لا يمكن إلا أن تؤكد هذه النظرية.

الإقطاع وعصر جماعين جديد:

بمنحهم بسخاء الأراضي للعلماء وللأطر الأدارية فإن القوبتا زرعوا بذوراً، والتي أدت بالتالي إلى ولادة نمط معين من الإقطاع هبات الأراضي هذه، حملت معها مسؤولية إدارية وضريبة على القرى الواقعة في نظامها. نتج عن هذا ضرورة أنه خلال مرحلة هارشا، منح ملاك الأراضي ميزات قضائية، وهذا حول القرية إلى نظام يكاد يماثل الاقتصاد الإقطاعي القائم في ذلك الوقت في أوروبا الإقطاعية.

اللامركزية السياسية، والأعيان ـ ملاك الأراضي ـ الأقوياء، ظهروا فعلاً في نهاية القرن العاشر تقريباً. في تلك الفترة، الحرب بين ممالك عصر المثقفين التالي على هارشا، خربت الانسجام الاجتماعي، بحيث لم يعد ثمة ملك قوي بما يكفي للسيطرة على أتباعه. القرن الحادي والثاني والثالث عشر، والتي خلالها سادت قوى طاردة تنتمي إذن إلى عصر الجماعين.

الغزوات الإسلامية إذن بدأت منذ القرن الثامن، عندما استولى

العرب على السند، ولكن في القرن الحادي عشر، وقد أغراهم الحديث عن ثروة الهند الهائلة، قام كثرة من المقاتلين المحمديين ـ المسلمين ـ في تلك الفترة بغزوا شبه القارة في عام 1192 وهو تاريخ سحق برتيفي راج كوهان من قبل محمد دوقور. واستقر المسلمون بشكل دائم على الأراضي الهندية. بعد ذلك بقليل عام 1206 أسس قطب الدين أيبك سلطنة في دلهي مفتتحاً عصر المسلمين. لكن عصر الجماعين استمر، ذلك لأن الحكومة المركزية الإسلامية لا تمثل إلا قطرة في محيط اللامركزية السياسية التي تعم الهند منذ مئتي عام. حتى بعد أن واجهوا خصماً بدون رحمة، والذي نهب بدون تردد عدداً لا يحصى من القرى والمعابد، فإن صغار الملاك الهنود بقوا أكثر اعتزازاً بأنفسهم من أن يتحدوا.

عصر الجماعين ـ الشغيلة والثورة الاجتماعية:

المشهد السياسي في هند القرن الثالث عشر يذكر بمرحلة انحطاط عصر الجماعين التي تتصف باللانظام والفوضى التامة. في الجنوب امبراطورية شولا تمزقت، في القرن الثالث عشر، إلى عدة دويلات، قزمية، في صراع دائم ضد بعضها البعض. في الشمال سلطنة دلهي كانت مركز مؤامرات عديدة، مستفيدة من غياب تام لحق الخلافة وغياب أي مقاومة تذكر من قبل الهنود الذين يطلق عليهم المسلمون صفة كفرة أو هندوس. مجتمع متحضر ما كان له أن يوجد آنذاك في أي مكان من الهند. وأقل من ذلك مجتمع مزدهر.

في النصف الأول من القرن الثالث عشر سلطنة عمان كانت تعيش تحت رعب مجموعة شهيرة من أربعين عبد ملحقين بالبلاط. سلطة السلطان كانت دائماً موضع شك من قبل حكام الأقاليم وصغار الأمراء الهندوس، وحتى عندما كان الملوك أقوياء، كان يتوجب عليهم القتال بدون انقطاع للحفاظ على أملاكهم وحمايتها من النهب. القرن الثالث عشر إذن ينتمي إلى عصر الشغيلة حيث القسوة وقانون الأقوى يسودان كل الهند.

مهمة وضع حد للّا نظام كانت إنجاز قائد مسلم. في عام 1296 اعتلى سدة الحكم في السلطنة قائد عسكري اسمه علاء الدين كالجي وحالاً فرض سلطته على الهند بكاملها، واضعاً بهذا حداً لقوى الجماعين والشغيلة الذين كانوا وراء اللامركزية والغوغائية. كما ألغى أيضاً الملكية الخاصة وقضى بالتالي على أساس سلطان السادة الإقطاع. بمعنى آخر بسالته الحربية أدت من جديد إلى ثورة شغيلة في التاريخ الهندي.

الكالجيس ـ التوقلاك. المغول وعصر المقاتلين المسلمين:

بالطبع أسرة كالجي كانت بربرية، لكن للمرة الأولى منذ القوبتا، جزء كبير من الهند صار موحداً تحت قيادة مركزية تصدر عن دلهي. العلاقات مع الجنوب كانت محض علاقات سيد بأتباعه.

عام 1320 حلت أسرة توقلاك محل الكالجيس. محمد بين قائد التوقلاك كان الأسوأ والأغرب أطواراً. في عهده الأمبراطورية

الإسلامية الواسعة بدأت الانهيار وتمزقت في عدد من الدويلات الحربية مثل مملكة باهماني وفيجياناقار في الجنوب. في عام 1398 الباقون على قيد الحياة من امبراطورية توقلاك سلبهم تيمور الأعرج. وفي الخراب الذي تلى أسس خلفاؤه أسرة أسرة سييد. هكذا في القرن الرابع عشر عرفت الهند حكومة مركزية، أو أنها نظمت في بعض الدولة العسكرية والتي يقودها جميعاً طغاة. ربما باستثناء نيجياناقار. لكن هنا أيضاً الملك وجيشه يسودان بشكل مطلق. في ذلك الوقت حيث الأقدر فقط يبقى على قيد الحياة، فإن الطبقات الأخرى من غير المقاتلين ليس أمامها أي فرصة للصعود.

التمزق الذي حدث، مرة أخرى في الهند، في عهد محمد توقلاك، تواصل خلال القرن الخامس عشر. لكن جيوب واسعة من الحكم المركزي ظلت قائمة. عصر المقاتلين تواصل إذن في الهند آنذاك فيما يشبه أوروبا، والتي في نهاية القرن الخامس عشر تقريباً كانت أيضاً مجزأة في دول ـ أمم مركزية.

هذا النظام، من حوالي اثنتي مملكة مركزية، استمر الجزء الأعظم من القرن السادس عشر، حتى استولى قائد مغولي (أكبر الكبير) بفضل عبقريته الحربية، على كل شمال الهند ونظمه في أمبراطورية تدار بأسلوب فعال. لقد افتتح سياسة تسامح نحو كل الأديان، وبدأ بهذا الطريق لعهد طويل من الإبداع والازدهار.

عصر المثقفين مغول ـ ماراث:

الموقف الكوني لأكبر الكبير نحو كل العقائد واصله ابنه جاهانجير الذي خلفه. في عهد الأخير ظهر عصر المثقفين بشكل غير متوقع، تحت حكمه العقيدة الإسلامية الأرتودوكسية كسبت بانتظام المواقع والشؤون السياسية في الهند التي صارت تتبع المذهب السنِّي.

الهيمنة غير المباشرة من قبل المثقفين تواصلت وظهرت بطريقتين:

أولاً: كان أغلب الملوك ضعافاً وبهذا فهم أدوات في يد وزرائهم(*).

وثانيا: سياسة الاحتقار التي كانوا يتبعونها نحو العقائد الأخرى غير الإسلامية زرعت بذور التمرد بين السيخ والجاتس والراجبوتي والماراتس، الأمبراطورية تمزقت، وعلى أنقاضها قامت قوة ماراتس التي أسسها المقاتل الكبير شيفاجي. تاريخ الهند في القرن الثامن عشر هو أساساً تاريخ انتكاسات المغول وانتصار الماراتس. في الحالين الحكام الظاهريون كانوا تحت تأثير وزرائهم ومثقفيهم. بينما كان المغول في يد وزرائهم كان الماراتس في يد ـ البشوا ـ وزرائهم البراهميين. ملك الماراتس راجا من نسل شيفاجي كان غالباً في ظل

(*) كلمة وزيرِ وردت باللغة العربية في الكتاب. المترجم.

البشوا ـ الوزراء البراهميين. خلال كل القرن الثامن عشر، حتى أن هؤلاء يقارنون، أحياناً، بمدراء القصر، الذين كان الملك الميرقنجياني تحت رحمتهم في بداية عصر المثقفين في الحضارة الغربية. باختصار، الجزء الأكبر من القرن السابع عشر وكل القرن الثامن عشر ينتمي إلى عصر المثقفين،

الفترة البريطانية وعصر جماعين جديد:

سيطرة المارات استمرت في الهند حتى نهاية القرن الثامن عشر، حيث قوة أخرى فرضت نفسها: شركة الهند الشرقية البريطانية حصلت عام 1765 من الأمبراطور المغولي على حق إدارة دول أوريسا وبيهار وبنغال. هكذا أعد الطريق الذي أتاح للأنجليز مد سيطرته سريعاً على الهند. في المدة القصيرة الفاصلة خلال أربعة حقب تالية ضم الإنجليز عدة أراضي هندوسية وإسلامية، بما في ذلك أراضي بشاوا ـ حيث يحصلون على الجزية ـ وصاروا أكبر قوة في الهند. في فجر القرن التاسع عشر لا أحد في مقدوره تحدي البريطانيين باستثناء دولة السيخ القوية في البنجاب التي يحكمها رانجي سينق، والذي كان الإنجليز يتفادون بعناية الاصطدام به. إلا أنه بعد موت القائد السيخي عرف البنجاب ظروفاً سيئة وعرف عام 1849 المصير الذي عرفته الأقاليم الأخرى.

عصر الجماعين ظهر في انجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكنه وصل إلى الهند في النصف الأول. وإذا كان

الأمر كذلك، فلأنه حتى عام 1858 الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمجموع شبه القارة كانت منظمة ـ أو غير منظمة ـ تحت أنظار البرلمان البريطاني، من قبل موظفي شركة الهند الشرقية، والتي يسيطر عليها التجار الإنجليز الرأسماليين في لندن. أما بالنسبة للمجتمع الهندي فإن هؤلاء الرأسماليين الجشعين يكبدونه استغلالاً وأسوأ مصير.

عوائد الضريبة، التي فيما سبق يجمعها ملاك الأراضي مسلمين وهندوس، صارت في الهند تحول عن طريقها من قبل موظفي الشركة وترسل إلى انجلترا. العديد من الفلاحين وملاك الأراضي أجبروا إما على بيع أراضيهم إلى مقرض القرية إو الاستدانة من أجل دفع الضرائب التي تجبى بشكل منتظم، وهذا لم يكن على هذا النحو من قبل. هكذا السيطرة البريطانية ذات السمة الجمَّاعية على الهند ساعدت على الصعود الاجتماعي لهنود جمَّاعين وربويين الذين يقرضون المال بفوائد فاحشة ويجرون أعمال حسابية مشبوهة والذين صاروا، بالنسبة للقطاع الريفي، الذي يغطي آنذاك ثلاثة أرباع الهند، وباء لم تضعف قوته حتى اليوم.

قبل الاحتلال البريطاني ملاك الأراضي يصرفون دخولهم في الهند، هذه الدخول تدخل في أصل الطلب بالنسبة للصناعات الهندية، ولكن هذا العائد، نظراً لأنه صار منذئذ يحول إلى إنجلترا، وهذا المصدر للطلب اختفيا، ومعهما اختفت ثروة الهند الصناعية وإذا بقيت أي قاعدة صناعية، فإن السياسة التجارية البريطانية،

المستهدفة تحويل الهند إلى مصدر مواد أولية رخيصة الثمن بالنسبة للصناعة الانجليزية، قامت بالباقي. رسوم جمركية باهظة تمنع وصول الحرير والقطن الهندي إلى الأسواق البريطانية، مع ذلك أي رسوم جمركية أو حتى رسوم محض إسمية لم تكن مفروضة على الصادرات البريطانية نحو الهند، كما يقول ميكائيل أدواردز:

«في النصف الأول من القرن التاسع عشر. . فقدت الهند الوضع الممتاز الذي كانت تحتله في التجارة والصناعة في العالم منذ ألفي عام. . وتحولت شيئاً فشيئاً إلى مزرعة مخصصة لإنتاج المواد الأولية وبالوعة للمنتجات الصناعية الغربية الرخيصة».

هذه الإجراءات استمرت دون تغيير يذكر حتى بعد عام 1858 وحركة العصيان العام في الهند. بالرغم من أن الشؤون الهندية انتقلت مباشرة إلى يد البرلمان الإنجليزي. كل هذا أدى إلى جعل الاقتصاد الهندي في نهاية المطاف زراعي وريفي. حركة التعمير تدنت. كثير من العمال الزراعيين صاروا بدون أراضي، والربوي تميز في دور طفيلي غير معروف قبل ذلك في الهند. بعد العصيان الهندي عام 1857 شعر البريطانيون بالحاجة إلى طبقة من السكان لدعم قضيتهم، ملاك الأراضي في القرى وكذلك بعض الصناعيين (رحال الصناعة) الهنود منحوا بعض التنازلات وكانوا موضع تملق مستهدف. بالنتيجة ظهرت في الهند مجموعة أخرى مكونة من ملاك أراضي أغنياء ورأسماليين، في نفس الوقت يتأكد فقر العمال الزراعيين والصناعيين. وعند عام 1947م شبه القارة تحررت من

السيطرة الأنجليزية، وانقسمت إلى الهند وباكستان، هذا النظام الذي بفضله رخاء القلة يهزأ بإملاق الجماهير، ظل قائماً.

مع ذلك الاتصال بالبريطانيين لم يكن تماماً ضاراً بالحضارة الهندية لقد تخلصت الهند من عدد كبير من العادات الكريهة التي تكبدها المجتمع الهندي خلال وقت طويل. تضحية الأرامل ألغيت في تلك الفترة. والبراهما لم يعد في إمكانهم ادعاء حضورهم فوق القانون، وفوق كل شيء النظام المدرسي الإنجليزي خلق شعوراً وطنياً بدون سابق، والذي المهاتما غاندي، محمد علي جناح، سوبهاس شاندرا بوز وجواهر لال نهرو كانوا قادته المتميزين.

حتى بعد ذهاب الإنجليز استمرت الحضارة الهندية(*) في التطور في عصر الجماعين. قادتها كان بإمكانهم القضاء على هيمنة هؤلاء الجماعين، لكنهم كانوا سيبذرون كل الإرادة الطيبة والاحترام الذي فازوا به عندما كانوا يمثلون طليعة الحركة الوطنية. في بلاد واسعة كالهند حيث الأمية منتشرة، وفي هذه تكمن توجهات التمزق، وحيث توزيع الثروة أقل عدلاً مما يمكن بكثير. لقد اختاروا النظام البريطاني أو الديمقراطية البرلمانية: ما لم يمكن تفاديه وقع،

(*) من الخطأ اعتبار المجتمع الهندي الحديث حضارة هندية، لأنه حتى بعد ولادة الباكستان التي ضمت معظم المجموعة الإسلامية في شبه القارة فإن قسماً هاماً من المسلمين فضل البقاء في الدول الهندية الحديثة. هكذا المجتمع الهندي الحديث كان ويكون مجتمعاً هندي إسلامي والذي أقليته الإسلامية تبلغ رقماً مهماً 90 مليون نسمة.

قوى النقود تغلبت سريعاً، التهريب، النزعة التجارية، السوق السوداء، التهرب الضريبي والفساد الفاحش في البروقراطية وسم كل جوانب الحياة الهندية. شراهة الجماعين تعيق أقل جهد يبذله القادة الهنود لتخفيف فقر الجماهير.

قوى اللامركزية السياسية المصاحبة لهيمنة الجماعين تراخت مع تبني الهند للنظام البرلماني، والذي بدأ العمل به عام 1975. عندما السيدة غاندي اتهمت بممارسات غير شرعية خلال الانتخابات السابقة، طالب أحزاب المعارضة باستقالتها، وكان هناك التهديد بالإضراب العام وخاصة البوليس والجيش حرضا صراحة على التمرد، رداً على كل هذا أعلنت السيدة غاندي حالة الطوارىء، ومنحت نفسها سلطات تنفيذية واسعة وسجنت عدداً كبيراً من المهربين وباعة السوق السوداء وكذلك معارضين سياسين وعدد - بالطبع - من الأبرياء. في هذه الفترة أيضاً جرى تعديل الدستور الهندي من أجل تأبيد الوضع القائم للسيدة غاندي. الصحافة ألجمت، وسلطات واسعة منحت للبوليس. كل هذا من أجل خدمة الشعب. الشعب الذي حقوقه الأساسية تداس بالأقدام.

لكن عاجلاً أو آجلاً كل شخص يسيء استخدام السلطان سوف يدفع الثمن، السيدة غاندي دفعت الثمن أسرع مما كان متوقعاً.

الحدث الحاسم، حالة الطوارىء عام 1975 أعلنت في فترة حيث تمر الهند بمرحلة فساد عصر الجماعين، وحيث الثورة وحدها

يمكن أن تقضي على الفساد الذي سببه قرنان من الاستغلال على يد الجماعين.

من حسن الحظ أن الهند تسير الآن سريعاً نحو ثورة اجتماعية، ثورة تضع حداً لعصر الجماعين، هذه الثورة سوف تندلع في حوالي العام 2000. عصر الجماعين الحالي بدأ في الهند عندما أزاح البريطانيون البشوا عام 1803 وأبعدوا عن طريقهم آخر معاقل المثقفين. هذا يعني أن عصر المثقفين السابق الذي بدأ عام 1605 مع وصول جاهانجير إلى العرش، استمر حوالي 200 عام. عصرالجماعين أيضاً لا بد وأن يستمر وقتاً طويلاً. سوف ينتهي بثورة شغيلة في حوالي نهاية هذا القرن. ويترك المجال حراً للسلطة المركزية والضبط الاجتماعي وعصر مقاتلين جديد.

على ضوء هذا يجب النظر إلى آثار حالة الطوارىء عام 1975، المركزية المستعادة سريعاً من قبل السيدة غاندي كانت علامة طليعية لمركزية المقاتلين القادمة. المركزية القادمة ستكون متسامحة وسوف تأتي بالراحة وازدهار طويل لجماهير الناس. ما قامت به السيدة غاندي يترجم حركة يائسة من قبل جماعين زائفين محاولين الإبقاء على سيطرتهم الاستغلالية على المجتمع. المركزية التي قامت سوف تحسن فعلاً من الوضع الاقتصادي للبلاد، سوف تتمكن من السيطرة على عمليات التهريب والسوق السوداء، لكن كل النتائج الحسنة لفعلها محيت بسبب احتقارها لحقوق الإنسان ومحاولات سحق كل خلاف.

ثمة درس مستفاد من حالة الطوارىء: الهند حقاً في حاجة إلى ضبط اجتماعي وسلطة سياسية مركزية، في حاجة إلى مقاتل شجاع على رأسها أسوكا آخر أو سامودرا قوبتا أو أكبر الكبير.

هل هذا ممكن في عصر الجماعين والشغيلة الحالي؟ لا.. لكن عصر المقاتلين الجديد ليس بعيداً.

الوسط الهندي الحالي يعرض تشابهاً معيناً مع آخر لحظات العصر الاستحواذي لزمن البوديين. آنذاك كما اليوم النقود تقود كل شيء.

مراجع

1 ـ ف. م. ابت: «**الشروط الاجتماعية والاقتصادية في تاريخ وثقافة الشعب الهندي**». بومباي ـ 1951.

2 ـ أ. ل بشام: **الهند الغريبة** ـ لندن ـ 1954.

3 ـ شارل دريكماير: **الملكية والمجتمع في الهند القديمة** ـ ستانفورد ـ 1962.

4 ـ م. أدواردز: **تاريخ الهند** ـ نيويورك ـ 1961.

5 ـ ي. ن. قوشال: **النظرية السياسية والتنظيم الإداري والقانون والمؤسسات الشرعية** ـ بومباي ـ 1955.

6 ـ ب. قريفتس: **التاثير البريطاني على الهند** ـ أركون بوكس ـ 1965.

7 ـ أ. و هوبكنز: **الوضع الاجتماعي والعسكري للطائفة في الهند القديمة**. مجلة الجمعية الشرقية والأمريكية ـ 1889.

8 ـ نفس المصدر **فترة سوتراس** ـ جامعة كامبردج ـ 1935.

9 ـ نفس المصدر **الحياة العائلية والعادات الاجتماعية**.

10 ـ د. د. كوسامبي: **الثقافة والحضارة في الهند القديمة** ـ لندن ـ 1970.

11 ـ ر. س. موجامدار: **الهند القديمة** ـ دلهي 1960.

12 ـ ب. ب. مازومدار: **التاريخ الاجتماعي الاقتصادي لشمال الهند** ـ الهند ـ كلكتا 1960.

13 ـ ر. ك. موكيرجي: **أسس الامبراطورية المورية** ـ بومباي ـ 1957.

14 ـ ك. م. مونشي: **مقدمة في تاريخ وثقافة شعب الهند** ـ بومباي ـ 1957.

15 ـ م. نايديس: **تاريخ مختصر للهند** ـ نيويورك ـ 1966.

16 ـ م. و. بينكام: **المرأة في الرسوم المقدسة الهندوسية** ـ نيويورك ـ 1941.

17 ـ أ. ج. رابسون: **الدول الهندية بعد مرحلة امبراطورية موريا** ـ كامبردج.

18 ـ هـ.ج. رولينسون: **الهند مختصر تاريخ ثقافي** ـ نيويورك ـ 1952.

19 ـ س.أ.ف. راي دافيد: **الشروط الاقتصادية من خلال الأدب البودي المبكر في تاريخ كمبردج الهندي** ج1.

20 ـ ت.و. راي دافيد: **بوديو الهند** ـ نيويورك ـ 1903.

21 ـ س.أ. ريزفي: **الإسلام في الهند** ـ لندن ـ 1962.

22 ـ ر.س. شارما: **الأفكار السياسية والمؤسسات في الهند القديمة** دلهي ـ 1968.

23 ـ ف.أ. سميت: **تاريخ الهند المبكر** ـ لندن ـ 1962.

24 ـ ف.و. توماس: **ملاحظات حول مراسيم أسوكا** مجلة الجمعية الملكية لبريطانيا وإيرلندا ـ 1916.

25 ـ ماكس ويبر: **دين الهند** ـ قلينكو ـ 1958.

26 ـ محمد ياسين **التاريخ الاجتماعي للإسلام في الهند** ـ لوكنو ـ 1958.

7 ـ سقوط الرأسمالية

في نهاية الفصل الرابع تقريباً، شرحت كيف أنه، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، يعبر المجتمع الغربي عصر الجمَّاعين. وأن الرجال الأغنياء هم الذين يقبضون على مقاليد الأمور فيه. الطبقة الحاكمة إذن تأتي من سيطرتها على الثروة وعلى وسائل الإنتاج، مع أن الطبقات الأخرى، المقاتلون، المثقفون والشغيلة ـ تخضع طوعياً للنخبة المحظوظة. خلال هذا العصر يكون نظام الحكومة لا مركزياً جداً. وبالنتيجة يعم الإجرام، وتتفكك العائلة وتنتشر الدعارة. والفردية المتطرفة تنتهي بأن تطبع النظام الاجتماعي. نظام اجتماعي اقتصادي من هذا النمط عرفه الغرب خلال الجزء الثاني مما عرف بالعصر الوسيط وهذا ما يدعى عادة اقطاعاً، اليوم يسود مجدداً ويسمى رأسمالية. رغم الاختلافات الكثيرة الظاهرية، فإن الإقطاع والرأسمالية يملكان عدة خصائص مشتركة: موت الرأسمالية لا يمكن تفاديه تماماً كما لم يكن ممكناً تفادي موت الإقطاع.

الرأسمالية في فترة أولى وفي مستقبل نسبياً قريب سوف تهزمها ثورة اجتماعية. وبعد ذلك سوف يجري استبدالها بواسطة عهد محاربين ـ مقاتلين ـ جديد. مركزي ولكن متسامح. هذه النظرة للرأسمالية هي خلاصة منطقية لقانون الدورة الاجتماعية مطبقاً على مستقبل المجتمع الغربي.

لست الوحيد ـ بالطبع ـ الذي يتنبأ بنهاية الرأسمالية، حركة أدبية واسعة قامت على كتابات ماركس ولينين، عملت على بيان أن الرأسمالية هي جلاد نفسها، وأنها نظام اقتصادي مشحون بتناقضات تدمر ذاتها. هذا التنبؤ لا يجد قبولاً عاماً عند المثقفين الغربيين، ليس فقط لأن التاريخ كذبة ولكن أيضاً لوحظ أن دقة منطق التحليل الماركسي تشوبها الشوائب.

إعلان موت الرأسمالية لم يكن سد وقت فراغ مفضل عند الماركسيين فقط، عدد من غير الماركسيين، مثل جوزيف شومبيتر وروبرت هايلبروز وتوينبي، من بين آخرين، تنبأوا أيضاً بنهاية الرأسمالية، وإن كان ليس على يد ثورة عنيفة.

حتى الأكثر حماساً للرأسمالية مستعدون لقبول فكرة أن هذه محكوم عليها بالاختفاء يوماً ما. كثيرون يؤكدون أن هذا سيكون عن طريق تطوري يحدث تغيراً أو تحولاً في وجه الرأسمالية أو شكلها. إني مع ذلك أعتقد أن الثورة الاجتماعية سوف تقع خلال خمس وعشرين أو خمسين سنة قادمة.

التطور الاجتماعي في الولايات المتحدة:

الولايات المتحدة، في الوقت الحالي، هي المركز العصبي للرأسمالية، ولذلك تاريخها يستحق أن يبحث مستقلاً. ولهذا السبب أهملت تحليله في الفصل الرابع واحتفظت به لهذا الفصل.

طبقاً لنظرية ساركار تاريخ الولايات المتحدة يمثل تعقيدات قليلة إذ من السهل ملاحظة أنه منذ تدفق المهاجرين الأوروبيين على القارة الشمالية الأمريكية، دخلت الولايات المتحدة عصر الجماعين. هذا لا يعني بالطبع أن الرأسمالية كانت دائماً متغلبة في المجتمع الأمريكي، ولكن ببساطة يعني أنه منذ نشأة الولايات المتحدة قوة النقود كانت سائدة. قبل حرب الانفصال عام 1861 ـ 1863 أكبر أغنياء ملاك الأراضي، كانوا على رأس المجتمع والحكومة. ولكن منذ تلك الحقبة الوضع الاجتماعي الأعلى صار يخص ملاك الرأسمال المالي والمشاريع الصناعية. هكذا تحت شكل أو آخر هيمن الأثرياء على المجتمع الأمريكي منذ ولادته. وهذا يشهد على طول واستمرارية عصر الجماعين.

مع أنه من المعتاد جعل التاريخ الأمريكي يبدأ عام 1492، عندما اكتشف كولومبس أمريكا، فإن الهجرة بدأت حقيقة عام 1607، عندما وصلت شركة تجارية إلى جيمس تاون وأسست مستعمرة فيرجينيا. مستعمرة أخرى أقيمت عام 1620 في بليموث، هذه المرة من قبل الحجاج الذين تركوا انجلترا للإفلات من الاضطهاد الذي

يمارسه جاك الأول والكنيسة الإنجيليكانية. هاتان التجربتان لم يكونا إلا بداية ما تكشف بعد ذلك تياراً منتظماً من المهاجرين الأوروبيين خاصة من إنجلترا الذين نشروا أشرعتهم نحو أمريكا. في مدى قرن حوالي ثلاثة عشر مستعمرة إنجليزية قامت على طول الساحل الأطلسي لأمريكا الشمالية. إضافة إلى ذلك إن اسبانيا وفرنسا يحتلان أقاليم أخرى والتي تكون اليوم دواخل أراضي الولايات المتحدة.

جاء الأوروبيون للإقامة في المستعمرات لأسباب عديدة، بعض المجموعات مثل الحجاج، الطهريين، الكواك الكاثوليك الرومان والهاقنوت، جاؤوا ليستطيعوا ممارسة عقائدهم بحرية كاملة. وآخرون مثل التجار الإنجليز جذبتهم التجارة ومستقبل اقتصادي مهم. معظم المستعمرون الأوائل للمستعمرات الأنجليزية، قرروا فرض الحرية الدينية والاقتصادية، نظراً لأنهم عانوا كثيراً في بلدانهم، لم يكونوا مستعدين لقبول الملكية أو حكومة أتوقراطية أخرى في المستعمرات. وبينما كانت انجلترا ملغمة بأوتوقراطية ملوك ستيوارت فإن المستعمرات تشهد آنذاك بعض أشكال الحكومة التمثيلية.

البنية الأساسية لكل حكومة في المستعمرات تشبه النموذج البريطاني كل مستعمرة يقودها حاكم يعينه الملك. أو كما في ماريلاند، ديلوار وبنسلفانيا، يقودها الملاك الخواص. يساعد الحاكم مجلس معين ومجلس عموم المتكون من رجال تتوفر فيهم بعض الشروط فيما يتعلق بالملكية من خلال انتخابات عامة. نظرياً كل حكومة في المستعمرات يمكن أن تكون أوتوقراطية يسيطر عليها

الحاكم أو الملاك، لكن في الواقع العملي، السلطان الحقيقي انتقل بإطراد إلى أيدي المشرعين المنتخبين، والذين إما مالكين لأراضي واسعة أو كما في انجلترا الجديدة تجار أغنياء. لانتقال السلطة هذا عدة أسباب.

معظم الملاك الحاصلين على امتيازات من الملك كانوا يمجدون السلطة الملكية والامتيازات الملكية، لقد طمحوا في فرض البنية الاجتماعية التي تسم انجلترا على مستعمراتهم. انجلترا حيث الأراضي نادرة وحيث كبار ملاك الأراضي يتمتعون بنفوذ كبير وبمكانة كبيرة في المجتمع. الظروف كانت مختلفة تماماً في أمريكا والتي باعتبارها أراضي شاسعة بكر، كل نظام قمعي مؤسس على العلاقة بين ملاك الأراضي والفلاحين البدون أراضي كان مصيره الفشل في العالم الجديد. لأنه إذا رفض شخص الحياة تحت سيطرة المالك فإن بإمكانه أن يذهب إلى مكان آخر. ليس إذن من الغريب، من حيث كونها مشاريع اقتصادية، معظم الملكيات تكشفت عن إفلاس هائل. لهذا في معظم المستعمرات توقف الملاك واحداً بعد الآخر عن إعلان تبعيتهم للسلطة الملكية.

إذا كان الملاك عاجزين، بشكل واضح، عن إقامة أوليقارشية سياسية، فإن الحكام ليس أمامهم أيضاً فرصاً كبيرة. إنهم يملكون من حيث المبدأ حق الاعتراض ـ الڤيتو ـ على كل تشريع تصدره مجالسهم، ولكن لأن المجالس بدأت تراقب تخصيص العوائد، بما في ذلك مرتب الحاكم صار خاضعاً لاعتمادها للميزانية فإن سلطان

الخزانة يتغلب عموماً على التهديد بالڤيتو. والمستعمرون يستخدمون بمهارة سلطان الخزانة خاصة عندما يتعلق الأمر بمصالحهم أو شؤونهم الخاصة. لقد كانوا سادة في أراضيهم.

تجربة أخرى عن حكومة مركزية جرت محاولتها في «المازوشيت» والتي تأسست عام 1629، لقد كانت محاولة تستهدف إقامة تيوقراطية ـ حكومة قائمة على أسس أو مبادىء دينية ـ سكان الماساشوسيت شاهدوا قيام جماعة من الطهريين الإنجليز الذين يأملون بناء جماعة مسيحية على الأرض الجديدة. في نظامهم السلطة المدنية عليها الخضوع لتعاليم الكنيسة. نظام الطهريين هذا مآله الفشل لنفس الأسباب التي أدت إلى فشل الملاك في إقامة أوليقارشية. وبقدر ما يترك المستعمرون المناطق الساحلية إلى داخل الأراضي، فإن جزءاً من حماسهم الديني يتبخر. والإنشغالات الاقتصادية المرتبطة بالمحيط المعادي والمجهول تصير في مقدمة اهتماماتهم.

مصير مماثل ينتظر كل التجارب اللاهوتية ـ الثيولوجية ـ التي جرت محاولتها بعد ذلك في روداز لاند وبنسلفانيا. يمكن إذن أن نستخلص أن كل المحاولات الهادفة إقامة حكومات نسبياً مركزية سواء من النمط المقاتل أو المثقف فشلت في أمريكا المستعمرات. في القرن الثامن عشر تأسست حكومات تمثيلية في كل المستعمرات الأنجليزية. وأهمية تدخل الكنيسة في الشؤون الدنيوية كانت متنوعة لكن اسمية.

المجتمع الاستعماري ـ الكولينالي ـ الأمريكي، قدم في كثير من الأحيان على أنه مجتمع متجانس لم يشهد إلا القليل من الصراعات الطبقية كتلك التي كانت تخرب أوروبا المعاصرة. هذا كان ربما صحيحاً في المستعمرات الأولى. لكن بما أن وفرة الموارد الطبيعية جرَّت نمواً اقتصادياً سريعاً، فإن هيكلية اجتماعية انبثقت مع تنوع الحظوظ الاقتصادية، الواصلون الأوائل كانوا أسعد حظاً بالنسبة لآخر الواصلين، لأن الأوائل استولوا على أجود الأراضي وأحسنها موقعاً. مهما كان الأمر مع أن قلة من العائلات الارستقراطية تركت انجلترا إلى المستعمرات الأمريكية، ومع أن معظم المستعمرين لم يجلبوا معهم إلا خيرات قليلة، فإن أرستقراطية محلية مؤسسة على اختلاف الثروات تطورت في القرن الثامن عشر. مع الاختلاف عما يحدث في انجلترا في نفس الفترة فإن الرأسمال واليد العاملة كانت نادرة جداً في أمريكا لكن الأرض الموارد الطبيعية كانت فيها وفيرة. في انجلترا الثروات في يد الرأسماليين، في أمريكا كانت في يد ملاك الأراضي الشاسعة. خاصة أولئك الذين يملكون في مستعمرات الوسط والجنوب وبشكل رئيسي في انجلترا الجديدة التي ازدهرت. بفضل التجارة والأعمال ظهر التجار الأغنياء، وهنا عكس ما هو حادث في إنجلترا وأوروبا في تلك الفترة، لم يكن العائد المتحقق من الأرباح والفوائد موصوماً بأي عار.

الثروة تمنح أولئك الذين يملكونها، بغض النظر عن أصولهم، احتراماً كبيراً ونفوذاً حتى في المستعمرات الأمريكية، الوظيفة التي

كان المواطن الأمريكي يسعى جاهداً للوصول إليها أكثر من غيرها، في تلك الفترة، هي أن يكون عضواً في مجلس الحكام. والذي يتكون من أغنى أغنياء البلاد. ويعينون مدى الحياة. أعضاء المجلس يشاركون في إعداد القوانين وكذلك في القرارات التنفيذية. مع مرور الزمن، الحكام ومجالهم عتمت عليهم المجالس التشريعية المنتخبة، لكن أعضاء هذه المجالس التشريعية كانوا أبعد من يكونوا من عامة الناس.

هكذا منذ البداية، المجتمع الأمريكي تطور وفق خصائص عصر الجماعين، ومع أن الدين لعب دوراً معتبراً في زمن الهجرات الأولى، إلا أن تأثيره قضى عليه النمو الاقتصادي والازدهار. لقد صارت أمريكا على رأس العالم الغربي في فجر القرن العشرين تقريباً. الثورة الصناعية قامت في انجلترا ولكن في نهاية القرن التاسع عشر كانت أمريكا تتفوق من حيث قوتها الصناعية على كل الأمم الأوروبية. الرأسمالية لها جذورها في الأرض البريطانية، لكنها في أمريكا حققت أكبر إنجازاتها ووصلت إلى ازدهارها التام.

في حوالي نهاية القرن التاسع عشر بدأت أمريكا تطبع الغرب بطابعها في تلك الفترة كانت الأمم الأوروبية الغربية المسيطرة، مثل انجلترا وفرنسا، قد استقر بها المقام في عصر الجماعين. واقعة أنه حتى في فترة تكونها كان انطلاق أمريكا في عصر الجماعين، بينما أقاربها الأوروبيون يعبرون عصر المقاتلين أو المثقفين، لا يشكك في مصداقية قانون الدورة الاجتماعية المطبق على الحضارة الغربية

الولايات المتحدة لم تكن في تلك الحقبة ما هي عليه الآن.

ولكي نعود إلى تاريخ الولايات المتحدة، الثلاثة عشر مستعمرة أمريكية ظلت تحت الوصاية البريطانية الشكلية حتى عام 1775، وهو تاريخ سلسلة من الإجراءات البريطانية مستهدفة الحصول على ضرائب أكثر من المستعمرات، قادت هذه إلى الثورة. من هذا المخاض الثورة ولدت الأمة الأمريكية.

حينذاك القوى الديمقراطية حققت نجاحات، لكن هيمنة الثروة استمرت. البلاد مستقلة بدأت بداية جديدة بوضع دستور جديد والذي، في العموم، كان مفيداً لها حتى اليوم. تأسست ثلاث فروع: السلطة التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، كل منها يمثل كابحاً يحول دون استغلال السلطة من جانب الآخرين. وفي خلال بضع سنوات صدر إعلان حقوق، كافلاً بعض الحقوق الأساسية للكل وليس فقط للمواطنين، جاء هذا الأعلان ليضاف إلى الدستور الأصلي. يمكننا أن نرى بوضوح في هذا التعديل بصمات الجماعين. إذ تضمن حريات فردية معينة مثل حرية العبادة، حرية التعبير حرية الصحافة وحرية اللجوء للقضاء.. وغيرها. إلا أنه يتجاهل الحق الأساسي للإنسان في العمل. أما حق الملكية الخاصة المطلق فإنه يظهر فيه كما يجب أن يظهر.

مع أن الدستور الأمريكي لم يقم في تلك الفترة ديمقراطية قائمة على الانتخابات العامة، لأن حق التصويت كان مرتبطاً بشروط

الملكية، إلا أنه كان مع ذلك أول تجربة تاريخية هادفة إقامة قوة القانون وليس قوة الرجال والمؤسسات. لقد اقتضى الأمر حرباً أهلية رهيبة ـ 1861 ـ 1865 ـ لكي يستطيع، أبراهام لينكولن الرجل الشجاع، المفعوم حباً للإنسانية بدون حدود، أخيراً تخليص الأمة من لغة العبودية. وفي ظل الدستور استطاع أبراهام لينكولن ـ وهو من أصل اجتماعي متواضع ـ أن يصير رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. هكذا الدستور الأمريكي، وثيقة رائعة، والتي يمكن أن نعزوا إليها عدة إنجازات مثيرة للإعجاب، ولكن كان يخونها أحياناً رجال ذوو عقلية استحواذية.

مثل صارخ عن هذه الخيانة يأتي سريعاً إلى الذاكرة، حتى حرب الانفصال، كانت الثروة تأتي أساساً من الأرض ومن الموارد الطبيعية، وإذا كان القطاع الصناعي أبعد من أن يكون في المؤخرة فإن الزراعة كانت منذ البداية القطاع الإنتاجي السائد. هذا طبيعياً ترجم في السياسة. لأن المشهد السياسي كان ـ مع بعض الاستثناءات ـ ملعب كبار ملاك الأرض. وهذا استمر حتى منتصف القرن التاسع عشر. مع ذلك بعد حرب الانفصال أخذت الأدوار شيئاً فشيئاً تعكس. بالرغم من أن الزراعة واصلت توسعها إلا أنها لم تستطع مواكبة النسق الصناعي الذي صار القطاع الاقتصادي السائد. هذا لم يكن حدثاً مفاجئاً لكنه ثمار زمن من عشرات السنين من التصنيع السريع وتراكم الرأسمال. السياسية، هي أيضاً، لا يمكنها إلا أن تكون انعكاساً لهذا الانتقال للسلطان الاقتصادي من ملاك

الأرض لصالح رجال الأعمال والسماسرة. في الأصل ليس هناك إلا حزب سياسي واحد، إنه حزب الفيدراليين ـ والذي تسيطر عليه المصالح العقارية، وبدون معارضة حقيقية. ولادة النظام الحديث، المتمثل في حزبين، لكل منهما برنامجه، أسلوبه، وسياسته الخاصة، هو مظهر متأخر، والذي وصل ذروته عام 1854، عند الحزب الديمقراطي الذي تكون منذ عام 1825 واجه معارضة من الحزب الجمهوري. مع هذا، إذا كان هذان الحزبان السياسيان مختلفين جداً في بعض النواحي، إلا أنهما وقعا شيئاً فشيئاً في يد كبار الرأسماليين الماليين والتجار. وهذه هي المجموعة من الجمّاعين التي تستخدم الدستور لصالحها الخاص والتي استمرت في ذلك حتى اليوم.

بعد حرب الانفصال، الكونغرس (المجلس التشريعي للولايات المتحدة) صوت على التعديل الرابع عشر للدستور: القانون الأول في الحقوق المدنية. السود الأمريكان يفترض أنهم أكبر المستفيدين من هذا القانون الذي يكفل لهم وضع المواطنة، والمساواة في الحقوق، ويمنع على حكومات كل الولايات المساس بحياة أو حرية أو ملكية أي شخص دون المرور بإجراءات قضائية عادلة. مع ذلك ولمدة عشرات السنين لم يساهم التعديل الرابع عشر كثيراً في حماية الحقوق المدنية للسود الأمريكان، والذين توجب عليهم الحياة في بؤس وقذارة وإملاق. بمعنى أنهم صاروا أفضل قليلاً جداً مما كان عليه حالهم أيام العبودية. في المقابل صار التعديل أداة عملية في يد

الرأسماليين من أجل الإثراء. معظم محاكم الولايات ترى أن الشركات هي «شخص»، وأن لها بالتالي أن تطلب الحماية وفقاً للمادة الخاصة بالإجراءات القضائية، وفي كل مرة السلطة العامة في إحدى الولايات تقترح تشريعاً يستهدف مواجهة الممارسات الضد ـ اجتماعية لشركة ما، فإن المحاكم الفيدرالية تتدخل معلنة أن اجراءات تلك للولاية لا دستورية لأنها لا تحترم مبدأ «إجراءات عادلة» الواردة في التعديل. حكومات الولايات صارت إذن عاجزة في مواجهة سلطان الشركات العملاقة.

متملصة من كل تدخل من قبل الولايات، وفي مواجهة حكومة فيدرالية مرنة ومستعجله، فإن الشركات تزدهر في أمريكا، الاقتصاد تطور بسرعة لا سابق لها، بالرغم من أن الشركات الصغيرة تذوب في الشركات العملاقة الممارسات التي كانت شائعة بين رجال الأعمال في نهاية القرن التاسع عشر استحقوا من أجلها لقب «البارونات اللصوص». كل الصناعات الكبرى صارت تقريباً احتكارية. بدون هؤلاء المحتالين ما كان للاقتصاد أن يدرك ـ ربما ـ هذا التوسع السريع. لكن بالتأكيد ثمة آثار جانبية أصابت مركز القوة الاقتصادية، على هذا النحو الواسع، بمرض لم يستطع المجتمع الأمريكي التخلص منه منذ ذلك الحين.

إن أشد ما يكرهه رجال الأعمال هو التنافس بينهم لأن التنافس يزيد من عدم اليقين ويحد من الربح. على العموم هم أيضاً فطنون إلى تدخلات وتنظيمات السلطة العمومية خوفاً من أن هذا يؤثر سلباً

على مصالحهم. التنظيم بالطبع مرحباً به من قبلهم إذا وضع حداً للتنافس وكفل لهم عائداً منتظماً وعالياً.

في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً، بينما معظم الصناعات كانت مركزة في أيدي بعض البارونات، فإن السكك الحديدية لا زالت موضع منافسة. في الواقع المنافسة في هذا المجال كانت شديدة لدرجة أن البارونات أنفسهم طلبوا من الكونغرس إصدار تنظيم، والذي سارع بالطبع لإجبارهم إستجابة لهمهمات السخط الصادرة عن صغار رجال الأعمال. عام 1929 أنشأ الكونغرس لجنة التجارة ما بين الولايات (I.C.C) بهدف تنظيم السكك الحديدية من أجل الصالح العام. يمكننا القول أنه بين حرب الانفصال وسنة 1929 الحاسمة التي سجلت أهم أزمة اقتصادية، فإن عصر الجماعين في الولايات المتحدة كان في ذروته. الرأسماليون يزدهرون في كل المجالات: فمن ناحية القوانين ضد الاحتكار قليلة الفاعلية خلقت ستار دخان خلفه الاحتكار الفردي واحتكار المجموعة يمكن لهما الازدهار، بينما نقابات العمال ظلت على البلاط. ومن ناحية أخرى تشكلت عدة لجان تنظيمية بهدف القضاء على المنافسة بين المجموعات الاحتكارية والتي كان يبدو أنها غير قادرة على التفاهم والعمل المنسجم في إطار احتكاري. المنافسة عدوة الفوائد الهائلة خنقت تقريباً في كل الصناعات واحدة بعد الأخرى. منذ ذلك الحين التواطؤ الضمني بين السلطات العمومية والرأسمال الكبير نمى بدون انقطاع. لأن الرأسمال يستطيع التمتع بفوائد الاحتكار برضى مختلف

خدمات الرقابة، هذه الخدمات ـ أو أجهزة ـ تستخدم أشخاصاً على حساب الصناعات نفسها المفترض أنها تراقبها، احتيال ماكر يتواصل يوماً بعد يوم تحت أنظار السلطات العمومية.

مسألة أن الرأسمالية تتكبد صدمات داخلية معينة تعمقها ماركس وقتاً طويلاً قبل تشخيصها من قبل الاقتصاديين الآخرين، هذا المرض والذي أعراضه كانت ظاهرة للعيان في الربع الأول من القرن التاسع عشر. الرأسمالية الأمريكية كانت في المهد عندما واجهت الأزمة الاقتصادية عام 1819. ولم تهدأ هذه العاصفة إلا لتثور أخرى عام 1837، في النصف الأول من القرن التاسع عشر واجهت الرأسمالية الأمريكية أزمتين اقتصاديتين. إلا أنها خلال النصف الثاني عرفت خمس أزمات (1854 ـ 1857. 1873. 1884 ـ 1893). القرن العشرين ينفتح على آفاق أكثر سطوعاً، لكن الهزال الناتج عن الانكماش لم يفارق الاقتصاد. بعد أن أعطى إشارة طليعية عن هجومه المحتم عام 1907 ـ 1923 ـ 1927 ـ حل النحس منتقماً يوم 24 أكتوبر 1929، يوم الانهيار الكبير، في ذلك اليوم إنهار سعر الأسهم في بورصة نيويورك، كان ذلك عندئذ بداية السقوط الحر لأسعار القيمة والتي شملت سريعاً كل الاقتصاد الأمريكي وأخيراً مجموع العالم الرأسمالي.

خلال ثلاث سنوات كان هناك 85 ألف حالة إفلاس في الولايات المتحدة، واثني عشر مليون أي 25% من السكان النشطين أحيلوا إلى البطالة. السود الذي جرى استغلالهم منذ الفترة

الكولونيالية كانوا بالطبع الضحايا الرئيسيين لإعادة النهوض.

التعفن الاقتصادي مس بين يوم وليلة الأمم الأخرى، التي تواجه صعوبات مرتبطة بالاقتصاد الأمريكي، من خلال التجارة العالمية. العالم الرأسمالي بكامله كان يقف آنذاك على حافة الهاوية، النظرة الماركسية الكارثية عن موت الرأسمالية كانت، أكثر من أي وقت مضى على وشك التحقق.

عندئذ ظهر اقتصادي لامع اسمه جون مينار كنز واندلعت الحرب العالمية الثانية. كنز كتب الوصفة الدوائية بينما الحرب تكفلت بإثبات أن العلاج فعال. مع المصاريف العمومية الهائلة التي تطلبتها الحرب أمكن استيعاب البطالة بالتدريج، ولزمن معين كان هناك ـ بالعكس ـ نقصاً في اليد العاملة. كنز أوصى بجريمة كبيرة من المصاريف العمومية للنضال ضد البطالة، والحرب برهنت على صدقه. النظرية الكنزية الاقتصادية تقود العالم الرأسمالي منذ ذلك الحين.

مؤطرة بعناية بفضل الإجراءات الكنزية، فإن الرأسمالية بدت وكأنها تعمل دون صدمات خلال ربع القرن الذي أعقب الحرب العالمية الثانية. كان ثمة سقطات خفيفة لكن مأساة 1929 لم تتكرر. لكن في اللحظة نفسها حيث الحرب ضد البطالة والأزمات الاقتصادية ظهرت رابحة، برزت مشكلة أخرى قاسية واحتمالاً أشد خطورة من بطالة عامة والتي استمرت منذ 1929: إنها تعايش

التضخم مع معدلات عالية من البطالة. هذه المشكلة لم ينتبه إليها كينز، لأنه في نظامه البطالة والتضخم يفترض أنهما يتوازنا مع بعضهما: لا يمكن لهما النمو أو الانهيار معاً وفي نفس الوقت. في الوقت الحالي ليس ثمة اتفاق بين الاقتصاديين ـ كما هو الحال في الغلب ـ بالنسبة للطريقة التي يواجه بها التحدي الجديد. ليس لأن المشكلة غامضة، وإنما ببساطة لأنها لا تقبل أي حل بسيط وسياسياً قابلاً للتحقق.

وتتويجها لكل هذا الاضطرابات نصب الرأسمالية جرى تحديه عام 1973 من قبل كارتل دولي اسمه منظمة البلدان المصدرة للنفط (Opep). ونتج عن ذلك مضاعفة سعر النفط أربع مرات، واهتزت الرأسمالية من جديد. انكماش عام 1973 ـ 1975 كان الأشد منذ الانهيار الكبير. وواكبه، زيادة عن ذلك تضخماً برقمين لا مثيل له. وصفات كينز جرى تطبيقها مجدداً، ربما لهذا السبب أمكن تفادي الأسوأ. ولكن نظراً لأنه لم يشرع في أي إصلاح سياسي فإن الأزمة لا زالت حية مستعدة للإنفجار من جديد في أي لحظة[*].

(*) وجهة نظر الرأسمالية ترى في ارتفاع أسعار النفط أهم أسباب أزمتها الاقتصادية. في هذا مغالطة أو تجاهل أن ارتفاع أسعار النفط استجابة للتضخم الحاصل في الدول الرأسمالية. هذا التضخم ناتج من بين أسباب أخرى عن الصراع رأسمال ـ عمال. الرأسمال لا يقبل أي مساس بعوائده بينما قوة العمال النامية تجبره على زيادة الأجور. الحل كان في قبول زيادة الأجور وفي نفس الوقت زيادة الأسعار. مما أنتج تضخماً وتدهوراً في القوة الشرائية. وحيث أن النفط هو أداة الدفع الأولى عند مصدري النفط، فإنهم اضطروا هم أيضاً إلى رفع أسعار النفط =

القواعد الأديولوجية للرأسمالية:

أي نظام اجتماعي اقتصادي لا يمكن أن يستمر ما لم يقم على بنية أديولوجية كافية، في هذا الرأسمالية ليست استثناء. وكما هو الحال في كل نظام استغلالي فإن خطه الأديولوجي يكون قوياً في النظرية مائعاً في الممارسة.

الرأسمالية تعرف على أنها نظام اجتماعي اقتصادي سياسي والذي فيه وسائل الإنتاج ـ الصناعة المصارف الموارد الطبيعية تكون ملكية المشروعات الخاصة والخواص، وحيث النظام السياسي يلعب لصالح هؤلاء الملاك، وحيث توزيع الدخل الوطني يحدده هؤلاء، ويمكن تعريفه أيضاً على أنه نظام فيه الرأسماليون ـ ملاك وسائل الإنتاج ـ أحرار في سعيهم لتحقيق أعلى حد من الأرباح. هذه الحرية في العمل لزيادة الأرباح هي أساس الرأسمالية. لأنه خلال مراحل المقاتلين والمثقفين في الحقبة الحديثة، وبينما سلطة الدولة والأخلاق المسيحية يعملان على تخفيض العائد المتحقق من الأرباح والفوائد، فإن النظم الاقتصادية السائدة كانت تسمى «التجارية والفيزيوقراطية» الصناعات والتجارة توجد حتى في تلك الفترة، مع أنها على مستوى أقل أهمية، والتجار يملكون فعلاً الرأسمال المالي، لكن الدولة لا تدعهم أحراراً في اتحاد قرارات تهدف إلى تحقيق

= لملاحقة ارتفاع الأسعار السلع المستوردة، المرض إذن في النظام الرأسمالي وليس في رفع أسعار النفط. المترجم.

أعلى معدلات الربح. لهذا فإن الاقتصاديين لا يصفون هذه الأنظمة بأنها رأسمالية: نمو العوائد وقوة الدولة كان آنذاك الشاغل الأول عند العلماء. هكذا في النظام المسمى نظام المشروع الحر، كلمة حر تعني في الحقيقة حرية الرأسمال في الحصول على أكبر معدل أرباح لما استثمره. ولا تعني حرية أداء اقتصاد سوق. لقد انتهت المنافسة منذ وقت طويل، ولكن استمرت صفة الرأسمالية بأنها نظام المشروع الحر. ولهذا مع أن المنافسة منذئذ غائبة فإن قدرة الرأسمالي على تحقيق أكبر معدل للأرباح تطورت أكثر من أي وقت مضى.

لقد سبق وأن لاحظت أنه في عصر الجماعين يعرض المثقفون خدماتهم لتقديم نظريات مبررة تفوق الجماعين. بالنسبة لأغلبية المثقفين لا يهم كثيراً أن تكون تبريراتهم مغلوطة ما دامت سهلة الحفظ ومقبولة من النظام، البعض فقط يقترح إصلاحات حقيقة ويقلقهم مصير المستغلين أي الواقعين تحت الاستغلال، رغم أنف الطبقة الحاكمة. من هذا المنظور يجب النظر إلى النظرية الاقتصادية الرأسمالية المقترحة من آدم سميث. أب العلم الاقتصادي، تُربط عادة الفترة من 1500 إلى 1700 بالمذهب التجاري الذي استمر فيما يبدو خلال عصر المقاتلين في الزمن الحديث. يمكن أن نذكر، وكما قلنا في الفصل الرابع، أنه خلال هذه الفترة تم وضع أسس الرأسمالية كما توجد اليوم. نشاطات التجار ورجال الصناعة كانت مع ذلك محددة بواسطة عدد لا يحصى من اللوائح الحكومية. مع أن عدد من التجار وجماعات أخرى من المصالح الخاصة أثرت

بفضل هذه اللوائح. القوة الحقيقية المحركة للرأسمالية ـ الاستحواذ أو دافع الربح ـ لم تكن معتمدة أو مقبولة لا من الدولة ولا من الكنيسة، نظراً لأن الكنيسة كانت خاضعة للملك فإن مسؤولية كبح التجار، الباحثين بلهفة عن مصالحهم الخاصة تقع على التاج. لوائح الدولة استمرت مع ذلك منتمية لأديولوجيا العصور وسطية وللأخلاق المسيحية.

هكذا عندما عام 1776 كتب آدم سميث كتابه الشهير، ثروة الأمم، فإن التجار والرأسماليون، مع أن لوائح الدولة لم تعد تعيقهم كما كانت تفعل خلال عصر المقاتلين السابق، إلا أنهم ليسوا بعد أحراراً تماماً في البحث عن الربح. معاصروا سميث يتخفون وراء الحجة التي مفادها أن الكائن الإنساني مدفوع قبل كل شيء بدوافع فردية وأنانية، كل أفعال الإنسان تصدر عن حب البقاء أو حفظ الذات، وبهذا عن الفردية والأنانية. الفردية والبخل ليسا إذن شراً وإنما فضيلة إذ يساعدان على العمل الجاد وعلى الازدهار. هذا يعني أن على الدولة تخفيف تدخلها في النشاطات الإنسانية إلى الحد الأدنى حتى تبلغ الرفاهية الفردية والاجتماعية حدها الأعلى.

مدعوماً من المثقفين، والذين العدد الأكبر منهم كان موظفاً في الشركات التجارية الكبرى، هذا الإطراء للشراهة وللسلوك الاستحواذي وجد كل الترحيب سريعاً من الرأسماليين. لكن هذا الإلحاح المفرط على الفردية أثار عند كثير من الناس الخوف من الغوغائية. إن مساهمة سميث اللامعة هي التي خففت بعض الشيء

من مخاوفهم. تحليله لنظام رأسمالي متكوناً بنجاح من خلال منافسة حادة خلص النظرية الفردية من عدد من السلبيات التي ساهمت في منعها من الحصول على القبول العام. سميث يذهب إلى أنهم «متروكين لحالهم، فإن الرأسماليين والعمال، تقودهم مصالحهم الخاصة التي تحثهم على استخدام رأسمالهم وقوة عملهم حيث تحقق أكبر عائد. الآلية التي تحدد هذا هي اليد الخفية» لسوق حر حيث يتقاتل المنتجون من أجل نقود المستهلكين في بحث أناني عن الربح. وحيث المستهلكون يبحثون عن الحصول، بأفضل الأسعار، على السلع الأكثر جودة. وبهدف الحصول على أعلى الأرباح، فإن المنتجين يستخدمون اليد العاملة لإنتاج الخيرات التي تثير طلباً فقط، وأن يستخدموا التقنية الأكثر فعالية للإنتاج بشكل يقلل من تكاليف الوحدة.

بالنتيجة في اقتصاد السوق الحر كل الناس سعداء: بينما المنتجون يحققون أعلى الأرباح، فإن المستهلكين راضين من إنتاج على الجودة متوفراً بأرخص الأسعار بسبب الفعالية القصوى للإنتاج.

ليس فقط الممارسة الحرة لقوى العرض والطلب للسلع تقود إلى فعالية اقتصادية قصوى ولكن أيضاً، حسب سميث، إنها تكفل معدلات عالية من النمو الاقتصادي، وبهذا ارتفاع مستوى الحياة. لكن النمو يتوقف على تراكم الرأسمال، والذي بدوره يتوقف على الربح الكافي. ها هو خط دفاع آخر للسلوك الاستحواذي والغرضي. لأنه يضمن استمرارية التقدم الاقتصادي للمجتمع. هكذا النمو

والفعالية هما القاعدتان اللتان يقيم على أساسهما إطراءه ودفاعه عن المشروع الحر المتخلص من كل تدخل من الدولة. مع أن تشخيصه يقوم على الغرائز السائدة عن الأفراد، فإنه أيضاً تنديد أخلاق بالمذهب التجاري المتهم آنذاك بأنه يعيق تقدم الرفاهية الاجتماعية. رجال الأعمال مثل العمال يجدون في كتابه فقرات تتفق مع اهتماماتهم الخاصة.

قدمت أولاً في شكلها الخام من قبل آدم سميث ثم هذبت من قبل أتباعه مثل دافيد ريكاردو ج.ب. ساي وغيرهما، نظرية دعه يعمل اليوم تعتبر نظرية كلاسيكية في علم الاقتصاد. هذه الأديولوجيا الاقتصادية ـ ليبيرالية ـ تواكبت مع عقيدة سياسية تختزل الدولة أو الحكومة إلى مجرد شر ضروري. شر بسبب تدخلها في الحريات الفردية ولكن ضروري لتفادي الغوغائية. يحدد سميث للحكومة ثلاث وظائف أساسية: العدالة، الدفاع الوطني، تقديم بعض الخدمات العمومية قليلة العائد بشكل لا يمكن للمشروعات الخاصة أن تقدمها.

في الفترة التي فيها سميث يكتب كتابه، كانت الرأسمالية لا زالت في حالة إرهاصية. لكن في نهاية القرن التاسع عشر وصلت الرأسمالية مرحلة الشباب. في مجموع العالم الرأسمالي، وخاصة في ألمانيا وأمريكا صناعات ضخمة برزت تقوض آلية السوق المفترض أنه يحقق الرفاهية الاجتماعية: إذا كانت قوى الطلب حرة أن تمارس فإن قوى العرض كانت فعلياً متحكم فيها، العرض ليس

حراً. لكن كل هذا لم يمنع جيل من الاقتصاديين من وضع دفاع أكثر نبلاً لنظام المشروع الحر.

بالضبط في الفترة حيث إجراءات المركزية الصناعية كانت تعمل، بعض الاقتصاديين من بينهم جيفونز والراس ومارشال يعملون على إلباس الأديولوجيا الاقتصادية الكلاسيكية جهازاً رياضياً معداً على أساس فرضية المنافسة الكاملة. ويرجع إلى هؤلاء التحليل الاقتصادي المسمى كلاسيكية جديدة. حتى في المرحلة حيث البارونات اللصوص يحولون نحو خزائنهم الثروة الوطنية، فإن الاقتصاديين النيوكلاسيك يوصون الحكومة بسياسة اقتصادية خفية خوفاً من إعاقة المجموعات العملاقة عن العمل للصالح العام!.

إذا كانت أسس النظرية الاقتصادية الكلاسيكية الجديدة قد وضعت في نهاية القرن التاسع عشر، فإن تطورها وتهذيبها تواصل حتى مرحلة متقدمة من القرن العشرين، ولا زالت مستمرة، مع إنقطاعات قصيرة حتى اليوم. في أمريكا جيل جديد من الاقتصاديين الكلاسيك الجدد بدأ يعترف ببعض فشل الرأسمالية مثل غياب المنافسة الكاملة، قلة إنتاج الخيرات المطلوبة اجتماعياً مثل الطرق والحدائق، وجود آثار جانبية غير مرغوبة اجتماعياً مثل تلوث الجو وتوسيخ البيئة، وفوق كل شيء الأزمات الاقتصادية.

ولكن إذا كانت مثل هذه الأوبئة الرأسمالية قد جرى الإقرار بها صراحة، فإن معظم الاقتصاديين المتأخرين في التقاليد الكلاسيكية

الجديدة، استمروا في اعتبارها مجرد انحرافات تتجه إلى تصحيح نفسها. البعض يرى ضرورة تدخل جدي من السلطة العامة بهدف علاج أمراض الاقتصاد، لكنه يمثل أقلية صغيرة. لهذا السبب كان الاقتصاد غير معد لوضع علاج لأي كارثة اقتصادية كتلك التي هزت العالم عام 1929.

الاقتصاديون في الكلاسيكية الجديدة، عقيدتهم لا تتزعزع في قدرة الرأسمالية على الخروج من أي أزمة طالماً امتنعت الدولة عن تقديم أي دعم لها.

من وجهة نظر هؤلاء أي تدخل رسمي ـ حكومي ـ لا يمكن إلا أن يزيد الوضع سوءاً. الانهيار الكبير عام 1929 فاجأ الاقتصاديين في عالمهم المثالي.

شرع كينز في إعادة نموذجه وإعادة تنظيم النظرية الاقتصادية حتى يجعلها تتوافق مع الواقع والذي تطلب تنفيذاً عاجلاً. عكس الكلاسيك الجدد الذين يهتمون أساساً بالاقتصاد الجزئي، أعني السلوك الاقتصادي لكيانات اقتصادية منفصلة مثل رجال الأعمال، المستهلكون. . . ، فإن كينز اهتم بالاقتصاد الكلي، أي تحليل الاقتصاد الكلي.

الاقتصاد الكنزي إذن هو نقيض القضية بالنسبة للأديولوجيا الكلاسيكية الجديدة، لأن الحكومة حالياً قذف بها إلى دور كلب حراسة دائم وضروري للحفاظ على صحة الاقتصاد. إن جاذبية

النظرية الكنزية تأتي من أنها لم تقدم فقط تشخيصاً صحيحاً لأمراض الاقتصاد، وإنما أيضاً من كونها اقترحت إجراءات في مقدور الحكومات القيام بها. لهذا انتشارها كان سريعاً وحاسماً رغم مقاومة بدئية وعنيدة من الاقتصاديين العقائديين الذين هم ضد أي تدخل حكومي لأسباب محض أديولوجية. الأفكار الكنزية حلت مبكراً محل أفكار سابقية، لقد صارت اليوم الأرتودوكسية التي تواجه أحياناً بعض التحديات. التحدي الأكبر أطلقه في سنوات الستين ملتون فريدمان ـ جائزة نوبل للاقتصاد ـ والذي يعزى إليه الفضل في كونه أصل مفهوم جديد المسمى: اقتراب نقدي ـ من نقود ـ من مسائل التأرجحات الاقتصادية في النظام الرأسمالي.

في الوقت الحالي رأي أغلبية الاقتصاديين تمثله أفكار بول ساموبلسون ـ جائزة نوبل في الاقتصاد ـ والذي مساهماته المتنوعة تتصف بدقتها الرياضية وأناقتها. مساهمته في العلم تمثلت في دمج نظرية كينز في نظريات النيوكلاسيك الاقتصادية ليجعل منها ما يدعون «تركيبة نيوكلاسيك» يمكن بكل سرور الإستعانة بتشخيص كينز من أجل الحفاظ على العمالة الكاملة، وأديولوجيا النيوكلاسيك تستطيع إلقاء الضوء على الممارسة الحرة للأسواق في إطار كينزي، هكذا في النظام الرأسمالي يمكن للمجتمع أن يزدهر على جبهتين: عمالة كاملة مرتبطة بفعالية اقتصادية عالية.

هوة، من نفس النوع الذي كان يفصل النظرية الاقتصادية عن الواقع، قبيل الأزمة الكبرى، هي اليوم ظاهرة للعيان. ليس فقط أن العالم النيوكلاسيك صراحة لا واقعي، لكنه أيضاً لا يرحم ولا يهتم

بأولئك الذين يجدهم سوق العمل لا فائدة منهم، باختصار النظام قاسي.

ولكن معظم الذين ينتقدون الرأسمالية ليست عقليتهم مختلفة عن عقلية أتباع الرأسمالية. وضعهم لا يأذن لهم بقذف الآخرين بالحجارة، لأنهم هم أنفسهم يعيشون في قيود المادية، أولئك الذين يندون بعقلية الربح اليوم، يُظهرون هم أنفسهم سلوكاً استحواذياً، باختصار إنهم جماعين أو رأسماليين مثقفين.

الرأسمالية والإقطاع:

الرأسمالية تتشابه كثيراً مع نظام الإقطاع الذي ساد المجتمع الغربي ما بين عام 900 و1400م. الرأسمالية ليست فقط نظاماً اقتصادياً ولكن أيضاً نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متواكبان. لأنه بدون الإقرار بحق الملكية اللامحدود للرأسماليين اجتماعياً، فإن عالم الأعمال لن يعيش يوماً واحداً أكثر. وإذا بحثنا عن أسس القوة عند الطبقة الحاكمة، فإن التماثل في النظامين يبدو واضحاً. نفس الشيء الفلسفة السياسية والاجتماعية التي يعتمد عليها النظامان تُظهر وحدة أكبر مما اعترف به حتى الآن.

بالنسبة لعقلية الطبقة الحاكمة، الرأسمالية والإقطاع يكونان شقيقين في تلك الفترة ـ في الأقطاع ـ كما اليوم ـ في الرأسمالية ـ الثروة هي المسيطرة في الإقطاع الأغنياء يحكمون بفضل السيطرة التي يمارسونها على الأراضي الشاسعة، وهذه كانت آنذاك عامل

الثروة. اليوم الأغنياء يحكمون لأنهم يسيطرون على الأسهم والأوراق المالية. الإقطاع كدَّره عراكاً مستمراً بين كبار الملاك العقاريين، الذين الأرض كانت موضوع رهانهم. الرأسمالية تكدرها حرب صناعية حيث الشركات الصغيرة باستمرار فريسة المجموعات الصناعية الكبرى. في أوروبا العتيقة، القرون وسطية، الثروة كانت مركزة في أيدي ملاك الأرض، دوقات بارونات كومتات، إنها اليوم مركزة في أيدي الرأسماليين ـ رؤساء الشركات، نوابهم، الأداريين ـ النظام الإقطاعي كان بربرياً ويضطهد الفلاحين والأقنان، الرأسمالية قاسية، وحشية، تضطهد البلدان النامية والعمال غير المؤهلين، في الحالتين الاستغلال يقوم على اللاملكية والظلم الاقتصادي.

في شكل مصطلحات فلسفية واجتماعية وسياسية تسم الأفكار الفردية النظام الإقطاعي قدر ما تفعله اليوم في النظام الرأسمالي. آنذاك كما الآن الوظيفة الأساسية للسلطة السيادية تقوم في تطبيق القانون وليس في وضعه أو تشكيله حسب مزاجها الخاص. الناس آنذاك يتناقشون في إطار لاهوتي، بمعنى أن المثقفين، متمثلين في رجال الدين وغيرهم، يقدمون تبريرات لاهوتية للنظام الإقطاعي، في أيامنا هذه يتحدث المثقفون في إطار المنطق، لهذا يستند الدفاع عن الرأسمالية إلى حجج منطقية أيضاً(*) هكذا في الحالتين يمكن أن نلاحظ أن المثقفين باعوا أنفسهم للجمّاعين.

(*) دفع المنطق أحياناً إلى أقصاه في صورة معادلات رياضية إمعاناً في التغييب ـ المترجم.

فيما يتعلق بالحياة اليومية توجد أيضاً عدة تماثلات: الدعارة والانحراف كان وباء الإقطاع كما هما بالنسبة للرأسمالية اليوم. آنذاك كما اليوم العلاقات والروابط العائلية تراخت، آنذاك كما اليوم السلطة السياسية والإدارية لا مركزية. في نظام الإقطاع الفرسان يحاربون باسم ولاتهم، اليوم محل الفرسان نجد الجنرالات والكولونيلات والجيش. باختصار آنذاك كما اليوم، العقلية الاستحواذية سائدة تصنع القانون. لهذه الأسباب جميعاً اعتبر النظام الإقطاعي والرأسمالية فرعين مختلفين لنفس الشجرة المسماة عصر الجماعين.

الثورة الاجتماعية وأفول الرأسمالية:

الرأسمالية في مرحلة انحدار منذ أعوام الثلاثينيات، حيث الأديولوجيا النيوكلاسيك، المتمثلة في دعه يعمل، تنحت لصالح أفكار كينز. حينئذ فكرة التدخل بدأت تجد قبولاً عند حكومات العالم الرأسمالي. هذه الفكرة تجسدت اليوم في غول بيروقراطي صعب التحكم فيه. قبل الانهيار الكبير تدخل السلطة العمومية في النظام الاقتصادي كان محدوداً جداً. وحتى هذا كان يتم بطريقة تحمي الأعمال الشرعية من رقابة عامة ضيقة جداً أو بشكل لا يكبح التنافس بين الشركات المتنازعة. ولكن عندما وجد كينز، وبرهن على أن رقابة حكومية دائمة ضرورية للنظام الاقتصادي بهدف منع انهياره، فإن نفوذ الرأسماليين أخذ في الانحطاط أو الانحدار. خسارة هؤلاء بالطبع كانت لصالح رأسماليين زائفين مثقفين. اليوم هؤلاء هم الذين يقبضون على مقاليد الأمور.

عصر الجماعين يبدأ عندما قوة المال تستولي على مقاليد الأمور الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع ما، وتقيم نظاماً سياسياً لا مركزياً. ويصل ذروته عندما هيمنة الجماعين تكون مطلقة ولا اعتراض عليها، وانحداره يبدأ لحظة أن جهاز السياسة يصير في أيدي الجماعين المثقفين.

بدراسة التاريخ الغربي عن قرب، نلاحظ أن الرأسماليين وصلوا قمة الهرم الاجتماعي في حوالي عام 1860 على الأقل في انجلترا والولايات المتحدة. في تلك الفترة النفور الذي تثيره العوائد الناتجة عن الربح والفائدة، والذين فيما سبق نددت بهما الأخلاق المسيحية، اختفى. لكن في الحاضر هذا النفور نفسه عاد إلى الظهور. عقلية الربح وضعت اليوم من جديد في قائمة المحرمات دوافع رجال الأعمال موضوعة باستمرار موضع اتهام. بينما الدخول العالية الناتجة عن مصادر أخرى لا تثير نفس النفور ولا نفس التنديد. كل هذا مناخ يذكر بعصر الفيزيوقراط، حيث الباباوية تمجد عوائد المصادر الأخرى غير الربا والربح.

من الواضح أن عصرنا لا يعطي ميزة للرأسماليين الحقيقيين. صحيح هؤلاء لم يهزموا بعد، في الواقع الرأسماليون المثقفون وحدهم يملكون نفوذاً أكبر من نفوذهم. لكنهم يخسرون المواقع يقاتلون دائماً، يصرفون ملايين الدولارات لتلميع صورتهم لكنه قتال في خطوط خلفية، يهدف إلى تأجيل النهاية المحتومة قدر المستطاع. إنه من المهم أن نلاحظ أن عصر الجماعين يبدأ الانحدار

لحظة أن جهاز الحكم السياسي يفلت من الجماعين الخلص.

أعراض هذا الانحدار في الحاضر يمكن رؤيتها لكل من يتجشم مشقة النظر. معدلات الجريمة المروعة، تفكك الروابط العائلية وآثارها على المسنين، نسبة الطلاق المرتفعة، والتسامح الفاضح مع البورنوقرافي ـ الفن الخليع ـ والدعارة، وموجة سوء استخدام المخدرات، وإدمان الكحول، وتحول الفن والرياضة، وعملياً كل شيء إلى تجارة. وعدم إحساس العمال العاملين بالعاطلين، هي جميعاً أعراض أزمة تعصف بالرأسمالية اليوم. إنها جميعاً أعراض لا تظهر إلا في نهاية عصر الجمَّاعين. المدافعون عن الرأسمالية يؤكدون أن النظام لا زال سليماً، وأنه لم يشهد في التاريخ مثل هذا الازدهار، وإنه رغم التركيز الهائل للثروات في بعض الأيدي، فإني أي نظام لم يقدم مثل هذا القدر من الرفاهية والسعادة لهذا العدد الكبير من المواطنين، هنا بالضبط يخدعون أنفسهم. الشيء الوحيد الذي له حساب عندهم هو المادة، ولكن في العمق هذه المادية الفائقة، خاصة هذه المادية والنفاق الرأسمالي هما المسؤلان عن كل أمراض المجتمع قادة العالم الغربي لا يوحون اليوم لا بالثقة ولا بالاحترام، كل ما يثيرونه هو الغيرة: الغيرة من حياتهم المرفهة، الغيرة من السهولة التي يخدعون بها الجمهور العام. الغيرة من التنديدات الخفيفة أو غياب أي تنديد يعاقب إفراطهم الملحوظ. هل ثمة شك في أن الجمهور يتبعهم كمثال أو قدوة، محاولاً الوصول بكل الطرق لنفس التسهيلات؟ هل من شك في معدلات الجريمة

العالية؟ المذنبون الحقيقيون يتملصون من كل جرائمهم المعروفة والمجهولة، لكن الناس المساكين، الذين لا يصنعون إلا اقتفاء أثر حكامهم، تقع عليهم كل الأخطاء.

حتى في المستوى المادي، بعض إدعاءات الرأسمالية، ليس كلها مع ذلك، زائفة. أمريكا التي تضم 6% من سكان العالم تستهلك على الأقل 30% من الموارد الطبيعية في العالم كله. ومع ذلك داخل حدودها يوجد فقر حاد. خاصة بين السود والأقليات الأخرى، إذا كان هذا أفضل ما تستطيع الرأسمالية عمله بعد أن تستنزف كل سنة ثلث الموارد العالمية، فإننا نتساءل لماذا الازدهار الاقتصادي يكون موضع هذا الصخب؟!

حالياً الغرب يعبر مرحلة الجماعين ـ الشغيلة من دورته الاجتماعية، هذا لأنه وقد أعداه بخل حكامه، فإن الناس يكتسبون بإطراد عقلية الشغيلة. من المفهوم جدا، أن تحاول الجماهير الوصول إلى التسهيلات التي يتمتع بها الرأسماليون. لكن لهذا يجب عليهم العمل ساعات عمل طويلة. في الأسرة الزوج والزوجة عليهما إنهاك نفسيهما ليواجها التضخم الصاعد.

اهتمام المقاتلين والمثقفين بالمغامرة والفنون لا يجد الوقت الكافي للتعبير عن نفسه. هكذا وقد أعداهم المرض الرأسمالي المتمثل في «الاستحواذ» فإن الجماهير ترغم على سلوك مسلك الشغيلة. إن هذا وهذا فقط هو أساس الأزمة الحالية في البلدان

الرأسمالية. الأزمة سوف تزداد خطورة خلال البضع سنوات القادمة، وتنتهي بتحريض الجماهير على الثورة. حتى لو أن الاقتصاديات، الاقتصاديات الرأسمالية استمرت في حالة طيبة، وهي فرضية قليلة الاحتمال، فإن عصر الجماعين ـ إذا صح إحساسي ـ الحالي قد بدأ في الغرب نحو عام 1860، ليبلغ ذروته في حوالي الثلاثينيات وهو في حالة انكماش منذ تلك الحقبة. التجربة التاريخية تعلمنا أنه في عصر ما مدة التيارات الصاعدة والهابطة تقريباً متساوية. إذاً الاتجاه الصاعد للرأسمالية استمر ما بين 70 و80 عاماً تقريباً فإن انحدارها سوف يستغرق في العموم نفس عدد السنوات. وهذا يعني أن الثورة الاجتماعية التي تخلع الجماعين عن عرشهم يجب أن تحدث عام 2010 أو عام 2020 تقريباً.

أولئك الذين يتربعون على سدة السلطان هم الذين يخشون نبوءتي، لكن لا أعتقد أنهم يصدقون. لم يعتقدوا أبداً في هذا لحظة كل الثورات الماضية.

الدراسة الجادة لأهم ثورات العالم ـ الثورة الفرنسية، الثورة البلشفية.. ثورة ماو. . . .الخ تظهر قضية مشتركة: إنها اندلعت جميعاً بسبب إفراط بيروقراطي شمولي غير مبالٍ بظروف الجماهير وبسبب تدخل الرأسماليين المثقفين.

الغول البيروقراطي نفسه يهدد اليوم بتقويض العالم الغربي هذا الغول يتضخم يومياً، أو مستمر في ذلك في المستقبل القريب ينتهي

بإرغام الجماهير على رفع السلاح لكنسه هو والذين أوجدوه.

من يفجر هذه الثورة؟ من يمثل طليعتها؟

وفق قانون الدورة الاجتاعية، كل عصر جماعين ينتهي بثورة اجتماعية يعد لها مجموعة مثقفين ومقاتلين ساخطين. اليوم في المجتمع الغربي الطبقة المثقفة تتكون من مثقفين عقاريين: الكتاب، الأساتذة، العمال ذوي الياقات البيضاء، القضاة الأطباء، رجال السياسة. مع أن بعضهم التحق بصفوف الرأسمالية. طبقة المقاتلين تشمل ضباط الجيش، البوليس، المطافي، العامل المتخصص ذي الياقة الزرقاء، العمال شبه المؤهلين وغير المؤهلين ينتمون لطبقة الشغيلة. رغم بعض الهياج الوقتي، طبقة المقاتلين والمثقفين تساند اليوم النظام الذي تعيش فيه، يعتبر اليوم متطرف ذلك الذي يريد تفكيك النظام، وهو يمثل بدون شك أقليته، لكن صفوفه تتضخم باطراد. كما هو الحال في كل الحقب تقريباً، فإن الشغيلة حالياً هم الأكثر اضطهاداً واستغلالاً من النظام الرأسمالي. لكن عندما يحتجون تمر أصواتهم الضعيفة دون أن تلاحظ لأن جماعات المقاتلين والمثقفين تتمتع بمستوى حياة مناسبة، الارستقراطية، التي تتكون من رأسماليين حقيقيين ورأسماليين مثقفين لا تثير اليوم أي مشاعر ثورية عند المقاتلين والمثقفين الخلص، إنها ببساطة محسودة بسبب ثروتها الهائلة والتي الكل يطمع في الوصول إليها.

من الآن وحتى عشرين سنة تقريباً، هذا الوضع سوف يتغير

تحت وطأة المشاكل الاقتصادية المتنامية التي تواجه البلدان الرأسمالية. وفي الوقت الذي يحافظ فيه الرأسماليون على استهلاكهم الصاخب فإن مستوى حياة الطبقات غير الرأسمالية ينحدر باطراد. بعض المقاتلين والمثقفين يصيرون أشد فقراً من شغيلة اليوم. في هذه المجموعة من المقاتلين والمثقفين المفقرين يولد الثوار إنهم هم الذين يمثلون طليعة الثورة الاجتماعية.

هذه الثورة هل ستكون سليمة أم عنيفة؟ هل ستشعل نار الإرهاب أو أنها تتميز بانتقال منتظم للسلطان؟

الجواب يتوقف على سلوك الطبقة الحاكمة خلال الحقبتين القادمتين، وعلى الأسلوب الذي تتعامل به مع المعضلات الاقتصادية المباشرة، وعلى قدر مساهمتها في التضحيات إن هذا ما سوف يحدد مصير كل الأطراف المعنية.

صحيح إن العواصف التي تستعد حالياً هي من أقوى العواصف التي تكبدتها الرأسمالية، تقنينات توزيع الطاقة التي تصيب بالشلل والتي تظهر اليوم تمثل تحدي ليس أقل مأساوية من الحرب العالمية الثانية والتي خرجت منها قوى الاستحواذ «بخصلة شعر». لكن إذا الطبقة الحاكمة أعطت المثل بإنجاز التضحيات التي في مقدورها، وإذا قدمت دليل تضامن ومشاركة وجدانية مع البؤساء في بؤسهم فإن انتقال منتظم للسلطان يحدث آنذاك من الحكام إلى أولئك الذين، وفق نظرية الدورة الاجتماعية، يتوجب عليهم كفالة الخلافة

المباشرة، الثورة الاجتماعية تمثل هكذا إدخال هادىء لأفكار جديدة وجذرية، بدون عنف وبدون اضطرابات اجتماعية من حسن الحظ أن الغرب عرف تغييرات سليمة سابقة مثل تلك التي حدثت حين الثورة المجيدة في انجلترا، وآمل أن يحدث هذا حين الثورة القادمة.

الثورة التي نتحدث عنها هل لا يمكن تفاديها؟

الجواب نعم.

من وجهة نظري مسألة أن الرأسمالية ازدهرت وأينعت وقتاً طويلاً ليست مما يثير العجب، لقد كان هذا لازماً، لأنه ما كان لها أن تموت قبل بلوغ الشباب والنضج. تطور من نفس النوع واكب النظام الإقطاعي الذي حين نشأته عام 900 تقريباً اضطهد الأقنان أكثر مما فعل عندما بلغ ذروته في القرن الثامن عشر، في هذه الحقبة أيضاً مستوى الحياة العام تفوق على المستوى السابق لعصر المثقفين، لكن هذا لم يستطع الحيلولة دون انهياره. السؤال الذي يجب أن يطرح ليس معرفة ما إذا كان يمكن تفادي الثورة، وإنما ما إذا كانت ستحدث بهدوء أو عبر اضطرابات وهياج. النظر في ثورات الماضي يظهر الوحشية وسفك الدماء. لكن من ناحية أخرى اكتشف الغرب الآن سبل تغيير سلمي. يمكننا الأمل إذن في أن المشاعر الطيبة تستمر في التغلب على القوة الغاشة.

المجتمع الغربي المقبل ـ عصر المقاتلين الجديد:

نهاية الرأسمالية لا تعني نهاية العالم الغربي وثقافته، ولكن بكل

بساطة اختفاء حلقة من سلسلة الحضارة الغربية الطويلة. عقب ثورة الشغيلة يقوم عصر مقاتلين جديد، والذي المقاتلون الساخطون يتكفلون بإدارته. القادة الجدد المقاتلين هل سيخرجون من صفوف الجيش أو أنهم سيكونون عمالاً مؤهلين؟ لا نستطيع في الوقت الحالي الإجابة على هذا السؤال. التجارب الإنسانية الماضية تشير إلى أطر الجيش، لكن يحدث كثيراً أن الغلاف الخارجي للطبقة الحاكمة يختلف كثيراً عن تلك التي سبقتها، مع أن العقلية الأساسية للقادة في عصر معين تبقى هي نفسها خلال مختلف الدورات الاجتماعية. الإقطاع والرأسمالية يكشفان مثلاً عن اختلافات ظاهرية كبيرة، ولكن في حالة كما في الأخرى، الارستقراطية المهيمنة برهنت على استعدادات استحواذية.

ولكن حتى وإن كنت لست متأكداً من أصل القادة القادمين، فإنه من الممكن توقع بعض الخصائص في المجتمع الغربي المقبل، إذا اعتمدنا على نظرية ساركار في الدورة الاجتماعية. النظام اللامركزي الحالي يخلي مكانه لنظام سياسي وإداري مركزي، ربما دساتير مختلف الديمقراطيات الرأسمالية تظل قائمة، لكن من فروع السلطة الثلاث السلطة التنفيذية تكون الأقوى. من الممكن أن الانتخابات تقام لكن المترشحين سيأتون من طبقة المقاتلين رغم مركزية حكومية شديدة، فإن الحقوق الأساسية لكل الأشخاص، ليس فقط الأغنياء، سوف تحترم. هذا لأنه في المرحلة الأولى من عصر المقاتلين يؤسس الحاكم إدارة متسامحة. هكذا كان الحال في الماضي في كل

الحضارات خلال الستة آلاف سنة الأخيرة، وليس ثمة سبب أن هذا لا يحدث في المستقبل أيضاً. الأشخاص الذين يستفيدون أكثر من هذه التغيرات هم: النساء، والشغيلة. هاتان الفئتان اليوم ضحايا تمييز اقتصادي واجتماعي، لكنهما موعودتان لمستقبل ساطع. المجتمع سوف يمنح النساء والشغيلة الاحترام الذي يستحقانه منذ زمن طويل. الشغيل يستحق احترامنا لأنه يقوم بالأعمال الشاقة التي يراها الآخرون قذرة. نفس الشيء، النساء لهن الحق، ليس فقط في المساواة مع الرجال في مجالات الاقتصاد والسياسة، وإنما أيضاً في ميزات أعلى مما يتمتع به الرجال، وهذا لأنه إن كان الرجال والنساء يتعاونون معاً لإدامة المجتمع، فإن النساء يتحملن مشاقاً أكبر. هكذا بينما عند تساوي الفرص للنساء والرجال قدرات متساوية في المساهمة الاجتماعية، إلا أن العبء على النساء أكبر. لهذا يجب حصولهن على تعويض عادل، وضع المرأة الاجتماعي، خاصة وضع الأم، يجب أن يكون أعلى من الرجل، ليس فقط نظرياً وإنما في الواقع العملي أيضاً لا أعرف إن كان الرجال يتفقون معي، ولكن خلال عصر المقاتلين، الذي بدأ يعلن عن نفسه، سوف تحصل النساء الغربيات على فرصتهن للتعبير أفضل مما يتمتعن به الآن.

بينما كل المجتمع الغربي يتخلص من براثن المادية المفرطة، ويتابع تطوره في عصر المقاتلين الجديد، في أمريكا، في كندا، في استراليا سوف يبزغ عصر ذهبي. هذا لأن هذه الأمم فروع شابة لشجرة عتيقة اسمها الحضارة الغربية.

في كل الحضارات الماضية، العصر الذهبي يزدهر أساساً خلال عصر المقاتلين، كأن يكون هذا في مصر القديمة، في الهند. في الغرب العصر الذهبي يظهر عندما مقاليد الأمور تصير في يد رجال ونساء لهم صفات المقاتلين. أمريكا كندا أستراليا أمم شابة لم تشهد من قبل عصر مقاتلين، ولهذا أعتقد أنها سوف تتقدم أكثر مما فعلت في الماضي.

بالتعارض مع الأزمة الحالية، التي سببها جشع الطبقة الرأسمالية فإن العصر الجديد سوف يجسد الحيوية والمغامرة. ونفس الشيء كما في عصر المقاتلين في أوروبا القرن الخامس عشر، فإن الدولة ستساهم في اكتشاف أراضي جديدة قابلة للسكن. إلا أنه هذه المرة ستتم الاكتشافات في كواكب ونجوم. الناس سوف يبدأون الهجرة نحو «الأراضي الجديدة». في الواقع بذور هجرة مستقبلية ما بين الكواكب، زرعتها الرحلة التاريخية التي قام بها الأمريكان نحو القمر، تماماً مثلما محاولات الكشف عن طرق جديدة، في المحيط الهادي نحو الهند، بدأت في أوروبا قبيل ظهور عصر المقاتلين فيها.

البنية الاقتصادية لعصر المقاتلين الجديد يمكن أن ندعوها نظام اقتصادي تعاوني، لأنه يدخل الإدارة التعاونية في المصانع من قبل العمال المؤهلين. حقوق الملكية المطلقة منذئذ لن يعترف بها للرأسماليين. الشركات بالعكس تكون تحت سيطرة وإدارة جماعية من قبل العمال. هذا النظام يكفل العمالة الكاملة بدون تضخم، وكذلك توزيعاً عادلاً للدخول، لأن الأرباح سوف تتوزع بين

العمال. في مثل هذا المناخ يصير التضخم قليل الاحتمال، لأنه ينتج أحياناً أو غالباً من مطالب الأجور العالية من قبل النقابات في محاولة الحفاظ على مستوى الدخل الحقيقي المهدد بارتفاع الأسعار في مستوى الانتاج. هكذا في النظام الرأسمالي المعاصر يتوجه التضخم لتغذية نفسه، لكن في نظام اقتصادي تعاوني تصير النقابات عديمة الجدوى، بمعنى أن التضخم في نمطه الناتج عن التكاليف احتمال تدخله قليل. حالما يضبط التضخم من السهل الحفاظ على العمالة الكاملة، بتوليف عادل بين الإجراءات النقدية والميزانية.

في العصر الجديد لا يتخلص الغرب فقط من مرضه الثلاثي: تضخم بطالة، تركيز في الثروة والدخول، وإنما أيضاً من أعراض مرضية أخرى تحاصره اليوم، الإجرام سوف يتراجع، البورنوقرافيا تتراجع وكذلك النزعة التجارية. باختصار عصر المقاتلين الجديد يواكبه في الغرب عصر ذهبي جديد.

مراجع

1 ـ س.أ.، م.ر. بيرد: **إشعاع الحضارة الأمريكية** ـ نيويورك ـ 1927.

2 ـ س.س فيت، ج.أ. ريس: **التاريخ الاقتصادي للولايات المتحدة** ـ بوستون ـ 1973.

3 ـ ملتون فريدمان: **الرأسمالية والحرية** ـ شيكاغو ـ 1962

4 ـ ملتون فريدمان، انا شوارتز: **التاريخ النقدي للولايات المتحدة** برينستون ـ 1963

5 ـ ر.ل. هايلبروفر: **انهيار حضارة الأعمال** ـ نيويورك ـ 1976

6 ـ أرك هونت، هـ.ج: **مدخل للنظرة الراديكالية والتقليدية** نيويورك ـ 1975

7 ـ ساموبلسون: **الأوراق العلمية المنتقاة** ـ كامبردج ـ 1966.

8 ـ النهضة الروحية

طبيعة الإنسان واحدة في كل مكان، الاختلافات السطحية المتمثلة في العادات واللغات والأديان وألوان البشرة مبالغ فيها لإخفاء الوحدة الأساسية للسلوك والطبع الإنساني في مختلف الأماكن من كوكبنا.

إذا كانت الثقافة الإنسانية في كل مكان أساساً واحدة، فإن تطور الإنسان يجب أن يكون كذلك. ولهذا نظرية الدورة الاجتماعية، عند ساركار، المتجدرة في مبدأ التطور، يجب أن تكون صالحة لكل الحضارات. فيما سبق حللنا ثلاث حضارات فقط، كل منها يقدم لوحة مختلفة تماماً، كل منها له أصل واحد وتعبير واحد ومصير واحد، ومع ذلك رغم هذه الاختلافات السطحية تكشف أن كل الثلاث تطورت في انسجام مع الدورة الاجتماعية أعتقد شخصياً أن دراسة معمقة سوف تبرهن على أن كل الحضارات الأخرى تتبع نفس نسق التطور. من وجهة نظري نظرية ساركار لها مصداقية كونية.

أبطال الحتمية التاريخية يقضون حياتهم باحثين عن الانتظام التاريخي، لكن أقرانهم يقومون، بكل سرور بالكشف عن ثغرات نظرياتهم. مساهمة ساركار من نوع آخر. سوف يثير بدون شك نقاشات حادة في أوساط المثقفين، لكنه لا يعرض نفسه فريسة سهلة سهولة التصورات الحتمية التي تعتبر اليوم مختلة تماماً.

مبدأ خط الدفاع في فرضية ساركار هو أنه، بالاختلاف عن الدوقم أو العقائد التي فقدت حالياً مصداقيتها، لا يمجد نقطة معينة على حساب كل الأخريات، إنه يتأسس على المجموع الكلي للتجربة الإنسانية، على كلية الطبيعة الإنسانية. النظرية الأصلية عند ساركار سوف تثير ـ على ما أعتقد ـ عاصفة، لكل رسالة ساركار كونية، وسوف تتجاوز إمتحان الأسئلة التي تثيرها. إذا كانت أفكار ساركار كونية فإن موضوعها الأساسي بسيط جداً، إنه ينطلق من أن كل مجتمع متحضر يتكون من قاعدته من أربع مجموعات، والتي كل منها يتكون من أشخاص ذوي بنية عقلية مختلفة من حيث الطباع: بعضهم مقاتلين وآخرين مثقفين، البعض يفيض بغريزة الاستحواذ (أو التملك) وآخرين عمالاً يدويين. لكن نظرية الدورة الاجتماعية ترى ببساطة أن الثلاث مجموعات الأولى تترابط لتمسك بزمام المجتمع، بينما الرابعة، التي تستفيد منها عادة الثلاثة الأخريات، لا تكون إلا نادراً في المقدمة.

ساركار يعتبر قانونه صادقاً، لأنه قابل للتطبيق بدون تحفظ على كل الحضارات، ميتة أو حية، قديمة أو حديثة، شرقية أو غربية. من

المستغرب أن المؤرخين لم يكتشفوا بعد النهج التاريخي المرتبط بنظرية ساركار. كل هذه الحضارات مرت، أكثر من مرة، بهذه الدورة الاجتماعية. الحضارة الهندية شهدت أربعة من هذه الدورات وتتجرجر الآن في المرحلة التراجعية من عصر الجماعين الذي سوف يتكبد قريباً ضربات الثورة. المجتمع الغربي، الذي بدأ مع الأمبراطورية الرومانية، هو الآن في المرحلة النهائية لدورته الاجتماعية الثانية. هنا أيضاً الطبقة الحاكمة من الجماعين، تعد الأرضية لاندلاع ثورة محتمة. المجتمع الروسي، الأكثر شباباً من بين الأربع مجتمعات المدروسة في هذا الكتاب، متأخر حالياً في مرحلته الأولى من دورته الاجتماعية الثانية، وهذا منذ الأربعة قرون الأخيرة، وهو الآن ناضج للدخول في مرحلة مثقفين جديدة. ليس في مقدوري القول ما إذا كان تطور روسيا المحتم سيكون سلمياً أو أنه سيتسم بسفك الدماء والعنف. لكنه سوف يحدث.

مساهمة ساركار تظهر في فترة حيث موجة شديدة من المادية تجتاح كل الأمم. سواء نظرنا في المجتمعات المهيمن عليها الجماعون، كالهند والعالم الغربي، أو المجتمعات المهيمن عليها المقاتلون، مثل الكتلة الشرقية، الشيوعية ومعظم أجزاء الأقاليم المتخلفة وأكبر البلدان المصدرة للنفط. كل هذه المجتمعات متشربة المادية. مسألة أن غريزة الاستحواذ تؤثر على مجتمعات الجماعين ليست مستغربة، لكن مجتمعات المقاتلين أيضاً تعاني من هذا المرض، لأن أغلبها يعبر حالياً الفترة التراجعية من عصر المقاتلين.

هذا الوضع أصيل تماماً، نادراً، في الماضي ما كان العالم كله ينهشه، هذا الزخم المادي مفرط الأنانية. إنه السلوك الأناني للطبقات الحاكمة، في كل العالم، الذي يسبب الفقر العالمي ومشاكل أخرى تطرح حالياً على الإنسانية جمعاء.

في الواقع المشاكل دائماً موجودة، تحديات ظهرت دائماً ليس ثمة جديد في أن عالم اليوم تحاصره معضلات مثل: الانفجار السكاني، اللامساواة في الثروة والدخول في كل أمة وما بين الأمم. وأزمة الطاقة، احتمالات كارثة ذرية. إن ما يفتقده العامل ـ من سوء الحظ ـ ذلك النسيج الأخلاقي الذي يتيح له مواجهة التحدي والرأس عالياً. وفق مصطلحات توينبي، العالم يرد ضعيفاً وبشكل سيء على هذا التحدي، قادة العالم طفيليون، يخدمون مصالحهم الخاصة، غريزتهم الاستحواذية عدت رعاياهم حتى أن علامات كارثة عالمية محتمة بدأت تظهر في كل الجهات.

في أعماق هذه الأمواج العاتية يولد ويتغذى تيار روحي قوي، عندما الحماس الإنساني يختنق لعدم وجود دافع، يظهر القادة الروحيون لقيادة الإنسان نحو طرق جديدة ومصير جديد. تاريخ كل الأمم شاهد صامت على هذه الظاهرة. وأرضية العالم الآن خصبة لكي تولد حركة روحية جديدة، وأديولوجيا جديدة تقوده خلال الأعاصير التي تستعد حالياً ومنذ بعض الوقت للإنفجار. الحركة الجديدة تساعد القوى النزيهة في الانتصار المادية. وقوى الأخلاق في مقاتلة الفساد الأخلاقي: البرنوقرافيا، الإدمان على الكحول،

وقوى الإنسانية في التغلب على تبلد الإحساس. تحرض وتحث على الفضائل المنسية اليوم، وقادتها يقودون العالم المتخبط بأن يعيشوا حياة مثالية ويطبقون المبادىء العظيمة التي يدعون إليها. الأديولوجيا الجديدة لا تهتم فقط بالسلوك الفردي، وإنما أيضاً بكل المشاكل العويصة وطنية أو عالمية. لن تكون معادية للتقدم الاقتصادي ولا معادية للعلم، ولن تقلل من قيمة بيئة قابلة للحياة، إنها ستقذف عرض الحائط بكل العقائد والأفكار الدينية - وغير الدينية - التي تعيق الوحدة الأساسية للنوع الإنساني، سوف تدعو إلى الشعور الكوني، والأخوة الأممية، وحكومة عالمية واحدة باختصار هذه الحركة الروحية وحدها تكون قادرة على إنقاذ العالم من كارثة محتمة.

إذا تفحصنا أعماق السلوك الاستحواذي لقادة العالم فإننا نعثر على سبب كل المشاكل الدولية. ذلك لأن الوعي الإنساني ليست له أبعاد إلا في الناس، فإن الظمأ إلى السعادة لا متناهى ولا محدود. وكوني. بسبب هذا الظمأ إلى اللامتناهي فإن الروح الإنسانية تمل ما عندها وتجري وراء ما ليس عندها، أي الحصول على أشياء مادية بكمية دائماً أكبر، لكن هذا ليس مع ذلك علاج هذا الظمأ، لأن الأشياء المادة هي نفسها متناهية وكل شيء متناهي لا يمكن أن يكون مصدر سعادة لا متناهية. وعي الذات، باعتبارها كيان واعي لا محدود، يمكن وحده أن يكون مصدر سعادة. هذه النقطة الأساسية صحيحة منذ أقدم العصور وستبقى كذلك إلى الأبد.

الفعل الأناني يقذف بالإنسان إلى مملكة المتناهي، لأنه بحصره فعله في نفسه فإن هذا الفعل يولد الانحطاط وأخيراً الفساد. الجري خلف المصالح الخاصة هو في نهاية المطاف سبب كل المعاناة، وسبب انكشاف الأوهام، لأنه يذهب عكس تلك الحقيقة الأساسية التي تتمثل في أنه «بما أن وعينا بدون أبعاد ـ لا محدود ـ فإننا نأمل جميعاً في سعادة وفرح لا محدود». إذا التعبير المنفلث للمصلحة الخاصة انتهى بأن يجعل شخصاً ما تعساً، فإننا نستطيع تخيل الجري وراء المصلحة الشخصية عند الجميع، الذين تنتقل إليهم عدوى سعر القادة للسلطان المال، وما يمكن أن يؤدي إليه من أمة ما وبالتالي على مستوى الأخوة العالمية لأممنا.

إذاً مبدأ «كل لذاته» صار المثل السائد، فإن الجريمة سيطرت، المخدرات والخمر، والأورام الاجتماعية الأخرى، لن تكون بعيدة. ذلك لأن الروح، بعد أن تكون تلهث في العالم المتناهي ـ أي طلبت كل التلهيات ـ بدون جدوى، توجب عليها إغراق حاجتها الفطرية إلى اللانهائي في النبيذ والوسكي والمخدرات(*) مع ذلك هذا طريق لا يقود إلا إلى كارثة شخصية واجتماعية، والتي في نهايتها تبذر بذور نهضة روحية.

(*) طلب التلهيات يقود إلى طلب المزيد والمزيد، وكلما تحقق المزيد مله الإنسان وطلب غيره. طريق زائف نحو اللامتناهي. الإنسان يطلب اللامتناهي، لكنه أخطأ الطريق بأن طلبه عبر تلهيات مادية. هذه متناهية لا تقود بأي حال إلى اللامتناهي، عندئذ ليس أمام من غرق في التلهيات إلا إلغاء وعيه اللامتناهي عن طريق الخمر والمخدرات... المترجم.

قانون الحركة «المد والقبض» أو الفعل والرد، التي أشرنا إليها في الفصل الثاني، يذهب إلى أن قوى الدفع في مجتمع ما تتطور بالتناسب مع قوى الفساد التي سبقتها. العالم يفيض اليوم بالفساد، ولهذا الحركة الروحية يجب أن تظهر قريباً وخلال العشرين سنة القادمة.

في الفصول السابقة تطرقت إلى الاضطرابات الداخلية التي سوف تهز المجتمع الهندي، والغربي، والروسي في مستقبل قريب. العلامات والحساب يشيران إلى بداية القرن الواحد والعشرين. عام 2000 الصراعات الداخلية التي تختمر سواء قبل أو بعد عام 2000 سوف تنتهي بأن تكون على مستوى عالمي. نزاع عالمي يضع العالم كله في حالة هيجان. ومن المحتمل جداً أن المخزون المتكون في العالم بفضل مصانع الأسلحة الأمريكية والروسية والأوروبية، سوف يجد فرصته للتدخل بشكل أو بآخر(*) في خلال هذا الاضطراب، تبرز الحركة الروحية الجديدة إلى السطح.

فيما مضى ولادة كل عصر جديد يسبقه وتساعده ولادة أديولوجيا جديدة، مثلاً حركة النهضة سبقت فجر عصر المقاتلين الجديد في أوروبا، وانتهى بظهور حركة الإصلاح البروتستانتي. في

(*) المعضلة أن المصالح الأنانية والطبقية تدفع إلى المزيد من صناعة الأسلحة، فالمساس بها مساس بمصالح الطبقة الحاكمة. لكن تكدس هذه الأسلحة سوف يقود إلى كارثة. فهذه لن تبق في مخازنها هامدة إلى الأبد. الكارثة لن تنجي منها الأنانيات والطبقات الحاكمة. هذه إذن ترى الهوة تنفتح أمامها دون إمكانية تفاديها. المترجم.

الحقيقة تغيرات أديولوجية معينة تحدث، عندما يحل عصر محل آخر. لكن عندما الدورة الاجتماعية الجديدة تكون على وشك الظهور، كما في الهند وفي الغرب في بداية القرن القادم، فإن التغيرات الأديولوجية تكون عميقة وذات أبعاد كبيرة: إنها تمس آنذاك كل أوجه الحياة الفردية والاجتماعية في اللحظة التي تندلع فيها الثورات الاجتماعية في الهند وفي الغرب، هذه الثورات التي أشرت إليها في الفصول السابقة، تكون الحركة الروحية قد ولدت وقامت. في الواقع من الممكن أنها تقدم إلهاماً، أديولوجيا لهذه الثورات.

من يكون قادة هذه الحركة؟ من هم الذين يقودون العالم بفضل حياتهم النموذجية الفاضلة؟

من المناسب أن نلاحظ أنه في البداية، كل حركة مضبوطة تنتهي بأن تضع تحت سيطرتها المناطق الممكن الوصول إليها من الإقليم الذي ولدت فيه، هكذا كانت تجربة كل الحركات الكبرى الماضية: البودية، المسيحية، الإسلام، النهضة، اليوم الحدود الإقليمية تشمل العالم كله، بالتالي الحركة الجديدة تنتهي بأن تمس كل الأمم لتوحدها تحت رايتها وتؤسس قواعد حكومة عالمية. نفس الشيء، حتى في مرحلة شبابها الأولى، قادة وأنصار هذه الحركة سيأتون من أمم مختلفة، يعلنون أن كل المشاعر البائسة: العنصرية، روح الطائفية، الوطنية(*) تكون عدوة الإنسانية، ويقدمون الدليل

(*) في اعتقادي أن المقصود بالوطنية هنا المفهوم الأوروبي، وليس مفهوم الانتماء لوطن ـ مفهوم اجتماعي ـ المفهوم الأوروبي عدواني، عانت منه أوروبا الويلات، وفي هذا يتعارض مع الحركة الروحية العالمية المضادة للعدوانية.

على أن العالم في حاجة إلى الوحدة والتضامن لكي يتغلب على كل مشاكله.

لكن حتى لو أن القادة الجدد الروحيين ينتهون بأن يكونوا رجالاً ونساء من كل الأصول، فإن الأوائل سيكونوا من الهند ومن العالم الغربي. السبب في هذا أن هذه المجتعات ستشهد صراعات حاسمة، إنها على وشك القطيعة مع الماضي لتدخل في دورة اجتماعية جديدة. ولكي يظهر قادة روحيون فإن الصراع الاجتماعي لازم(*) هؤلاء المقاتلين والمثقفين الساخطين، الذين تحدثت عنهم في الفصول السابقة، يمثلون الجماعة التي يولد فيها قادة العالم الروحيين. لا يمكن اكتساب طباع وقوة أخلاقية دون معاناة المصاعب والحرمان. عندما الروح تواجه امتحانات قاسية وتعيش المعاناة، تكتسب روحانية سامية، لا مبالية برفاهيتها الخاصة، وإنما مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل الآخرين. الاضطراب الاجتماعي، الذي يختمر حالياً، يدق أجراس الحداد على المؤسسات في الهند وفي الغرب، لكن رجالاً أكثر تصميماً يقاتلون

(*) هذا التأكيد موضع نقاش، ذلك لأنه، كما يذهب الكاتب نفسه، الأزمات والمشكلات صارت عالمية تتجاوز الحدود الإقليمية، فإن الوعي بها والعمل ضدها لا ينحصر بالضرورة في المجتمعات الغربية، كما أن الهند نفسها تخضع لنفس التأثيرات السلبية للحضارة الغربية كغيرها. لذلك لا نستبعد أن ردة الفعل أو الحركة الروحية تظهر خارج المجتمعات الغربية، وإن قادتها الأول سيكونون ممن لم تطوعهم النزعة المادية.

بحماس ضد الاستغلال الرسمي، وينتهون بالخروج منتصرين ليصيروا قادة العالم الروحيين.

الحركة الجديدة تكسب قلوب الشباب والناس غير الملتزمين والمحايدين، ولا أمة ديمقراطية تكون بمنجى من هذا المد.

الحركة الجديدة تحمل الازدهار للبلدان المتخلفة. أديولوجيا الرأسمالية والشيوعية الشمولية يتنافسان اليوم من أجل استقطابها ليس ثمة بلد من هذه البلدان له كلمة تقال في السياسة الاقتصادية الدولية التي تتحكم في شروط الجميع الاقتصادية. البلدان المتخلفة تحاول بشكل يائس مواجهة مشاكل الفائض السكاني، والفقر، ونقص الغذاء، والطاقة، بينما بلدان أخرى تسبح في التبذير والترف. النظام الاقتصادي والسياسي حالياً هو نظام لا إنساني، لكنه لن يعيش طويلاً. الحركة الروحية الجديدة تغري سريعاً الأمم المتخلفة وتنتهي بأن تخلصها من فقرها.

الأديولوجيا الجديدة تعمل على حل كل المشاكل بتطبيق مبدأ حب الإنسانية الحقيقي. الكراهية والتطرف لن يكونا قوتها. إنها لا تلغي الملكية الخاصة، لكنها لا تسمح بالتراكم المفرط للثروة لأهداف شخصية.

الإنسان الروحي هو إنسان متضامن ومشارك وجداني لكل الناس بما في ذلك المستغلين والطفيليين الاجتماعيين، أولئك الذين يميلون بإفراط نحو الاستحواذ، يعاملون نفس معاملة الذين يتعاطون الكحول

والمخدرات، لأن غريزتهم الاستحواذية هي أيضاً مرض عقلي وتبعية. لهذا فإن الشخص البخيل الجشع يستحق المساعدة قدر ما يستحقها شخص آخر مدمن(*) شعار الحركة الجديدة سيكون إذن تطبيق معالجة إنسانية لكل الأمراض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

كثير من المختصين سيطلبون دليلاً على هذه التأكيدات، وكثيرون سيضربون عنها صفحاً، معتبرينها أحلاماً أو أفكاراً طوباوية تعمي عن رؤية واقع العالم الحالي. لهؤلاء أقول: اسألوا التجارب الإنسانية الماضية، دققوا في المشهد التاريخي الكبير لكل الأمم وهنا ستجدون ما يؤكد تصوراتي: في كل مرة تغير فيها حضارة دورتها الاجتماعية، أو في كل مرة عصر الجماعين فيها تحول إلى عصر مقاتلين جديد، بعد أن تم استهلاكه في ثورة اجتماعية، فإن هذا تواكب مع تغيرات أديولوجية، والتي طغت بذكرياتها القريبة على كل التغيرات المماثلة التي حدثت في السابق. ذاكرتها تلفظ فجأة كل العقائد المقدسة زمناً طويلاً، والنظام الاقتصادي المتعود عليه زمناً طويلاً يتغير تحت ضربات المبضع، البناء السياسي الذي يخدم مصالح الطبقات الحاكمة يتحول جذرياً، باختصار بنيانه يعاد تجديده.

(*) المساعدة بمنعه من أن يتحكم فيه مرضه الاستحواذي كما يساعد المدمن بالعلاج ـ المترجم.

لننظر في حركة النهضة، لقد ظهرت في فترة حيث النظام الديني العصور الوسطى كان فاسداً. الكنيسة تحتل سدة السلطان منذ أكثر من ألف عام، لقد فسدت بشكل لا يصدق، تدعم نظام الاستغلال الإقطاعي، تساعد الكل إلا المحتاجين حقاً للمساعدة، الاصلاحات إذن كانت مطلوبة، الحاجة إلى فكر وقوة جديدة ظهرت جلياً، السلطان كان شاغراً، والنهضة خرجت من الأرض لتملأ هذا الفراغ. لكن الحركة دخلت في الفعل أو العمل بالضبط قبيل ولادة عصر مقاتلين جديد في الغرب، والنهضة مدت يد العون لتدمير عصر الجماعين الإقطاع.

بنفس الطريقة، الأصلاح البروتستانتي، الذي انتهى بتحطيم كنيسة العصور الوسطى، لم يظهر في المجتمع الأوروبي إلا بضعة سنوات بعد قيام عصر المقاتلين الحديث في الأعوام 1460. في الواقع الإلهام الذي أدى إلى ولادة الإصلاح، جاء من تعاليم وتضحيات حكماء عاشوا في عصر الشغيلة أو خلال الفترة الانتقالية بين عصر الاقطاع الجماعين وعصر المقاتلين الجديد. جان هوس كان مؤسس حركة تطالب بالإصلاح الديني في بداية القرن الخامس عشر. إنه هو الذي قضى نحبه في المحرقة عام 1414، لأنه رفض أفكار مواعظه ضد الفساد الأخلاقي في الكنيسة الكاثوليكية، إن استشهاده هو الذي أدى بالتالي إلى إيقاد شعلة الإصلاح. هكذا تغيرات أديولوجية مهمة، حدثت في الماضي، في كل مرة يدخل فيها المجتمع دورة اجتماعية جديدة.

لماذا حركة روحية؟

بعد كل شيء النهضة كانت أبعد من أن تكون انبعاثاً روحياً، إنها تركز أقل على عالم الروح مما تفعل على الحياة الدنيوية، بعض كتاب النهضة تغنوا بمدح الوثنية الرومانية القديمة ومبادئها وفضائلها.

مع ذلك المهم أن كل حركة جديدة تظهر تحت مظهر ثورة ضد انحطاط النظام القائم. في النصف الثاني من العصر الوسيط، انحطاط الكنيسة، الدعم الذي تقدمه للنظام الإقطاعي جعل منها شريكاً في استغلال الفلاحين والأقنان من قبل الجمَّاعين. رسلها الكنسيون يباركون باسم الله كل مؤسسات الاستغلال الحاجة في تلك الفترة كانت تقوم في إعطاء قيمة للفردية والتعليم المدني، وحشر اللاهوت وهيمنة الكنيسة في حدود ضيقة. نظراً لأن كل الأفعال القمعية والاستغلالية كانت تجري باسم الله، فإن النهضة ـ لهذا السبب ـ بدت كجواب أو ردة فعل على تواطؤ رجال الدين وكبار الإقطاع الباحثين على الحفاظ على سيطرتهم على الجميع.

اليوم الظروف معكوسة تماماً، كل أفعال الاستغلال والقمع ترتكب عموماً باسم أما الحرية الفردية وأما باسم المصلحة العامة في الوقت الحالي، مجتمعاتنا تركز على السطحية، على المادية الاصطناعية على كل ما هو ظاهر ويعجب العين. ما تحتاجه الإنسانية اليوم إذن هو نهضة روحية، بعث القيم التي تمتدح الزهد والمشاعر الكونية، ليست في حاجة إلى دين أو وطنية، إنها في حاجة إلى

الكونية(*) العالم اليوم في حاجة ماسة إلى السمو الروحي، الحركة الجديدة التي ستظهر تستجيب لهذه الحاجة ستكون بالنتيجة روحية سوف تركز على الغيرية، وخدمة الجماعة بإخلاص، بمعنى أنه بالتقدم في مجال الروح والمادة فإن الإنسان يعبر إلى مملكة الروح، وبما أنه من المستحيل التقدم في مملكة الروح، دون أن يكون الإنسان قد تطهر من الفتنة وضيق الأفق، فإن الحركة الجديدة تتطلب عالم موحد ـ أو متحد ـ وتوزيعاً، عادلاً للخيرات بين الأمم.

الحركة الجديدة التي ادعوها نهضة روحية تنتهي أيضاً بأن تدمر قواعد المادية الماركسية المتمثلة في الشيوعية الشمولية إنها في الحقيقة ستكون مسؤولة عن السقوط المزدوج للرأسمالية والشيوعية معاً.

هل هذا حلم؟ من جهتي ربما. لكن تذكروا أن كل المؤسسات الإنسانية اليوم كانت أحلام الأمس، وحلم اليوم، الذي يعكس حاجات العالم الحالي، سيكون حقيقة الغد.

في هذه المرحلة من عرض، تبرز عدة تساؤلات تطلب جواباً: نظراً لأنه لا يمكن قطع النسق الأبدي لقانون الدورة الاجتماعية،

(*) بالطبع في حالة أن الدين والوطنية يتعارضان مع الشعور الأخوي الإنساني ـ الكونية ـ وهذا ما كانت المسيحية والوطنية بالمفهوم الغربي فلا ينطبق على كل دين ولا على كل وطنية، إن اقتلاع الإنسان من هويته الاجتماعية سوف يجعله في غربة أسوأ مما أوقعته فيه الرأسمالية والشمولية ولن يحقق الكونية المطلوبة ـ المترجم.

فهل الإنسانية محكوم عليها أن تتكبد الاحتضار من أعلى ومن أدنى من التسامح المؤقت إلى الاضطهاد الممتد؟ هل نحن، كما في الماضي، مقدر علينا أن تسحقنا إحدى الطبقات الثلاثة مقاتلين، مثقفين، جماعين؟ الجواب قطعاً لا. مبدأ التطور لا يمكن انتهاكه، هذا حق، لكنه لا يفرض علينا بالضرورة نمط التطور الذي عرفناه خلال العصور. وإذا كان ليس بالإمكان تحدي القوانين الطبيعية، فإنه من الممكن العمل في حدودها لإيجاد محيط أفضل ومجتمع أفضل. الماء يجري بالطبيعة من أعلى إلى أسفل. لكن هل يعني هذا أن النهر مصدر الحياة، والذي يجري من أعلى الجبل إلى السهول لا يمكن التحكم فيه واستخدامه لصالحنا؟

قانون الدورة الاجتماعية لا يفعل أكثر من تحديد الحدود التي لا يستطيع المجتمع تجاوزها. لكنه لا يحكم علينا بفترات طويلة من الانهيار والقمع الاجتماعي. لقد صرنا قادرين على الذهاب إلى القمر، نستطيع إذن إقامة نظام اجتماعي والذي فيه كل يجد الفرصة لتفوقه الفيزيقي والعقلي والروحي.



9 ـ كيف نستعد لعواصف سنوات التسعين

في يناير 1990، بينما كنت أكتب هذه الصفحات، كانت الشيوعية في اضطراب تام، بينما الرأسمالية، ظاهرياً، في حالة طيبة، لكن قانون الدورة الاجتماعية لا يمكن خداعه، صدقوني النظامان سوف يختفيان من الآن إلى عشرين سنة قادمة.

بينما تنتهي أعوام الثمانينيات، فإن العالم فاجأه السقوط المفاجىء لعدة أنظمة شيوعية واحداً تلو الآخر. حكومات بولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا سقطت على يد القوى الديمقراطية بسرعة جعلت رجال السياسة الغربية، خاصة في البيت الأبيض، تسبقهم الأحداث. بالنسبة لي لم يدهشني ذلك، لقد توقعت انهيار الشيوعية منذ أكثر من عشر سنوات. هنا تكمن قوة قانون الدورة الاجتماعية.

لكي نرسم لوحة لمعالم كوكبنا عام 1990، فإننا ننظر في رسم يبين في أي مرحلة، من الدورة الاجتماعية، توجد اليوم بعض

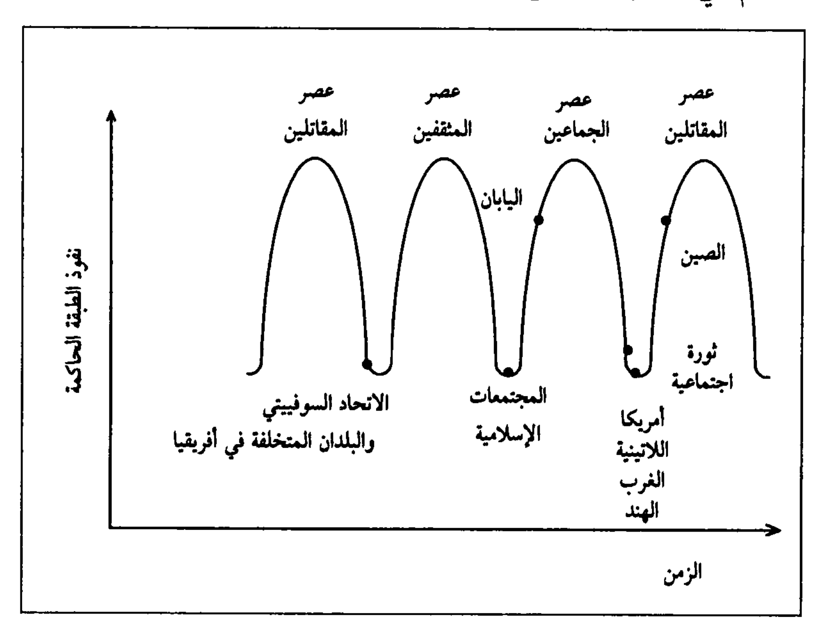
المجتمعات الأكثر أهمية. كل مرحلة تمر بفترتين، فترة صعود وفترة انحدار نفوذ الطبقة المهيمنة يشار إليه في المحور الرأسي والزمن على المحور الأفقي.

خلال المرحلة الصاعدة من أي عصر، معارضة الطبقة المسيطرة تنهك ببطء وتختفي قرب القمة. في هذه النقطة، الحكام وقد استقر بهم المقام في الرفاهية يصيرون متغطرسين وبدون رحمة تجاه الناس. هؤلاء الناس يبدأون في معارضة دكتاتورية الحكام، عندئذ تبدأ مرحلة الانحدار.

لكي نحدد أين يقع مجتمع ما في حقبة معينة، من المناسب أن نفحص ليس فقط نفوذ الطبقة المسيطرة، وإنما أيضاً قوة أو ضعف القوى المعارضة. التحليل الذي قمت به للاتحاد السوفيتي وأتباعه، يعطي الانطباع أنه في نهاية عصر المقاتلين وناضجاً للدخول في عصر المثقفين. بالمقابل الهند والعالم الغربي قريبان من ثورة اجتماعية، ومستعدان للدخول في عصر المقاتلين.

نظرة أكثر تفحصاً لحضارات أخرى تكشف أن المجتمعات الإسلامية تدخل عصر الجماعين أو أنها تقع في بداية مرحلته الصاعدة. بينما اليابان يقع في منتصف المرحلة الصاعدة من عصر الجماعين. الصين شهدت ثورة اجتماعية عام 1949، وتركت عصر الإقطاع لتدخل عصر المقاتلين. أمريكا اللاتينية في نفس الوضع الذي عليه الهند والغرب، بمعنى قريبة من ثورة اجتماعية. بينما

البلدان المتخلفة من أفريقيا توجد في نهاية عصر المقاتلين وقابلة للتقدم في عصر المثقفين.



أخيراً معظم المجتمعات الأخرى، والتي لم تظهر في الرسم، والمتأثرة بالثقافة الغربية وتقع في نهاية عصر الجماعين، فإنها قابلة بشكل من الأشكال لحدوث تقلبات.

هكذا باستثناء الصين واليابان، معظم المجتمات تقع في نهاية العصر الذي تمر به، والذي يترجم في صراع بين الشعب والأقلية المسيطرة على السلطان. وهذا هو سبب الاضطرابات الأساسي التي يتكبدها عالم اليوم. وهذا يعني إنه بينما الطبقة المسيطرة ليست

مهددة بخطر محتم في الصين واليابان، فإنها في الأمم الأخرى سوف يجري استبعادها من قبل أرستقراطية جديدة. بدقة أكبر، الاتحاد السوفيتي، أوروبا الشرقية، البلاد قليلة التطور في أفريقيا، سوف تتحول إلى ديمقراطيات تحت هيمنة المثقفين، بينما المجتمع الغربي سيصير ديمقراطية مقاتلين، وكذلك الصين في نهاية المطاف. المجتمع الإسلامي يعبر إلى مرحلة ديمقراطية الجماعين. اليابان التي تتطور حالياً في هذا النظام، سوف تستمر فيه بعض الوقت.

ديمقراطية الجماعين:

المفاهيم التي قدمتها تعتبر جديدة بالنسبة لمعظم الناس. قلة منهم يدرك أن ثلاث أنماط من الديمقراطية موجودة في العالم الحديث. حتى حوالي عام 1700، شكل الحكومة الأكثر انتشار على الأرض كان الملكية، والمسؤول في الأمة كان الملك أو الأمبراطور، وظيفة الملك كانت ـ في الغالب وراثية، الأعضاء القريبين جداً في عائلته فقط يمكنهم ادعاء الحق في العرش، وقيادة المملكة. الملكية كانت تسود مهماكانت الطبقة المسيطرة في المجتمع. بعض الملوك كان قوياً وحاكماً مطلقاً، البعض الآخر كان اسمياً ضعيفاً، لكنهم كانوا جميعاً ملوك.

مع ذلك عندما بدأ الأوروبيون يهاجرون إلى أمريكا الشمالية بدأت تجربة أشكال جديدة من الحكومة، حكاماً ومجالس برلمانية كانت تمسك بزمام الأمور في معظم المستعمرات. نفس الأمر في

انجلترا البرلمان يتأكد أكثر فأكثر بعد الثورة المجيدة عام 1688. وتمحور السلطان السياسي حول الوزير الأول، وهذا ما أعلن عصر المثقفين الثاني في الغرب، والذي خلاله مكانة ونفوذ الملكية انهار في كل أوروبا.

بعد الحرب العالمية الأولى اختفت الملكية تقريباً من على وجه الأرض. اليوم العربية السعودية هي البلد الوحيد حيث ملك وراثي هو ملك وحاكم معاً وليس مجرد شخص محض أسمي.

شكل الحكومة الأكثر شيوعاً حالياً هو الجمهورية، حيث إلى جانب البرلمان رؤساء الدولة أيضاً منتخبون. سواء كان الأمر يتعلق بالوزير الأول أو الرئيس.

آلاف السنين من التطور الاجتماعي جعلت الملكية بدون قيمة، حكومات المستقبل ستكون جمهورية مهما كانت طبيعة المرحلة التي يعبرها المجتمع. هذا لا يعني بالضرورة أن كل المجتمعات ستكون ديمقراطية، في الواقع كما برهن عليه تاريخ الشيوعية، الدكتاتورية يمكن أن توجد حتى في قلب الجمهورية.

تعرف الديمقراطية عادة على أنها «حكومة الشعب بواسطة الشعب ومن أجل الشعب» لكن هذا تعريف مثالي. والذي لم يتحقق حتى الآن، والذي ربما لن يتحقق أبداً. هذا النمط من الحكومة ليس ممكناً إلا إذا ولد كل الناس متساوين في القدرات والقوة الفيزيقية

والذكاء، في الواقع يولد الناس غير متساوين(*) سيوجد إذن لا مساواة في المجتمع كل ما يمكن الطموح إليه هو الوصول إلى إطار اجتماعي، حيث كل واحد يستفيد من فرص متكافئة، ويتوقف بعد ذلك على كل شخص أن يستخدم فرصته بالشكل الأفضل، لكن الاختلافات تبقى.. طبقة تهيمن دائماً على الثلاث الأخريات حتي في الديمقراطية.

الديمقراطية تتصف أساساً بحكومة منتخبة، حريات سياسية وأساسية مثل حرية التعبير، حرية الصحافة، حرية الانتقال، حرية الدين، المساواة أم القانون، وحق الحصول على عمل يسمح بالحصول على الخيرات الخمس الأساسية: سكن غذاء ملابس تعليم عناية صحية.

نظراً لأنه من بين الأربع طبقات، ثلاثة فقط تستطيع القيادة، فإنه من الممكن وجود ثلاث أنماط من الديمقراطية: ديمقراطية الجماعين ديمقراطية المثقفين، وديمقراطية المقاتلين.

شكل الديمقراطية المألوف لدينا هو ديمقراطية الجماعين، حيث

(*) هل اختلاف القدرات يعني اختلافاً في حقوق المواطنة الأساسية؟ معنى ذلك أن حقوق المواطنة على قدر القدرات.. الفيزيقية.. الذكـ.... أين الديمقراطية إذن؟! الديمقراطية تعني المساواة في الحقوق الأساسية للمواطنة وأولها وأهمها الحق السياسي. إذن اللامساواة في القدرات لا تعني لا مساواة في حقوق المواطنة ـ المترجم.

النقود ضرورية للإجراءات الانتخابية، الأعضاء المنتخبون للمجالس البرلمانية والتنفيذية أما هم أنفسهم أغنياء أو مدعومين من قبل الأغنياء. بدون الدعم المالي من الأغنياء ينذر من يجرؤ على التقدم للانتخابات.

في ديمقراطية الجماعين، آلة الدولة تعمل لتقوية مصالح الأغنياء الذين يصيرون أكثر فأكثر ثراء، على حساب الطبقات الأخرى. هذا الشكل من الحكومة يسود اليوم في الغرب وفي الهند واليابان، وفي معظم أجزاء أمريكا اللاتينية، البلدان الإسلامية، والتي دخل بعضها اليوم عصر الجماعين، سوف تنتهي بأن تعرف نفس شكل الدولة هذا.

ديمقراطية المثقفين:

ليس من الضروري أن تلعب الثروة دوراً مهماً أو حتى أي دور لكي توجد الديمقراطية، يمكن أن يجري الانتخاب بدون دعم المال. كما حدث هذا حديثاً في الدكتاتوريات الماركسية القديمة في أوروبا الشرقية، الانتخابات التي جرت عام 1989 في الاتحاد السوفيتي وبولندا لم يلاحظ فيها أي مساهمة من قبل الأغنياء.

يمكن أن توصف بديمقراطية المثقفين الحكومة حيث أغلبية المنتخبين تأتي من هذه الطبقة، وحيث الحريات الأساسية محترمة، وحيث المال لا يلعب إلا دوراً ضعيفاً في إجراءات الانتخاب.

في ديمقراطية الجماعين الوظائف العليا في هرمية الحكومة تعود

بالطبع إلى رجال الأعمال، والمصرفيين، والتجار، وكبار ملاك الأراضي. بالعكس في ديمقراطية المثقفين، الذي يقبضون على زمام الأمور في الحكومة والإدارة هم الشعراء، الكتاب، القانونيون، . الأطباء، الأساتذة القساوسة، العلماء، الاقتصاديون. . .

بعد عام 1688 النظام البرلماني البريطاني صار ديمقراطية مثقفين الأغنياء كممت أفواههم والبرلمان صار تحت رعاية الوزير الأول. الاتحاد السوفيتي وأتباعه السابقين، وبعض البلدان قليلة التطور في أفريقيا سوف يتحولون قريباً إلى ديمقراطية مثقفين.

ديمقراطية المقاتلين:

حكومة منتخبة حيث النقود لا تلعب دوراً، يمكن أن تكون ديمقراطية مقاتلين. جمهورية حيث الوظائف العليا (رئيس وزير أول أعضاء المجلس. . .) ينتمون إلى طبقة المقاتلين، وحيث حقوق الإنسان والحريات محترمة. وحيث الثروة ليس لها إلا دور ثانوي في إجراءات الانتخاب. يمكن وصف هذه الحكومة بأنها ديمقراطية مقاتلين. كما شرحناه في الفصول السابقة، الروح القتالية توجد عند العسكريين والبوليس وأبطال الرياضة وبعض فئات العمال المؤهلين. في ديمقراطية المقاتلين النفوذ السياسي والمكانة الاجتماعية ترجع أساساً إلى ضباط الجيش والبوليس وأبطال الرياضة المشهورين وبعض العمال المؤهلين. ليس من الضروري أن أغلبية المنتخبين تأتي من طبقة المقاتلين نفسها، يمكن أن تأتي من المثقفين لأنهم

روح صياغة القوانين في كل مرحلة. لكن التنفيذ يرجع بدون اعتراض إلى أفراد يملكون صفات قتالية.

من المهم أن نلاحظ أن الرئيس الأول للولايات المتحدة، جورج واشنطون كان مقاتلاً، الحكومة الأمريكية ازدهرت مع ديمقراطية المقاتلين، لكن النظام لم يعش وقتاً طويلاً، لأنه بعد واشنطون، أخذت الثروات الضخمة تلعب دوراً هاماً في الانتخابات.

بعد ذلك، عندما صار الجنرال أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة عام 1952 لم تلعب النقود، من جديد، إلا دوراً ضعيفاً في الانتخابات.

هذا يبرهن على أن المقاتلين يمكن انتخابهم في البلدان الرأسمالية بدون دعم الأغنياء، مع استمرار احترام حقوق الإنسان. أي نمط من الديمقراطية يفترض دستوراً مكتوباً، صحافة حرة، وشعب مطلع تماماً وواعي بحقوقه وواجباته العقلية أو الطبقة المسيطرة ليس لها إلا أهمية محدودة في هذا الخصوص.

العالم الغربي، والهند، ومعظم أمم أمريكا اللاتينية سوف يدخلون قريباً إلى ديمقراطية المقاتلين. يجب أن نلاحظ أن عصر الجماعين ليس بالضرورة ديمقراطياً، مع أن الحكومات اللامركزية فيه أكثر شيوعاً في غالب الأحيان. نفس ليست كل عصور المقاتلين دكتاتورية، مع أن حكومة مركزية تمثل عادة قاعدة فيها.

عصور المقاتلين المقبلة، في الغرب وفي مجتمعات أخرى، ستكون مركزية بما يكفي بالنسبة لعصر الجماعين الحالي والعصور التالية، لكن هذه المركزية تتخذ شكل تنفيذي قوي (سلطة تنفيذية قوية) هكذا رئيس الولايات المتحدة ستكون له من السلطات أكثر مما هو الحال اليوم، الكونغرس سيفقد بعض سلطاته. بالطبع جماعات الضغط، التي يرعاها الأغنياء، سوف تفقد كل تأثيرها.

عندما تجرد النقود من سلطانها السياسي، فإن عصر الجماعين وبالتالي الرأسمالية تموت من تلقاء نفسها. مكانة وامتيازات الأغنياء الواسعة تختفي.

هل يمكن للبلدان التي تمر حالياً بالمرحلة المتحدرة من عصر الجماعين الدخول في عصر مقاتلين دكتاتوري؟ لا.. العقليات تطورت لدرجة أن الدكتاتورية والملكية صارتا شبه مستحيلتين. قانون الدورة الاجتماعية مرن بما يكفي لكي يتكيف مع شكل كل دولة. لأنه يرتكز على عقلية سائدة وليس على مؤسسات سائدة. في العشرين سنة القادمة ستظل الدولة الصينية الحكومة السلطوية الوحيدة في العالم. لكن من هنا إلى عام 2010، سوف تنتقل الصين من دولة توتاليتارية إلى ديمقراطية مقاتلين، وسوف تنهار الشيوعية فيها كما في غيرها.

ـ احتضار الشيوعية:

في الفصل الثاني تفحصت مفهوم الحركة ـ غلق فتح أو مد جزر ـ عند ساركار، والتي تعني أنه لا شيء يتغير في خط مستقيم.

من حيث المبدأ، الحركة ـ غلق فتح ـ تمر بصعود وهبوط. بالنسبة لكل جهاز عضوي في المرحلة الصاعدة تكون الحركة حلزونية حتى لو كان الاتجاه إلى الصعود. نفس الشيء في الحركة الهابطة، الحركة تكون حلزونية مع أن الاتجاه يكون إلى الانحطاط.

وبما أنه ليس هناك تنوع في خط مستقيم، فإن سقوط الشيوعية الذي بدأ في الكتلة السوڤيتية لا يكون في خط مستقيم. من المحتمل أن الشيوعية ستكون لها آخر الانتفاضات في الاتحاد السوڤيتي قبل أن تلفظ أنفاسها. الاتحاد السوڤيتي خليط واسع من عدة إمارات وجماعات عرقية ولا يحافظ على تماسكه إلا القوة والعنف. رئيس الاتحاد السوڤيتي قورباتشوف مثقف والذي اتبع منذ عام 1987 سياسة شفافة، وانفتاحية وتسامحية. هذه كانت، بشكل كبير، الأصل في سقوط الشيوعية في أوروبا الشرقية، إنه أول قائد سوڤيتي يشجع النقاش المفتوح حول الأمراض الاجتماعية التي يعاني منها الاتحاد السوڤيتي. ونظراً لجهوده الشجاعة، والتي لا سابق لها، أعلنته مجلة التايم رجل الحقبة لسنوات الثمانينيات.

لكن السياسة القوربتشيفية يمكن أن تفتح (علبة البندورة)، الأقليات التي طوعت وقتاً طويلاً تحت نظام دكتاتوري، بدأت التمرد، بعضها في أرمينيا وأذربيجان ـ مثلاً ـ على وشك التمرد. مع ذلك قورباتشوف مثل الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن عام 1861 لا يتمنى تفكك الدولة، من الممكن ألا يكون أمامه، يوماً ما، من خيار إلا قمع صحوة القوميات بالقوة العسكرية.

إمكانية أخرى محتملة: أنصار الخط المتصلب، نخبة الحزب وضباط الجيش الذين تدنى وضعهم ومكانتهم في تعديلات السلطان الجديدة، يمكنهم انتهاز تصاعد الاضطرابات والركود الاقتصادي، لقلب النظام الحالي الذي على رأسه قورباتشوف بواسطة انقلاب. الشيوعية يمكن أن تعود تحت ستار شمولي توتاليتاري.

هناك احتمال كبير أن يتحقق أحد هذان السيناريوان في مستقبل قريب. لكن هذا لن يكون إلا لحظة مؤقتة في انحدار الماركسية، آخذاً في الاعتبار أن الشيوعية ستكون لها «رعشة» أخيرة، فإن هذا سيكون فعلاً يائساً، والذي يؤخر، لكنه لن يوقف أو يمنع ما لا يمكن تفاديه: انهيار الشيوعية يجري، وسوف يلفظ النظام أنفاسه في نهاية القرن. قليلون فقط يأسفون لموته.

ـ هل يمكن إنقاذ الرأسمالية؟:

هل يمكن وهل يجب إنقاذها؟

الرأسمالية والشيوعية عقيدتان تتنافسان في العالم كله من أجل الهيمنة على الشعوب. هذا لم يتوقف منذ الزمن الذي فيه ماركس كتب الرأسمال عام 1867. خلال سنوات الثلاثينيات كادت الرأسمالية أن تنهار مع الأزمة الكبرى، بينما الشيوعية تقدم الأمل للجماهير البائسة. اليوم الشيوعية تنهار بينما أضواء الرأسمالية تبدو بالعكس أكثر سطوعاً. ألا يعني هذا أوج نجاح الغرب؟

لا.. انهيار الأنظمة الماركسية التي تتوجه نحو الديمقراطية

والمشروع الحر يقدم فرصاً قليلة مباشرة للأمم الأخرى. بالطبع إنه انتصار الأفكار والمؤسسات الغربية، لكن مع اقتصاديات الكتلة السوڤيتية التي في قمة التخبط، انهيار الشيوعية، في بلدان هي نفسها في حاجة للمساعدة، لا تملك شيئاً تقدمه للرأسمالية. الرأسمالية نفسها دواليبها مشحونة بالجثث. أمراض الرأسمالية داخلية وليست خارجية.

من المفضل دراسة ثلاث سمات مهمة تميز الاقتصاديات الرأسمالية المعاصرة. **الأولى** هي المنافسة التي تسود عندما يوجد عدد كبير من المنتجين والباعة في أغلب الفروع، الرأسمالية صارت احتكارية عندما بعض الشركات أو الباعة فقط يعملون في معظم الشركات. وهذه هي السمة **الثانية**. أما السمة **الثالثة** فهي أن المجتمع الرأسمالي تحت سيطرة الجماعين، والذين نمط حياتهم يزرع جرثوم المادية في كل المجتمع.

من بين هذه السمات الثلاث، السمة الوحيدة المتطابقة مع المشروع الحر هي المنافسة. من بين مختلف مجتمعات الجماعين يكون اليابان البلد الوحيد الأقرب للمشروع الحر. المجتمعات الأخرى تتصف برأسمالية احتكارية. في صناعة السيارات اليابانية، مثلاً، تعمل عشر شركات على الأقل، في المقابل، صناعة السيارات الأمريكية، وهي الأكثر أهمية، لا تعمل فيها إلا أربع شركات كبيرة قبل عام 1980. ومنذ هذا التاريخ لا تعمل فيها إلا ثلاثة فقط. هكذا عكس الدعاية التي يقوم بها الجماعون، أمريكا منذ وقت طويل لا

تعيش اقتصاد المشروع الحر وإنما اقتصاد المشروع الاحتكاري. بالطبع بعض فروع الاقتصاد الأمريكي لا زالت تنافسية مثل الزراعة، بعض الخدمات، تجارة القطاعي. لكن أغلب الشركات احتكارية.

هل يجب إنقاذ الرأسمالية؟

الجواب نعم ولا.. جزء الرأسمالية المتعلق بالمشروع الحر يمكن ويجب إنقاذه، لكن السمتين الأخرتين، روح الربح والاحتكار لا يمكن ولا يجب إنقاذهما. وذلك لأن هذين العاملين يقودان دائماً إلى استغلال الشغيلة وإلى جعل كل الطبقات الأخرى من غير الجماعين، بائسة. إنقاذ المشروع الحر قضية نبيلة، لأن هذا يزيد الفعالية ويخفف من اللامساواة. لكن المشروع الحر لا يمكن أن يتواجد مع التركيز المفرط للثروة الذي يسود أوروبا اليوم.

بما أن المشروع الحر لا يشمل إلا جزءاً بسيطاً من الاقتصاديات الغربية، فإن الرأسمالية الحديثة، أو العصر الحالي للجماعين، لا يمكن إنقاذه كما هو. هذا ما يقوله قانون الدورة الاجتماعية. من أجل إنقاذ ما تبقى من المشروع الحر يجب استبعاد نفوذ المال من الحياة السياسية.

التاريخ يقول لنا أنه عندما يكتسب القادة عقلية استحواذية مفرطة، ويفقدون الإحساس بمعاناة الفقراء، فإن الوضع الاقتصادي يسوء حتى يقود إلى ثورة لا مفر منها. هذا ما حدث قريباً في الكتلة السوفيتية، ويحدث في كل مرة يسود فيها الطغيان.

هناك هوة هائلة بين كلام وأفعال السياسيين، بينما قلوبهم تدمى من أجل الفقراء جيوبهم تفيض بالأموال. بينما بقية المجتمع تعاني الأمرين من أجل الحد الأدنى فإنهم يكدسون الامتيازات بعضها على بعض أو امتياز بعد امتياز. لماذا؟ هل أصابهم العمى فلا يرون المتسولين؟ فقدوا الضمير، ألا يشعرون بغضب الجماهير من أفعالهم الأنانية؟ لا.. لكنهم ضعاف أمام ثرواتهم. إنهم ببساطة سادة لغة مزدوجة، النفاق والمزايدات.

عندما المزعومون قادة يصيرون فاقدي الإحساس، غير شاعرين بحاجات الناس: الفقراء، المعاقين، المظلومين. كم من الوقت عندئذ يمكن أن يستمر النظام؟!

التركز المتطرف للسلطة السياسية، في الكتلة السوڤيتية، أدى إلى انهيار الشيوعية. التركز المتطرف للثروة في الغرب يسرع بسقوط الرأسمالية.

هل للرأسمالية، مثل الشيوعية، انتفاضة أخيرة؟ لا.. لأنه كما سبق وأن قلت في «الأزمة الكبرى لسنوات التسعينيات»(*) الرأسمالية أنجزت انتفاضتها الأخيرة خلال سنوات الثمانينيات. انحدار الرأسمالية بدأ في الواقع خلال سنوات السبعينيات عقب الارتفاع العنيف لأسعار النفط. مع ذلك طبقاً لقانون حركة (الفتح والغلق)

(*) الطبعة الأولى.

شهدت الرأسمالية تحسناً وآخر نجاح خلال العشر سنوات التي تلت، منذ الآن لا يفعل النظام شيئاً غير الانحدار قبل اختفائه نهائياً في نهاية القرن تقريباً.

بعد أن تحققنا مباشرة من أن تغيير سريع حدث عام 1989م في معظم بلدان الكتلة السوفيتية، والتي تاريخها زاخر بأحداث العنف الرهيب ضد المواطنين، بدون سفك دماء. أعتقد اليوم متفائلاً أن الثورة لا تكون عنيفة في أوروبا، صراع الطبقات سيكون حاضراً لكن لا يواكبه ـ من حسن الحظ ـ تمرد دموي.

ـ الاستعداد لسنوات التسعينيات:

سنوات التسعينيات ستبقى في التاريخ كمرحلة غوغائية وغموض واضطرابات. عام 1980 قلت أنه بعد حقبة من التوسع الاقتصادي والمضاربات فإن العالم يمكن أن تعصف به أزمة حادة ابتداء من عام 1990. كل أزمة تبدأ على هيئة انكماش. وفي وجود مديونية هائلة، تتحول إلى كابوس مالي. هكذا قبل نهاية 1991 ستكون هناك أزمة.

مع ذلك سنوات التسعين ستكون شيئاً آخراً أيضاً وليس مجرد حقبة من نكبة مالية. الاضطرابات تمس أوجه عدة من الحياة. ستكون حقبة اضطرابات اجتماعية اقتصادية وسياسية التمرد، النهب، المجاعة، المظاهرات، والجرائم الصغرى والكبرى والمخدرات وكوارث البيئة ستعصف بكل بلدان العالم باستثناء الصين واليابان. ذلك لأنه باستثناء هذين البلدين، كل المجتمعات الأخرى تقريباً تقع

في نهاية عصورها وتستعد للدخول في عصر جديد(*) التغيير إذن لا يجري دون معارك، معظم الأمم ناضجة لتفجر صراعات وانقلابات جذرية في نظمها.

يجب إذن الاستعداد مادياً، عقلياً وروحياً لمختلف النكبات الاضطرابات لا مفر منها، لأن القادة مفرطي الأنانية سبق وأن أعدوا الأرضية لها في كل مكان من العالم. لقد خلقوا اللامساواة والاستغلال منذ ما بعد الحرب، مما يجعل الكوارث الوشيكة لا يمكن تفاديها، إلا إذا تنحوا عن السلطان. لكن هذا ما لا يفعلونه أبداً برضاهم. إنهم إذن من الضروري اتخاذ الإجراءات الوقائية منذ الآن من أجل مواجهة السنوات القادمة.

ـ الاستعداد المالي:

عمل مالي وقائي يشرع فيه اليوم يمكنه اقتصاد خسائر كثيرة في مستقبل قريب. هذا جزء مما نسميه استعداد مادي.

لقد سبق وأن قدمت نصائح مالية في أعمال سابقة «الأزمة الكبرى لسنوات التسعينيات» و«تجاوز الأزمة الكبرى لسنوات التسعينيات» معظم هذه الآراء لا زال صالحاً.

احتفظ بوضعية سيولة قدر الإمكان، تفادي الأسهم والالتزامات

(*) انظر اللوحة.

والأدوات المالية الأخرى، وزع أموالك على عدة مصارف، لا تخاطر حتى ينقشع الغبار.

العالم مقبل على حالة غوغائية، والحذر أكثر شيء مطلوب في ماليتك، اشتري الذهب إن كنت تملك الوسيلة فهو يباع بأسعار معقولة. 400 دولار الأوقية. تمليك استثمار حتى 5% من أموالك في هذا المعدن الثمين. إذا انهار سعر الذهب فإنها اللحظة المناسبة لشراء المزيد.

كن حريصاً على ثروتك التي ستكون أكثر قيمة من السابق، لا تقع مريضاً ولا تخاطر بأن تطرد من العمل بسبب المرض، أشياء كثيرة تعتمد على قوتك وصحتك.

إذا كنت تدخن أو تتعاطى الخمر أو المخدات فإنها اللحظة المناسبة للإقلاع عن كل هذا. ضع أموالك المدخرة في المصرف. يمكنك تفادي كل هذه السموم، وافرض على نفسك برنامج تمرينات منتظم الصحة أهم شيء اليوم وأكثر من أي وقت مضى[*].

ـ الاستعداد العقلي:

الاستعداد المادي لا يكفي لمواجهة الضغوط يجب أن تكون

(*) أغلب هذه النصائح موجهة للجماعين، لكي يمكنهم العبور بثروتهم إلى العصر الآخر بعد انهيار الرأسمالية، لكن عندما ينهار عصر الرأسمالية تصير هذه الثروة لا قيمة لها. إذ ليس لها هذه القوة إلا في عصرها. إن الأمر يشبه ذلك الذي يحتفظ بدرعه المعدني ـ حتى لو كان من ذهب ـ ليخرجه في عصر البارو. المترجم.

قوياً وقادراً على المقاومة عقلياً، روحك يمكن أن تكون لك صديقاً أو عدواً يتوقف ذلك على طريقة استخدامك لها وضبطها. . هل سمعت من تحدث عن قوة الفكر الموضوعي دون أن تجرب ذلك حقاً؟ صدقني إنه يعمل جيداً خاصة عندما نكون في حاجة إليه.

عندما تكون الأمور طيبة فإن الروح تكون عادة فرحة، تتمنى أن تنشر نجاحها أمام الآخرين. لكن الامتحان الصعب عندما لا تسير الأمور على ما يرام، لأن هذه الروح المرحة تصير عدواً.

أن تتكبد العدوانية ذلك شيء وأن تقهرك فذلك شيء آخر. الروح القوية تقاتل الأفكار السلبية التي تدفع إلى الانهيار. هذه الأفكار يمكن أن تتضخم بسبب صعوبات الحياة اليومية الاعتيادية. الحياة مثل الزهرة ذات الأشواك. لا شيء في هذا العالم يستمر إلى الأبد. مفهوم الحركة ـ المد والجزر ـ يشير إلى أن الخير يتبعه الشر، والشر يليه خير، لكن خاصية الطبيعة الإنسانية أن تكون مرحة فخورة وعابثة في المراحل السعيدة، معتقدة أن هذا يستمر أبدياً.

في الفترات الصعبة يتجه الناس إلى الاعتقاد أن الأيام المشمسة لا تعود أبداً. وإذا كان لازماً الابتعاد عن العجرفة والتفاهة فإنه أيضاً يجب تفادي السقوط في الأفكار السلبية التي تدفع إلى اليأس.

اضطرابات، توشك على الحدوث في مستقبل قريب، وسوف تستمر عدة سنوات، ومهما كان وضعك يائساً فلا يجب أن تحبط. برتراند راسل اعتاد أن يقول أنه لا يحب أبداً الاستسلام للأفكار

السلبية حتى عندما يكون الإنسان مضروباً بصاعقة. ما دام الإنسان حياً ليروي تجربته يجب أن يكون متفائلاً. لا يجب أن تخاف الفشل باختصار يجب دائماً مواجهة الأفكار السلبية التي تحبط طاقتنا بأفكار إيجابية تقوي عزيمتنا وتصميمنا. في كل مرة تواجهك المشاكل وتشعر بقهرها لك قل: «لقد تكبدت من الخسارة ما يكفي لماذا أزيد ذلك حتى أقع منهاراً؟» أن تعذب نفسك لن يحل أبداً مشكلة. فقط الفعل المدعوم بالفكر الإيجابي يمكنه ذلك.

هذا يقودني إلى سمة أخرى من الاستعداد العقلي: الفعل. إذا أردت تحقيق شيء ما عظيماً يجب عليك بدون انقطاع الانخراط في الفعل، والذي لا يمنحك فقط الرضى بمواجهة مشاكلك، ولكنه أيضاً يبعد عنك الأفكار السلبية. أي فعل ليس دائماً بدون جدوى يمكنه أن يعطي ثماره مباشرة كما يمكنه أن يحقق ذلك لا مباشرة.

يمكنك إذن أن تنخرط في العقل دون الانشغال بالنتائج. أحياناً العقل حتى مستمراً ومنتظماً لا ينتج شيئاً، لا يجب مع ذلك التخلي. جدك سوف يكون مثمراً يوماً ما. وعندما يحدث هذا فإنه سوف يتجاوز طموحاتك.

أقول هذا عن تجربة شخصية، في عام 1983 عندما كنت أكتب الأزمة الكبرى لسنوات التسعينيات، أرسلت بالمخطوط إلى خمسين ناشر. وحيث أنهم أعادوه إلي، بادرت ونشرت الكتاب على حسابي. واستمريت في العمل رغم أن كل الظروف كانت ضدي.

النتيجة أن كتابي حظي بشهرة واسعة، وظل على قائمة نيويورك تايم مدة ثلاث وخمسين أسبوعاً. هذا مثل جيد لما يقود إليه العزم والتصميم.

حتى عندما يكون الفشل مؤكداً لا تحبط لأنك لا تعرف متى سوف تأتي المكافأة. هذه ربما لا تتوقف عليك فقط، لكن الفعل يخصك وحدك. افعل ما في مقدورك فعله، المكافأة سوف تأتي آلياً يوماً ما. لا تخشى أبداً الفشل.

باختصار الاستعداد العقلي لمواجهة الاضطرابات المقبلة يتطلب فكراً أيجابياً وفعلاً متواصلاً والذي يحميك من الإحباط.

ـ الاستعداد الروحي:

الفكر الإيجابي والفعل المتواصل يتطلبان قدر من الطاقة الروحية أو العقلية. ومجابهة حركة سلبية من الروح. خاصة عندما تكون في حالة غم. يمكن أن نقارن ذلك بالسباحة ضد التيار في نهر. صحيح أنه طريق مجرب نحو النجاح والإنجاز، لكنه يمكن أن يكون أيضاً الطريق الأصعب. الفعل بدون حدود يتطلب طاقة عقلية لا محدودة والتي يمكن أن تصدر من روحانية معاشة.

السعادة المطلقة تأتي فقط من البحث عن جوهر مطلق والذي نسميه عادة الله. الروحية المعاشة تعني إنجاز الأفعال التي ترضي الله. . خالقنا.

المثقفون المحدثون أسقطوا الله من أفكارهم ومن مصطلحاتهم. وعندما نلم بالطريقة التي بها القساوسة ورجال الدين استغلوا الإنسانية باسم الله على مدى التاريخ، فإن المثقفين قدروا بكل بساطة أن الله غير موجود وأنه لا يستحق عناء البحث عنه كيف يكون هذا صحيحاً؟ كيف هذا العالم الواسع، حيث تيارات لا حصر لها تتقاطع في كل الاتجاهات، يمكنه الآداء بطريقة منظمة دون أن يكون موجهاً من قبل عقل سامي، الكون مستقراً لأن كائن سامي يقوده. وإلا فلن يكون إلا الغوغاء والغموض، وتصير الحياة مستحيلة الظهور.

مدينة ما محتاجة إلى إدارة تضبط النظام. الدولة في حاجة إلى نظام، بلد في حاجة إلى قيادة. الكون أليس في حاجة إلى من يجعل كل شيء يسير في نظام؟ هذا بسيط. الله هو سيد هذا الكون الواسع. من الواضح أنه موجود وإلا فإننا لا نوجد.

وجود الله ليس موضع اعتراض منطقياً. السؤال هو معرفة ما إذا كان يستحق عناء البحث عنه وتأمل وجوده؟ في الماضي وحتى اليوم بسبب الدين سفكت دماء أبرياء. أحياناً كثيرة أشعل رجال الدين حروباً دينية مدمرة حيث هلك ملايين الناس. إنني مدرك جداً أمام وجوه رجال الدين الذين أرادوا نشر دين الله بالنار والسيف. وقد سردت عدة أمثلة عن هذا الطغيان في الفصول السابقة. مع ذلك إلغاء الله من حياتنا يعني ابتعادنا عن الحقيقة. وليس هذا هو الطريق الصحيح ضد القساوسة السفاحين.

الدين يقسم الناس، الروحانية توحدهم. الدين يضرب الكفرة والأبرياء الروحية تقدم الخلاص، الروحانية المعاشة تعني أنه يتوجب علينا حب الله، أن نعارض الظلم الاجتماعي لكي نبني حياة أفضل لكل أبناء الله.

ماذا تقدم لنا الروحانية؟

لقد أشرت سابقاً إلى مميزات الفكر الإيجابي التي يمتدحها معظم علماء النفس والأطباء. لماذا يعطونها مثل هذه القيمة؟ ذلك لأن الروح الإنسانية تتجه إلى اكتساب صفات ما يحظى بإعجابها يومياً. إذا فكر إنسان، قبل كل شيء أنه ضعيف، غير قادر على حل مشاكله ترعبه فكرة فشل كل ما يشرع فيه. فإنه سيبقى ضعيفاً طيلة حياته. إذا ناضل ضد أفكاره السلبية، بإقناع نفسه بأنه قوي، في صحة طيبة قادر على تحقيق أشياء عظيمة، وإذا عاهد نفسه ألا يرتاح قبل إنجاز شيء ما. فإنه يصير باطراد أكبر قوة، وسوف ينجح، الفكر يمكن أن يخلق عظمة الإنسان أو جعل وجوده بدون معنى.

تأمل المطلق لا يجلب لنا فقط فرحاً بدون حدود، ولكن أيضاً طاقة بدون نهاية من أجل عمل الخير للنفس وللآخرين.

وبما أن النفس تتجه إلى أن تصير ما تتأمله بعمق، فإن الأفق العقلي للموجود الروحي يتجه إلى الاتساع. الروحية هكذا يمكن أن تحررنا من الخوف، من الشهوة، من الغضب، من الغرور من التفاهة ومن كل شعور آخر بالدونية أو الفوقية بالنسبة للآخرين.

حالما نتحرر من هذا الإثقال: الناسك لا يحبط أبداً مهما كان الامتحان قاسياً.

الروحية تجلب راحة داخلية عميقة. حالما الحاجات الأساسية أشبعت فإن السعادة تتوقف تماماً على الفكر. على التصور الذي نتبناه. الروح يمكن أن تكون صديقاً أو عدواً.

معظم الناس يتألمون لأنهم يدعون أنفسهم تنهشهم أنفسهم: إنهم غير راضين بما يملكون. الروحية تروي الظمأ اللامحدود عند الأنسان.

تقنيات الروحية تمثل كنز الإنسانية الذي لا يقدر بثمن، يمكن أن نغترف من طاقتنا وقوتنا الداخلية، لكي نعبر سنوات التسعينيات. بعد ذلك سوف نعيش في نظام اجتماعي اقتصادي مثالي حيث المشاركة الوجدانية، الهدوء، الازدهار يكون بدون نظير، نظام حر خال من كل الأمراض، ومن فواجع اليوم.

ملحق
ساركار، توينبي وماركس

شارعاً في فك رموز غوامض التاريخ، موجزاً نظام لتيارات تبدوا غير منظمة في ماضي الإنسانية. محاولاً الكشف عن المستقبل، فإن ساركار بهذا يلحق برفقة توينبي، ماركس شبينجلر ويلز من بين آخرين عدد كبير من العلماء حاولوا الكشف عن نسق ما في فوضى التاريخ، عن انسجام غير مرئي والذي يتطابق مع بعض القوانين الطبيعية، لكن أقرانهم يحذرون من كل ما يمنح قوة لتوجهات الماضي، انتقدوهم وسخروا منهم مساهمة ساركار هي شيء آخر. على الأقل لا تنطبق عليها التضييقات التي خضعت لها عقائد الحتمية التاريخية.

ماركس نفسه كان يحتقر الدين. في أيامنا هذه أنصاره يعبدونه بتقوى ـ والتي من السخرية ـ تفيض حماساً وتعصباً دينياً.

مقارنة بين فكر ساركار وماركس:

فلسفة ماركس خضعت، من قبل النقاد، لنقاش جاد، ودقيق،

لكن روعتها تكمن في أنها حالما تجرد من حلقاتها الضعيفة، فإن نظريتها الأساسية لا يمكن إنكارها: إن الرأسمالية تعاني تناقضات حادة، وأن نزوع البورجوازية للبحث عن الربح وتراكم الثروة يتحملان مسؤولية دورة الأزمات، والتي غالباً، خلال القرنين الأخيرين، أدت إلى هزات عنيفة في الحضارة الغربية. حتى اليوم تهديد الانكماش هو كالسيف المسلط على الاقتصاديات الرأسمالية المتصدعة.

عندما نقارن مذهب ماركس بمذهب ساركار فإننا مباشرة نفاجأ باختلافهما كما نفاجأ بتشابههما.

ماركس وساركار يستخدمان منهج التحليل التاريخي، كلاهما يعتقد في قسوة النموذج التاريخي لتطور المجتمعات. مع أنهما لا يعتقدان في تكرار الأحداث نفسها. وكلاهما يتفقان في أن الرأسمالية سوف تنتهي بثورة. إلا أن ساركار يرى أن هذه الثورة يمكن أن تكون دامية كما يمكن أن تكون سليمة، بينما يراها ماركس دامية وعنيفة. ماركس يسميها ثورة البروليتاريا، بينما هي عند ساركار ثورة شغيلة: البروليتاريا والشغيلة يشتركان في أمور عدة، كلاهما ضحية الاستغلال الرأسمالي، ونزعته إلى التراكم المتواصل للثروة. إلا أن الشغيلة عند ساركار موضع استغلال مهما كان وجه الحضارة. يمكننا القول، فيما يتعلق بوصف الرأسمالية، أن ساركار يستلهم ماركس في عدة نقاط، ففي إحدى إشاراته لماركس ينظر إليه نظرة غير معتادة:

«إذا اعتمدنا على ملاحظة وردت عند ماركس فيما يتعلق بالدين فإن طبقة من المستغلين تصير هستيرية وكثير زوبعة. يجب أن نتذكر أن ماركس لم يكن أبداً عدو الروحانية والأخلاق وحسن السلوك، كل ما قاله كان يتجه ضد الدين آنذاك، لأنه أدرك وشعر بأن الدين آنذاك شل روح الإنسان، وجعله عاجزاً بدون قوة عقلية بدفعه للخضوع للدائرة المفرغة».

ساركار أيضاً مع أنه يميز بين الروحانية والعقيدة العمياء، يرى أن رجال الدين استغلوا الإنسانية في كل الحضارات الماضية ويستمرون في ذلك حتى أيامنا هذه.

هنا يتوقف التشابه بين فكر ماركس وفكر ساركار. نظرية ساركار أكثر عمومية وأكثر واقعية من الماركسية. الماركسية ليست إلا حالة خاصة من نظرية ساركار، حلقة في سلسلة الدورة الاجتماعية عند ساركار.

نظرية ماركس مادية تماماً وتحيل الإنسان إلى حالة المادة الجامدة بينما نظرية ساركار روحانية، وتقوم على الروح الإنساني وسماتها العقلية. ساركار مع ذلك لا يجهل الجانب المادي. هذا ينعكس في روح الشغيل وروح الجمّاع، وبشكل ما في كل موجود إنساني. لكن هنا أيضاً يمكننا تبين العنصر الإنساني في فلسفة ساركار، حتى في عصر الجماعين، القوى الاقتصادية تحدد المصير الاجتماعي بواسطة الميول الاستحواذية في النفس الإنسانية. وفي

هذا يتناقض مع ماركس، الذي وفقاً له، القوى المادية تحدد في كل وقت وعي الإنسان والمؤسسات الإنسانية.

اختلاف آخر بين المذهبين يكمن في نظرتهما للطبقة العاملة. بالنسبة لساركار أي مجتمع لا يستطيع الحياة بدون عرق وعمل الشغيلة، لكن هؤلاء لا يصلون إلا نادراً، إن لم يكن أبداً، إلى السلطان. وجهة النظر هذه تتناقض مع نبوءة ماركس والتي وفقاً لها في الشيوعية البروليتاريا سوف تحكم. حتى في روسيا وفي الصين، حيث تم تبني الماركسية قاعدة للحياة، وإن الذين يقبضون على مقاليد السلطة العليا ليسوا العمال، وإنما نخبة من ذوي المواقف القتالية والانضباط العسكري والاجتماعي. ربما ليس من العدل أن يلام ماركس على هذا، لأننا اليوم نملك النظر إلى الماضي، وهذا لم يكن في استطاعة ماركس. بالعكس ثورة الشغيلة عند ساركار ليست تحت قيادة البروليتاريا، وإنما تقاد من قبل ائتلاف من المثقفين وضباط عسكريين وعمال مؤهلين. بمعنى أنها نتاج جهود مشتركة بين المقاتلين والمثقفين الساخطين الذين أحالتهم دناءة الجماعين ـ الرأسمالية ـ إلى مستوى حياة الشغيلة، الاهتمام الخاص الذي يبديه ساركار بالعنصر الإنساني هو الذي يمنح نظريته الطابع الكوني. هكذا بينما في نظر ماركس التطور الاجتماعي تقوده أساساً الشروط الاقتصادية، فإن هذه الحركية بالنسبة لساركار تثيرها قوى متنوعة مع الزمن والمكان، إنها أحياناً الإقدام والبسالة الفيزيقية، وأحياناً العقل مطبقاً على العقائد، وأحياناً أخرى العقل مطبقاً على تركيم الثروة

هذه هي القوى التي تحدد حركة المجتمع. من الواضح عندما نقارن النظرة أو الرؤية التاريخية عند ساركار بتلك عند ماركس فإن رؤية ماركس تكون قصيرة النظر.

حسب مصطلحات ساركار، تحليل ماركس يعني أن الجمَّاعين وبهذا العوامل الاقتصادية حكمت دائماً المجتمع. بينما يؤكد ساركار أن حكمهم أو دورهم في الحكم لا يأتي إلا عندما ينتهي دور المقاتلين والمثقفين. ماركس يأخذ بعامل واحد لتفسير الماضي والمستقبل كله، بينما ساركار يفعل هذا معتمداً على أربع عناصر أساسية متجذرة في الروح الإنسانية. نظرية ساركار تتأسس إذن على تطور الإنسانية، الماركسية تتأسس على الوجود المادي.

اختلاف أساسي آخر بين التصورين: بالنسبة لماركس الشيوعية هي غاية المجتمع، بعدها ليس ثمة تطور اجتماعي. لكن من وجهة نظر ساركار، كل مرحلة اجتماعية هي ظاهرة عابرة. وساركار يلح كثيراً على هذه النقطة. من وجهة نظره التطور الاجتماعي يعني حركة نسبية للمجتمع، حركة نسبية بين عدة أخريات، والتي جميعها مترابطة. بالتالي إذا توقف التطور الاجتماعي فإن كل الحركات النسبية المتداخلة يجب إذن أن تنتهي، والذي يعني موت العالم. بمعنى آخر تطور المجتمعات سوف يتواصل قدر تواصل وجود العالم، ليس ثمة مركب نهائي، وليس له أن يوجد.

نظرية ساركار تستبعد الشيوعية من مجال الممكن، بالنسبة له

كما توجد أربعة أنماط أساسية من الموقف العقلي عند الإنسان، هناك أربع مراحل نمطية والتي يجب على كل حضارة المرور بها. هكذا سوف يوجد دائماً اتجاهاً عقلياً سائداً في المجتمع. لا يعني هذا أن طبقة واحدة يجب أن تستغل الأخريات دائماً، وإنما ببساطة ميولها، تفضيلاتها تشكل سلوك الثلاثة الأخريات.

بالنتيجة مجتمع بدون طبقات لا يمكن أن يوجد، أنه يوتوبيا. وليس من المحبذ وجوده لأن تحققه يؤدي إلى ذوبان المجتمع(*)

مقارنة بين توينبي وساركار:

توينبي وساركار يبدوان متفقين في عدة نقاط، لكن بينهما توجد أيضاً اختلافات حقيقية وعميقة بالنسبة لهما تستمد حركة التاريخ أصولها من الروح الإنساني، القوى المادية مأخذوة في الاعتبار لكن فقط باعتبارها الخصم الذي على الإقدام الإنساني قهره إذا أراد المجتمع التحول إلى حضارة.

إلا أن ساركار يذهب أبعد في هذا الاتجاه بتحديده نمط العقلية

(*) يبدو هنا أن ثمة سوء فهم وخلط بين الطبقة والاختلاف، الاختلاف الذي زواله يؤدي إلى ذوبان المجتمع لا يعني ضرورة الوجود الطبقي. بين الطبقة والاختلاف فرق كبير. وإذا كان الاختلاف موجود وسوف يوجد وهو حاجة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها، لأن ذلك يعني موت المجتمع وإذا كان المجتمع لا يمكنه الحياة دون تنوع مكوناته وأدوارها، إلا أنه يمكنه الحياة بدون طبقات الاختلاف في أساس التكوين الاجتماعي وليس الوجود الطبقي. المترجم.

القادرة على التغلب على العقبات التي تحتلها البيئة المحيطة، وفقاً لساركار: الروح القتالية وحدها يمكنها الانتصار بالتعاون النشط مع الشغيلة على القوى المعادية في الطبيعة. ربما الاختلاف ليس إلا اختلاف في معاني الكلمات. لكن ساركار مع ذلك في هذه النقطة أكثر وضوحاً.

ثمة اختلاف آخر له أبعاد أكثر عمقاً، يقوم في أن رؤية ساركار لا تهمل التأثير الإيجابي للأرض وللظروف المناخية الملائمة، والتي يمكن أن تقدم مساهمة طيبة في تطور الحضارات. بسبب عدم اهتمامه التام بهذه العوامل تعرض توينبي لنقد قاسٍ من نقاده. لكن في مذهب ساركار نمو الحضارات يتوقف على قسوة المحيط وحيوية رد الفعل الذي تثيره، كما يتوقف على الدفع الذي تقوم به عقلية المقاتلين. حتى في حالة غياب التحدي، فإن الحضارة يمكن أن تولد، إذا كان المجتمع البدائي تحت قيادة روح قتالية. لأن هذا النمط من الروح لا يتوقف عن طلب السيطرة الكلية على المادة. هكذا دون الأخذ في الاعتبار الظروف الملائمة أو المعادية في البيئة، فإن حيوية الروح القتالية تصنع تحدياتها وتشرع في مواجهتها بكرامة وبدون خوف. هذا يفسر ولادة حضارات، والتي في خطواتها الأولى لم تقابل إلا نسبياً القليل من الصعوبات.

الاختلاف هنا أكثر حقيقية مما يبدو، بينما توينبي يركز على قسوة البيئة المادية وعلى الروح الإنسانية معاً، فإن ساركار لا يلح إلا

على الروح الإنساني. وفي نهاية المطاف، التحدي له مكانة في تطور الإنسان، لكنه يمكن أن يصدر من البيئة المحيطة كما يمكن أن تخلقه الروح القتالية نفسها.

في تصور توينبي يوجد القليل من التشابه بين الحضارات ـ والتي هي مجتمعات حركية ـ وبين الجماعات البدائية، والتي ينظر إليها على أنها كيانات تتقدم بنسق تطور بطيء جداً يجعلنا نعتبرها من كل الوجوه مجتمعات ساكنة. التمييز الأساسي يكمن إذن في سرعة تطور مجتمع ما.

ساركار يمكن أن يكون محرجاً أمام تعريف توينبي للمجتمع البدائي، لأنه من وجهة نظره لا شيء ساكن، في هذا العالم «المملوء بالنسبي» إن ساركار يعرف إذن المجتمع البدائي وفقاً لخصائص عقلية، مثلاً الجماعة الأولى تكون ذات عقلية شغيلة. مرة أخرى هذا الاختلاف ربما يرجع هو أيضاً إلى اختلاف معاني الكلمات. مع ذلك ميل توينبي إلى التمييز التام بين المجتمعات البدائية والمتحضرة، يجد تعبيره التام في التمييز الاعتباطي، بعض الشيء، الذي يقيمه بين الحضارات، بين مجتمعات القرابة والمجتمعات الملحقة، صحيح أن الدول الكونية والكنائس الكونية التي يوردها توينبي تذكرنا ببعض عصور المقاتلين والمثقفين عند ساركار، لكن من وجهة نظر الأخير، هذه تنتمي لنفس المجتمع كلحظتين في نفس الدورة الاجتماعية، بينما بالنسبة لتوينبي تمثل

الكنيسة الكونية خط الفصل بين الحضارة القديمة والجديدة.

ساركار يعتبر الحضارات كيانات انبثقت عن مجتمعات بدائية، كما أن الناس المتحضرين ولدوا من كائنات إنسانية بدائية. في نظره القرابة الأنتروبولوجية بين البدائي والمتحضر تمتد أيضاً إلى الحضارات. هذا التصور يتناقض تماماً مع تصور توينبي. أضف إلى هذا أن توينبي لا يفسر بشكل صحيح لماذا ظهرت الكنيسة الكونية في نهاية حضارة قرابية. لماذا الدين ولم لا فلسفة دنيوية؟! ولم لا سلطان آخر عسكري؟

بالنسبة لساركار، الانتقال من عصر المقاتلين إلى عصر المثقفين، أو من الدولة الكونية إلى الكنيسة الكونية كما هو عند توينبي، يشكل فقط جزءاً من الدورة الاجتماعية التطورية. شيء ما يندمج في مجرى التطور الإنساني، ذلك لأن العقلية الأكثر تطوراً عند المثقفين قد ظهرت على كوكبنا متأخرة أكثر عن بسالة المقاتلين، لكن منذ ظهورها لم تواجهها صعوبات كبيرة في التغلب على العقلية المقاتلة.

من المحرج موافقة توينبي في زعمه أن الحضارات ظهرت فجأة من المجتمعات البدائية، خاصة عندما يذهب عدد كبير من المؤرخين إلى أن الزراعة هي التي أنجبت وغذت كل الحضارات. في هذه الحالة الشرط الأوَّلي للحركة الدينامية في كل مجتمع، هو توفر فائض اقتصادي، والذي يتحرر بعض الأشخاص بفضله من الشغل

للبقاء على قيد الحياة. عندئذ جزء من طاقات المجتمع يمكن أن يكرس لاهتمامات إبداعية مثل الهندسة العمرانية، الموسيقى، الفن، الأدب، إذا كان وجود فائض اقتصادي هو الشرط الأولي للتقدم الاجتماعي، فإن هذا يعني أن الحضارات قد اختمرت انطلاقاً من الزراعة البدائية خلال العصر الحجري الأخير، والذي خصائصه الأساسية الزراعة واستئناس الحيوانات.

ساركار يعتقد في وحدة واستمرارية الحضارات، بينما يجزأها توينبي أولاً في حضارات قرابية وحضارات التحاقية، ثم يميزها من حيث وجود دول كونية وكنائس كونية(*) هاتان المؤسستان يوجدان ضمنياً في عصر المقاتلين وعصر المثقفين عند ساركار، مثلاً فترة الدولة الكونية التي ظهرت فيها الامبراطورية الرومانية في فجر القرن الأول، متطابقة مع عصر المقاتلين في الحضارة الغربية الذي يقول به ساركار. نفس الشيء هيمنة الكنيسة الكاثوليكية التي أعقبت انهيار الدولة الرومانية تتطابق مع ما يسميه ساركار عصر المثقفين في نفس الحضارة لكن وفق توينبي هي مجتمع جديد. أضف إلى ذلك بالاختلاف مع توينبي لا يتوقف ساركار عند هاتين المؤسستين فقط،

(*) تصور ساركار لوحدة التاريخ مختلف بالتأكيد تماماً عن الصيغة الأوروبية، التي تمتدح الغرب وتهمل كل النظم الاجتماعية الأخرى. وفق ساركار، وحدة التاريخ تستمد أصولها من أن كل الحضارات يجب أن تتطور على طول الطريق المحدد بقانون الدورة الاجتماعية.

لكنه يتابع طريقه لإدخال عصر الجماعين، الذي حل محل المثقفين عند انحدارهم والذين كانوا يحكمون بواسطة الكنيسة.

كل هذه العصور تتوافق مع عقلية الطبقة الاجتماعية المهيمنة بينما في مذهب توينبي، ترتبط المراحل المعنية في التاريخ بالمؤسسات التي تطبع وقتاً طويلاً مختلف الحضارات. بالنتيجة إذا هذه المؤسسات زالت من على وجه الأرض، أو فقدت فاعليتها، وهذا ما يحدث لها جميعاً في يوم ما، فإن الحضارة المرتبطة بها - حسب توينبي - أما تنهار أو تتبع نسلها - أتباعها -. لكن لأن ساركار يتحدث وفق مصطلحات العقل الإنساني ذا الخصائص الثابتة، فإن نظريته مرنة وقادرة على استيعاب التنظيمات، والأخلاق والعادات الجديدة. ولهذا فإن هذه العصور تستطيع الظهور دورياً في مجرى التاريخ: في الماضي، والمستقبل. مع أن المؤسسات والقواعد والقوانين يلحق بها الفساد بحكم التطور الطبيعي.

اعتراف توينبي بمؤسستين أبديتين وعالميتين فقط - الدول والكنائس الكونية - أجبره أن يكون متشائماً أكثر مما يجب بالنسبة لمصير الحضارة الغربية، والتي يعتقد أنها لم تتوقف عن الانحدار منذ القرن السادس عشر، وهي الفترة التي فيها الكنيسة الكونية أضعفها مجيء الملوك الأوتوقراط والحروب الدينية. إنه يلح خصوصاً على النتائج السيئة للحروب الدينية في ألمانيا وفرنسا وأسبانيا، وخاصة اضمحلال العقيدة. هنا الكثير من التعسف. وهذا

ما كشف عنه كثير من المؤرخين وخاصة منهم «جيل» لكن هذا لا يهمنا هنا. لعدة أسباب حقيقية أو خيالية، يعتقد توينبي انهيار الأديان بالنسبة للمجتمع الغربي مدمراً، وأنه كان بداية انحدارها، صدقنا أم لا نصدق، منذ أربعة قرون. توينبي يلح على أنه حالما يبدأ الانحدار فإنه لا يمكن أيقافه، لا يمكن عندئذ تفادي رصاصة الرحمة، مهما كانت قوة الانجازات السابقة لبعض أعضائه الأفراد. هكذا من وجهة نظره، يمر الغرب بمرحلة شاقة من التحلل والتي مدتها ليست معروفة بالنسبة لنا.

في رأي ندرة المؤسسات الكونية في مذهبه، هي التي تجعله على هذا القدر من التشاؤم بالنسبة لمصير العالم الغربي. حالما تختفي الكنيسة الكونية ماذا يبقى؟! التفكك بالطبع أو التحول إلى حضارة جديدة!

ساركار أكثر تفاؤلاً، فرضيته مرنة بشكل كاف لتستوعب كل التغيرات. إنها تقترح أن الغرب اليوم في الفترة المنحدرة من عصر الجماعين، والتي بما أن أي عصر لا يمكن أن يدوم أبدياً، ستخلي مكانها لعصر مقاتلين جديد. هكذا لحظة من الدورة الاجتماعية العضوية تحل محلها أخرى. لكن الحضارة الغربية باقية على قيد الحياة، وتخرج ربما أكثر ازدهاراً. بالطبع عصر المقاتلين الجديد لن يكون عهد ملوك ودكتاتوريين طغاة، هذا ببساطة لا يمكن تصوره، لكن جماعة ذات خصائص قتالية تكون لها السيادة.

فوق هذه القواعد الدائمة يبني ساركار نظريته، عمل توينبي كان بداية، وساركار يضيف اللمسات الأخيرة، وأكثر من هذا أنه يتفادى عدة أخطاء وقع فيها توينبي. هكذا يعرض ساركار ببساطة نموذج واسع للتطور التاريخي. لكنه ليس جازماً بالنسبة لقوانين النمو والانحدار لمجتمع ما. لأنه يدرك أن مثل هذه القوانين لا يمكن أن تحصر في مصطلحات علة واحدة(*) على طريقته يعترف ساركار بالدول والكنائس الكونية عند توينبي، لكنه متفقاً مع نقاد الأخير، لا يعتقد أن الكنيسة تمثل خطاً فاصلاً بين الحضارة القديمة والجديدة. حضارة ما يمكن أن تدوم أبدياً بالرغم من أن مؤسساتها المميزة يمكن أن تظهر وأن تختفي. هكذا يبني ساركار حيث توينبي وماركس توقفا.

(*) في جزء آخر يصف ساركار العناصر الأساسية التي تدفع محرك التطور الاجتماعي. لكنه هنا أيضاً يتحدث في مصطلحات عامة جداً بدلاً من الوقوع في فخ الحصر والتحديد.

المراجع

1 ـ بيتر جيل: **نقاش مع مورخ** ـ كليفلاند ـ 1962

2 ـ ماركس: **ما قبل الرأسمالية** ـ لندن ـ 1964

3 ـ . . . . **كتابات الشباب** ـ نيويورك ـ 1967

4 ـ كارل ماركس ـ انجلز: **البيان الشيوعي** ـ نيويورك ـ 1965

5 ـ أكريا راقونات: **تفسير جديد للتاريخ** ـ دنفير ـ 1972

6 ـ ساركار: **الفكرة والأديولوجيا** ـ دنفير ـ 1967

7 ـ ر.ن. ستروميرج: **توينبي مؤرخ عصر في أزمة** ـ جامعة اللينوا ـ 1972

8 ـ ساركار: **المجتمع الإنساني** ـ دنفير ـ 1967

9 ـ توينبي: **دراسة في التاريخ** ـ لندن ـ 1961

الفهـرس



تعريف بالمؤلف: د. رافي باترا

صاحب كتابين مشهورين على قائمة نيويورك تايمز. وهما «الأزمة الكبرى لسنوات التسعينيات» و«البقاء بعد أزمة التسعينيات الكبرى».

يعتبر من أوائل الاقتصاديين في العالم. يعمل بالتدريس في جامعة سوتيرن ميوتدسيت حيث ترأس قسم الاقتصاد ما بين 1977 و1980. صنف الثالث من مجموعة عددها 46 من المشاهير تم اختيارهم من قبل مجلة البحوث الاقتصادية من بين كل الجامعات الأمريكية والكندية وله أيضاً كتابان مهمان في النظرية الاقتصادية الدولية.

تعريف بالمترجم: د. رجب بودبوس

أستاذ الفلسفة المعاصرة بالجامعات الليبية

عمل بالتدريس في قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ جامعة

قاريونس ثم رئيساً لقسم الفلسفة عام 1979، وأميناً مكلفاً لقسم اللغة الفرنسية، وبعد ذلك أميناً للجنة الشعبية للبحث العالمي ثم أميناً للجنة الشعبية للشؤون العلمية بجامعة قاريونس، وأميناً لمركز بحوث العلوم الإنسانية حتى عام 1987 حيث صعد أميناً للجنة الشعبية العامة للإعلام والثقافة حتى عام 1990.

له عدة مؤلفات وأعمال أخرى بعضها باللغة الفرنسية ومعظهما باللغة العربية. كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية.

يعمل حالياً أستاذاً للفلسفة المعاصرة بالجامعات الليبية.

أعمال الدكتور رجب بودبوس

1 ـ **الآلة الجهنمية ـ القدر ـ جان كوكتو**، قورينا ـ كلية الآداب، 1971، مسرحية ـ ترجمة.

2 ـ **في انتظار قودو ـ صمويل بيكيت**، صحيفة الحقيقة، 1971، مسرحية ـ ترجمة.

3 ـ **التخيل: رسالة ماجستير**، مخطوطة، 1973، باللغة الفرنسية.

4 ـ **في المنفى**، دارقورينا، 1975، رواية.

5 ـ **ثلاثي المثالية**، الدار الجماهيرية، 1976، دراسة.

6 ـ **أنطولوجيا الحرية ـ رسالة دبلوم دراسات معمقة**، مخطوطة، 1976، باللغة الفرنسية.

7 ـ **مشكلة الحرية: رسالة دكتوراه**، مخطوطة، 1977، باللغة الفرنسية.

8 ـ **محاضرات في النظرية العالمية الثالثة**، الدار الجماهيرية، 1980.

9 ـ **في الحل الاشتراكي**، الدار الجماهيرية، 1982.

10 ـ **أخلاق الاجتماع**، دار المعارف ـ تونس، 1983.

11 ـ **نحو تفسير اجتماعي للتاريخ**، الدار الجماهيرية، 1984.

12 ـ **محاولة في علم الثورة**، الدار الجماهيرية، 1985،

13 ـ **المحافظية والتقدمية ـ أعمال ندوة جنيف**، I.P.O، 1985، باللغة الفرنسية.

14 ـ **الدين والعقل**، الدار العربية تونس ـ طرابلس، 1987،

15 ـ **الإرهاب وضد الإرهاب ـ أعمال ندوة جنيف**، I.P.O، 1987، باللغة الفرنسية.

16 ـ **الفوضوية**، معهد الإنماء العربي، 1989.

17 ـ **تفسير اقتصادي**، الدار الجماهيرية، 1989.

18 ـ **مواقف 1**، الدار الجماهيرية، 1992.

19 ـ **أدبيات**، الدار الجماهيرية، 1992.

20 ـ **الإسلام ومسألة الحكم**، الدار الجماهيرية، 1993.

21 ـ **مواقف 2**، الدار الجماهيرية، 1993.

22 ـ **قيام وانهيار القوى الكبرى ـ بول كنيدي**، الدار الجماهيرية، 1993، مراجعة وتقديم.

23 ـ **فكرة ما عن الجمهورية ـ** ج. ب. **شافاغو**، الدار الجماهيرية، 1993، مراجعة.

24 ـ **اللعبة الكبرى ـ هنري لورانس**، الدار الجماهيرية، 1993، مراجعة.

25 ـ **مواقف 3**، الدار الجماهيرية، 1994.

26 ـ **مدخل إلى الفلسفة ـ جيلبير بوس**، الدار الجماهيرية، 1994، ترجمة وتقديم.

27 ـ **الرأسمالية والاشتراكية ـ ألبير البيرتيني**، الدار الجماهيرية، 1994، ترجمة وتقديم.

28 ـ **مواقف 4**، الدار الجماهيرية، 1994.

29 ـ **عالم القطب الواحد والديمقراطية ندوة قسم الفلسفة جامعة انسبروك ـ النمسا**، I.P.O، 1995، باللغة الفرنسية.

30 ـ **مواقف 5**، الدار الجماهيرية، 1995.

31 ـ **فلسفة الفلسفة ج1 ـ ما الفلسفة؟**، الدار الجماهيرية، 1995.

32 ـ **فلسفة الفلسفة ج2 ـ مباحث الفلسفة**، الدار الجماهيرية، 1995.

33 ـ **فلسفة الفلسفة ج3 ـ مشكلات الفلسفة**، الدار الجماهيرية، 1995.

34 ـ **تبسيط الفلسفة**، الدار الجماهيرية، 1996.

35 ـ **مواقف 6**، الدار الجماهيرية، 1996.

36 ـ **محاضرات في الفلسفة المعاصرة**، دار الأندلس، 1996.

37 ـ **قضايا سياسية**، الدار الجماهيرية، 1996، مشترك.

38 ـ **القاموس ـ سياسي**، الدار الجماهيرية، 1996.

الغلاف: علي شمس الدين

بعد الشيوعية
سقوط الرأسمالية

ليست الرأسمالية أقل مادية من الشيوعية، بل ربما أسوأ مادية، إن الماركسية تنكر الدين وتحل المادة محل الله، لكن الرأسمالية لا تحل العجل الذهبي محل الله فقط، بل أيضاً لا تستحي أن تستخدم الله وكنائسه في خدمة شراهتها التي لا تشبع للمال.

4.000



مصراتة ـ ص.ب. 17459 ـ مبرق 30098 مطبوعات ـ هاتف: 614418 ـ بريد مصور 614816 ـ 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى